
رواية
ليلى عبدالله
دفاتر فارهو
مكتبة ١٣٣٧
المتوسط



ليلى عبدالله: أو كما عرفناها سابقا باسم «ليلى البلوشي» كاتبة عمانية مقيمة في دولة الإمارات، صاحبة مدونة «أتنفّس بهدوء». صدر لها «رسائل حب مفترضة بين هنري ميللر وأنابيس نن»، و«هواجس غرفة العالم»، و« كائناتي السردية»، و«أريكة وكتاب وكوب من القهوة».

تكتب أيضاً في أدب الطفل ولها كتاب بحثي بعنوان «أدب الطفل في دولة الإمارات»، وآخر نقدي يتضمن دراسات في قصص ألفها مجموعة من الأطفال بعنوان «تحليقات طفولية في مجال الكتابة الإبداعية».

تدير الآن قناتها الثقافية الخاصة على تيليجرام «هواجس غرفة العالم».

المتوسط

من الكتاب:

لا حاجة لي، يا كارل، أن أحكي لكَ ما جرى تمامًا، فضائحي كلها في الدفاتر، وفضيحة أختي كذلك. هل سيتكفّل المونتاج بحذف غير اللائق لبرنامجكم العالمي، أو ربّما ناسبتكم الفضائح، وصوّرتُم لها مشاهد تمثيلية مثيرة، تجذب لكم ملايين المشاهدات؟ أنا أفهم، يا كارل، صدِّقني أن بعض كلامي لا شأن له بموضوع الفيلم، ولكنْ، بما أنني اخترتُ البوح، فعلي أن أكون أمينًا في نقل ذاكرتي، توجّستُ سابقًا من أن تأخذ دفاتري وتتصرّف بها وفق ما تراه لفيلمكَ الوثائقي، لكني الآن مقتنع، من واجبي أن أضعكم أمام المسبِّبات جميعها التي يمكن أن تصلوا من خلالها إلى نتيجة معقولة لأوضاع اللاجئين في المخيّمات. فما سترونه في تجربتي جزء من المرآة التي تعكس حالنا لكم، وما نحن اللاجئين إلا شظايا متناثرة في هذا العالم، كنّا جميعًا نظهر في تلك المرآة، بما فيها من بؤس وشقاء بعد أن هشّمتْنا الحرب.

وحتّى تستطيع أن ترى المرآة واضحة قبل تشظّيها، لا بدّ لي من إنهاء الحديث في هذا الأمر، الدفاتر ليست حياتي فقط، أو معاناة أمّي وأختي؛ الدفاتر هي تلخيص لأحوال اللاجئين ..

منشورات المتوسط



دفاتر فارهو

المؤلف: ليلى عبدالله / عنوان الكتاب: دفاتر فارهو

الطبعة الأولى: ٢٠١٨.

الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-81-9



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

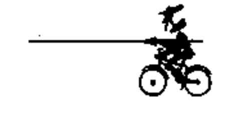
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia

العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.

www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

ليلى عبدالله

دفاتر فارهو



المتوسط

إلى بطلي الصغير " زايد " الذي يقاوم الكيمو بشجاعة رجل كبير..

علمتني بأعوامك الخمسة كيف أكون مناضلة وكيف أعيش هذه الحياة كما أريد.

"عليكِ أن تفهمي، لا أحد يضع أطفاله في قارب إلا إذا كان الماء أكثر أمنًا من اليابسة،

... أريد أن أعود إلى وطني، لكن الوطن فم قرش.

الوطن فُوَّهَة مسدّس.

ولا أحد يرحل عن وطنه إلى الشاطئ إلا إذا طلب منكَ الوطن

أن تُسرِّع ساقَيْكَ

أن تترك ملابسكَ وراءكَ

أن تزحف عبر الصحراء

تخوض المحيطات

تغرق

تسلم

تكون جوعًا

تَوَسَّلْ

انسَ الكرامة

ما يهمّ هو أن تبقى حيًّا

لا أحد يرحل عن وطنه حتّى يكون الوطن صوتًا عذبًا في أذنكَ ..."

ورسان شري _ شاعرة صومالية مهاجرة



في السابعة من عمري أو أصغر بقليل أو ربّما أكبر بقليل، وجدتُ نفسي في بلدٍ غريب؛ لم يكن العمر يشكّل فرقًا لمَنْ هم مثلنا؛ فأعمارنا لا تُقاس بالسنوات المكتوبة في شهادات الميلاد، بل بمدى الوجع الذي نطمح في اجترار أقلّ قَدْر منه. لطالما شعرتُ أنني أكبر من عمري. أكبر من أقراني. أكبر من الحياة التي حبستُها في دفاتري.

ها أنا على مشارف الثالثة والأربعين، كما تشير وثائقي الرسمية التي أُبرزها في كل مكان أكون فيه. هذه الوثائق، ويا للسخرية! هي هويّتي التي بضياعها أضيع.

***

كم سنة مضت على مشهد المرأة النحيفة في المخيّم؟! صورتها في رأسي؛ تقف بظهر منحنٍ وفم طفلها متشبّث بثديها المتدلّي كبالون معبّأ بالرمل، تقف في مواجهة رجلَيْن أفريقيَّيْن. أخذت تسرد عليهما حكايتها منذ نزوحها عن مدينة "بيداو" بجنوب الصومال، إلى أن حطّت رحالها في مدينة "بوصاصو" بعد أن توفيّ زوجها. ترعى وحدها صغارها السبعة، تعيلهم بعملها في نقل القمامة. روت موجز حياتها للرجلَيْن الغريبَيْن بصوت محايد، وكأنها تروي قصة حياة إحدى جاراتها.

وحين فرغت المرأة من نزّ حكايتها، انتقلا إلى أمّي التي رحّبت بهما

بصوت يشوبه الوجل، وطلبت منهما الجلوس في المساحة الصغيرة قريبًا من مدخل الخيمة البالية، حيث كنتُ أستلقي. كانا نحيفَينْ، وتتدلىّ من أعناقهما قلائد من خيوط سُود، تحمل علامة الصليب. بدأ أحد الرجلَينْ الحديث، أذكره تمامًا، (كما قلتُ لكَ، يا كارل، نحن أكثر شعوب العالم صبرًا وتذكّرًا). قال بنبرة حاسمة، وهو يوزّع نظراته بين أمّي وجارتها:

- حين تُوفّران المبلغ، سنكون جاهزين للانطلاق .. نبحر أوّلًا صوب اليمن، ومن هناك تستطيعان التّسلّل إلى الخليج .. الأقرب لكما السعودية.

سألتْ أمّي بصوت وَجِل:

- كم ستُكلِّف الرحلة؟

نظر إلى وجه صاحبه بنظرة متواطئة:

- ٢٠٠ دولار للرأس.

- ماذا؟ ٢٠٠ دولار؟ هل المبلغ عن شخص واحد بالغ؟ ماذا عن طفلَينْ؟ وضعت أمّي يدها على رأسها.

تملّى الرجل هيئتي الشاحبة، وتمعّن برهة في أختي "عائشة" قبل أن يقول:

- ربّما يُعفَى الصغير، ولكن الفتاة بالغة.

استفسرت المرأة الهزيلة بينما طفلها يلعب بجزء من صدرها العاري المتدلّي من ثوبها العتيق المشقوق في أعلى الياقة:

- ماذا لو توفّر المبلغ؟ .. كيف ستكون طريق الرحلة؟

- مثلما وضّحتُ لكما، سنركب قاربًا يقلّنا إلى الشواطئ اليمنية، ومن هناك، يمكنكما التّوجّه إلى السعودية، ومنها إلى أي بلد خليجي آخر .. ستجدين دربكِ.

ثمّ أضاف الرجل الآخر، ليعزّز الثقة:

- ثقوا بنا، فنحن أبناء وطن واحد، ويجمعنا دين واحد. بعض القوارب الأخرى لا يمكن الوثوق بها؛ فالقراصنة سوف يُلقونكم في وسط المحيط طعامًا لأسماك القرش بعد أن يستولوا على أموالكم. وإن نجوتُم من أسماك القرش، فلن تنجوا من الجوع والعطش والغرق ... قبل أن تصلوا إلى الشواطئ الآمنة.

- كم يومًا سيستغرق الوصول؟ سألت المرأة.

- أربعين يومًا .

قالها الرجل وعلى فمه استقرّت ابتسامة مبهمة!

دارت الدنيا بأمّي، فكيف ستوفّر هذا المبلغ؟ ومن أين؟!

بعد ثلاثة أيّام، اهتز المخيّم على خبر أُذيع في الصحف وقنوات الأخبار، خبر كان مبشّرًا لكثيرين، وكان مقلقًا لنا:

(عزمت الهجرة الدولية على مساعدة مجموعة من المهاجرين الإثيوبيّيْن في الصومال للعودة إلى ديارهم خلال الأيّام القادمة، وعلى وجه السرعة. فقد أفاد راديو الأمم المتّحدة نقلًا عن منظّمة الهجرة الدولية، أنها ستساعد نحو خمسمائة مهاجر إثيوبي، تقطّعت بهم السُّبُل في الصومال على العودة إلى ديارهم، وعلى إعادة الإدماج).

ألم تتعب من ملاحقتي، يا كارل؟ سنوات، ومازلتَ تريد تحويل حياتي إلى فيلم.

أعلم أنكَ من الذين ظلّوا يتفقّدون ظروف اللاجئين طوال سنوات، وأنكَ عبر برامجكَ المتنوّعة، كنتَ تنافح عن حاجة المعدَمين في المخيّمات إلى الماء، فسنوات الجفاف صارت تهدّد حياة الملايين، وتُخبرهم عن أهمّيّة التعقيم لتجنّب الأمراض المتفشّية خلال السنوات الأخيرة، وتساعدهم على توفير الحاجات الأساسية لحياة أخفّ وطأة.

أنتَ أكثر مَنْ يعلم، يا كارل، بأنني كائن توثيقي. لقد سجّلتُ في سنوات حبسي كل ما مررتُ به. كانت ذاكرتي عُدَّتي وعتادي. ولقد كانوا كريمين معي في الحبس. يُحضرون لي دفاتر وأقلامًا، بل سُمح لي بإكمال دراستي مثل بقية الصّبية هناك. كنتُ في أوقات فراغي أنكفئ على ذاتي، وأضع ذاكرتي أمامي. أتحاور معها، وأسحب حكاياتها رويدًا رويدًا. ذاكرتي متّقدة، كريمة. كنتُ خائفًا أيضًا أن تُصادَر ذاكرتي؛ أعني أن تُصادَر الدفاتر التي دوّنتُ فيها كل ما مررتُ به؛ لذلك خبّأتُها جيّدًا. سجّلتُ الحوادث في أكثر من دفتر. وخبّأتُ كل واحد منها في مكان. مع ذلك، كانت الأمور أسهل ممّا تصوّرتُ. كان الإخصائيون النفسيون يثنون على مبادراتنا في القراءة أو الكتابة أو الرسم. كانت المواهب مدعومة من قِبَل الجهات الرسمية لإعادة تأهيلنا. ولتهذيب سلوكياتنا الشّاذّة نحن الضحايا، كما كانوا يرون. وحين زرتَني أنتَ مع رفاقكَ النشطاء من منظّمة حقوق الإنسان لمعاينة أوضاعنا في سجن الأحداث. كنتَ خلاصي؛ خلاصًا لذاكرتي، كي تتحرّر من دفاترها، وأُريحَها بعد سنوات من التدوين. بعد أن اطمأننتُ إلى جانبكَ، وضعتُ سرّي، بل حياتي كلها في يدكَ؛ سلّمتُكَ دفاتري. وحين خرجتُ لأستردّها منكَ،

وجدتُ أن فضولكَ طافح. بدايةً كنتُ خائفًا، ورفضتُ محاولاتكَ كلها. للاطّلاع على الدفاتر.

فهذا كله فوق طاقتي. نبشُ أوراقي الشخصية تعني أن أقف أمام نفسي عاريًا. تعني أن أكون صادقًا ومخلصًا مع نفسي قبل أي أحد آخر. تعني أن أخلع جلدي، أن أخضع لجلسة مساءلة، تستدعي ما كنتُ أظنّه خبيئًا في قلبي الموصد. تعني الخلاص أيضًا غير أنه خلاص لم أكن أجرؤ عليه.

أقنعتَني برأيكَ: أنني خسرتُ أفراد أسرتي كلهم؛ وقد غدوتُ بلا شاهد على حياتي السابقة؛ تلاشوا وكأني جئتُ من العدم، وهذه الدفاتر وحدها هي مَنْ تُثبت وجودهم؛ وجودي!

ها هي الدفاتر التي أخشاها أمامكَ، وقد آن أوان فَضِّها، ولكَ، يا كارل، أن تجسّد حكايتي، كما يليق بفيلمكَ الوثائقي.



لوّحتُ بيدي السوداء الصغيرة اللّامعة بالعَرَق، فوقفتْ سيّارة بيضاء كبيرة، كانت مسرعة على الطريق الترابي لحيّ مهجور، تمرق عبره المركبات التي اعتادت أن تختصر ازدحام الشارع العامّ بالسير في طُرُق خلفية.

على جانبَي الطريق الترابي آثار لمحلات ودكاكين ومطاعم قديمة؛ مكسورة أبوابها، مخلوعة نوافذها. زحف عليها أطنان من الغبار بعد أن هجرها أصحابها حتّى صارت شبكة عنكبوت مهولة. غادرها معظم القاطنين إلى أحياء فاخرة تاركين بيوتهم الطينية تتآكل، بفعل الزمن، وتصير مرتعًا لأشباح مَنسية، تمرح فيها قطط الشوارع، ويلوذ بها عمّال متهرّبون من دفع الإيجارات، عمّالٌ يفتّشون عن سقف، يأوي أجسادهم المتهالكة بعد يوم شاقّ من العمل المحطّم للمفاصل مذ ساعات النهار الأولى حتّى آخر رمق من شمس المغيب.

كان أوّل حيّ اقتادوني إليه، وضعوني في منتصفه، فبدوتُ ككلب ضالّ، لكني في الوقت ذاته أترقّب كذئبٍ فريستي.

حين ركنتُ السّيّارة ثارت خلفها سحابة من غبار اخترقت جسدي الواقف على جانب الطريق، ناداني صاحب السّيّارة بنبرةٍ آمرة: تعال، هنيه هين نوّك؟ هرعتُ إليه والعبارة تنطلق من فمي مرتعشة: "ممكن

تساعدني؟ .. أنا ضايع" سألني صاحب السّيّارة عن اسم الحيّ الذي أقطنه، وتفاصيل المكان، ثمّ طلب منّي أن أصعد، لأجلس في المقعد المجاور له. مدّ يده الضخمة، ليصافحني، كانت يده السمراء المشعرة دافئة، على الرغم من برودة المكيّف بينما يدي المحترقة بالسواد باردة، على الرغم من حرارة الجوّ في الخارج.

ارتقيتُ لاهثًا السّيّارة المرتفعة عن الأرض، واسترخيتُ في المقعد الأمامي، لفحت أنفي رائحة عطر مركّزة، العَرَق ما يزال يرشَح من جسدي، على الرغم من هواء التكييف الباعث على برودةٍ، تُشعِر المرء وكأنه في فصل الشتاء.

حين رأى الرجل أثر الحرارة على جسدي الضئيل، زاد من درجة تكييف مركبته حتّى آخره بينما صوت المسجّلة العالي كان يصدح بلهجة بدوية، ظلّت كلماتها تتقافز في رأسي الصغير: "شافني صدفه وحياني وقفّى / بالعيون وخاطري فيه التفاته ..."(*) لم أتمكّن من مجاراة كلماتها لصعوبتها، لم أفهم مغزى أكثرها، لكن نبرتها أخافتني، فقد بدت وكأنها متواطئة!

خفض صوت الأُغنيّة المنسابة، في وقت كانت فيها الشمس تجلد الأرض بلهيبها بينما طفق صوته ينبّهني بتوجيه أبوي رخيم، على الرغم من نبرته المرحة عن مغبة خروجي في مثل هذا الوقت دون علم أهلي في منطقة مقطوعة، قد تداهمني فيها أخطار جمّة، في عالم أصبح لا يأمن حتّى الكبار شرّه، فكيف بصبيّ صغير في مثل عمري؟!

بلعتُ ريقي بصعوبة، ولم أنطق بحرف، عوضًا عن ذلك، رفعتُ

---

*) أُغنيّة للمطرب الإماراتي ميحد حمد.

إصبعي، لأشير إلى الدرب التخميني الذي يؤدّي إلى بيتي المزعوم. البيت الذي تهتُ عنه كقادم جديد من بلاد بعيدة، حين انقادت السّيارة وصاحبها إلى مجرى الطريق، شعرتُ أن حجّتي انطلت عليه، وما كادت السّيارة تجتاز الطريق الترابي وترتقي رصيف شارع عامّ حتّى أدار وجهه ناحيتي، يده تقبض على المقود، وصوته يطغى على الأُغنيّة مُرحّبًا بلهجته:

- يا هلا باللي لفانا، حيّا الله فيك يا ......

وكَمَنْ يتذكّر شيئًا:

- صحيح، ما خبّرتني عن اسمكْ، يا ولد؟

فاجأني سؤاله لوهلة، وحين طال صمتي قهقه، وصار يخاطبني بنبرة مازحة:

- أكيد والديك الله يحفظهم ما نسوا يسمّونك .. ها ..؟

لم أضع في حساباتي أن تُوجَّه إليّ أسئلة، لم يُخبروني بذلك، ولا حتّى نبّهوني كيف أتصرّف. لم يُبلغوني سوى أنّ عليّ ألّا أقول الحقيقة، وألّا أزيد في الكلام.

وأن تلك العبارة "ممكن تساعدني، أنا ضايع" التي طفقتُ أردّدها طوال الأيّام الماضية ومعرفة عنوان البيت ستفي بالمهمّة. بدت لي أسئلة الرجل مريبة، ووجدتُ نفسي مضطرًا لمجاراته، لم أضع ببالي أني سأتعامل معها باستفاضة، يسأل هو، وأجيب أنا، يسأل عن اسمي وهويتي، عن سبب قدومي وعن أمّي وأبي، وأين كنتُ أريد الذهاب؟ وفي أي مرحلة أدرس؟ وعن طريق البيت الذي ضللتُ عنه، والمنطقة السكنية التي أستقرّ فيها حاليًّا مع أهلي، وأسئلة أخرى؟ وكأن الأسئلة تتوالد من الأجوبة!

تماهيتُ بمهارة مع لعبة الأسئلة، ادّعيتُ أن أمّي متوفّاة، وأنّ أبي رجل طاعن في السّنّ، وهو مَنْ يعتني بي: "لطالما رغبتُ في أن أعتني بأبي، أن يكون معي، ولكني طمستُ تلك الرغبات المستحيلة في صدري!".

استرسلتُ في تفاصيل، كأنها تخصّني فعلًا، قلتُ له بثقة يشوبها الخوف بأن اسمي "عثمان" واسم أبي "صادق"، وحين سألني عن بلدي، كانت خياراتي ضيّقة؛ فجلدٌ داكنٌ كجلدي يفضح هويّتي؛ قارّة وشمت خلودها على جسدي الأسود؛ أفريقيا. كان عليّ أن أختار اسم البلد الذي أنتمي إليه، كي أعزّز المعرفة بيننا. حين أخبرتُه بأنني من السودان، تملّكتْني الدهشة من نفسي، لقد خرجتْ منّي بتلقائية، كأنها بلدي حقًّا، لا من اختراع لحظتي المتورّطة!

لكنه لم يتفاجأ، بل طفق في نبرة متحسّرة يحكي عن مأساة البلد الذي انتسبتُ إليه:

- مساكين أنتو .. هيه والله مساكين، زين نجيت أنتِ وأهلك من المجاعة، أكيد تبرّعاتنا وصلتكم.

جفّ حلقي حين سمعتُ ما قاله، أدركتُ أنه يعني الصومال والمجاعة التي أكلت خيراته، وبدا لي أن هذا البدويّ لا يميّز ما بين السودان والصومال، حدقّ في وجهي بصمت مريب، وحين كدتُ أن أجيبه أضاف:

- من وين في السودان بالضبط، من شمالها ولا جنوبها؟ بلاد الله قسّموها، الله يلعن اليهود وأمريكا هم ساس البلا.

لا أعرف بماذا أجيب؟ لم أزر السودان، ولا أحيط علمًا بأسماء مُدُنها

سوى أن عاصمتها الخرطوم، كما علّمتني أختي. قلتُ بسرعة كَمَنْ يخشى أن ينسى المعلومة:

- الخرطوم.

عبرت وجهه ابتسامة مجاملة قبل أن يقول:

- والنِّعم، أهل السودان أجدع ناس، يا زول! قالها، ثمّ ضحك، ليُجبرني على الابتسام.

لم أتعرّف على صوتي، بدا غريبًا، متحرّرًا عنّي وعن حقيقتي. صوتي بدا مشروخًا، يقطر كذبًا. أدركتُ يومها بمرارة أن الأكاذيب تشرخ مجرى الكلمات في الحَنْجَرَة، لينزلق الصوت مهزوزًا. أيقنتُ أن للكاذب أصواتًا متعدّدة. وحدها حَنْجَرَة الصادق تفيض بصوت واحد، لا يتلوّن حتّى آخر حياته.

أمّا صوت الرجل – صاحب السّيّارة – في لحظة المداهمة تلك كان حقيقيًا. لم أعرف عنه شيئًا، ليس من مهامّي ذلك، فهو بالنسبة إليّ مجهول، وسيظلّ مجهولًا، ربّما خشيتُ أن أعرف عنه أو عن جزء من سيرته، فأتراجع عن مهمّتي. لا يقوّض حياة المرء سوى تلك الصلات الاجتماعية الوثيقة التي يشعر بها تجاه كل مَنْ يعرفهم.

إلمامي بتفاصيل حياة هذا الرجل دون أن أتراجع عن ما أضمره له، قد تظلّ لصيقة كوابيسي؛ لذا رجوتُ طوال الطريق ألا أكون مضطرًا لتبادل الحوار معه.

رجوتُ أن يظلّ أخرس، وأن أكتفي بترديد العبارة إيّاها: "ممكن

تساعدني، أنا ضايع"؟ رجوتُ أن يرفع هذا الغريب من صوت الأُغنيّة البدوية حتّى تغطّي على وجيب خوفي.

الوقت قارب ساعة الانصهار، والشارع بدا خاليًا سوى من بعض سيّارات، يبدو على سائقيها الاستعجال والإرهاق بعد دوام صيفي لزج، كادت السّيّارة من فرط سرعتها أن تدهس قطّة، بدت خطواتها بطيئة ومتهالكة، بفعل الحرارة، شتمها بلهجته: "يا بنت اللذينا ..." كما لو أنها آدمي قبل أن يتحكّم بسرعته، ويستدير بعيدًا عنها.

بينما وجدتُ نفسي أسترق النظر إليه رغمًا عنّي، وبفضول متحفّز إلى بعض تفاصيله، رجل يميل إلى السمنة، وجهه بَشّ وحليق بعناية، يلمع من الصّحّة، ثوبه أبيض، يعتمر على رأسه ما يسمّونه هنا قطرة أو ربّما غترة، لا أعرف بالتحديد التسمية الأصحّ!

لا أعلم لمَ وقع اختياري على رجل متكتّل اللحم، كان يمكن أن أتحاشاه، ولا أستوقفه بيدي. كان يمكن أن يكون محلّه رجلٌ آخر، رجلٌ ربّما نحيف، لكني على يقين بأني لو تحاشيتُه لاختارت الصدفة رجلاً غيره، هو أو آخر لا فرق لديّ، ولا أريد أن أشغل بالي بذلك. صككتُ على أسناني بشدّة، وأطبقتُ على جفنَيّ حين لامستْ تلك الجملة الأخيرة قلبي.

بدت الدقائق العشرون ونحن في طريقنا إلى حيث يجب أن يقودني مديدة للغاية، وحين وقفت السّيّارة أمام بيت؛ بابه من حديد، بطلاء حليبيّ ومقشّر، قال الرجل بحماس مَنْ نجا من معركة حامية:

- ها بيتكم، متأكّد ولا شو؟

انقبض قلبي لوهلة، لهثت أنفاسي المخنوقة، وابتلعتُ ريقي قبل أن أخاطبه بلغة متوجّسة:

- هو بيتي بالزبط، أبوي راح يفرح لما يشوفك.

لكنه أخرج من محفظته مبلغًا من المال. وضعها في كفّي الصغيرة، وهو يقول مستعجلاً:

- اسمحلي، أنا مستعيل، في المرّة اليايه إذا تهتْ عن دربك، راح أنزل أسلّم عليه .. أطلق ضحكة عالية، وهو يختم العبارة بجملته الساخرة تلك!

كاد تردّده في مرافقتي أن يهدم محاولتي الأولى. كان عليّ أن أستميله إلى الداخل مهما كلّفني ذلك من حِيَل. حدّقتُ في وجهه بتقاطيع على وشك سكب دموعها والمال في قبضة كفّي كما تركها، فجأة وجدتني أرمي نفسي عليه، وأنكبّ على يَدَيْه لثمًا وصوتي يستغيث:

- الله يخلّيك، انزل معي .. أبوي راح يكسر ظهري بالعصا إذا ما جيت معي، وما راح يصدّقني والله .. الله يخلّيك .. الله يخلّيك ...

فاجأتْه ردّة فعلي المندفعة، سحب يده من قبضتي المستغيثة، وراح يردّد منحرجًا:

- طيّب .. طيّب .. خلا ننزل، أسلّم عليه، وأروح عنكم ..

رافقني إلى حيث أذهب. بينما ظل محرك السيارة يهدر في المكان.

- فارهو .. فارهو ..

أسمع صوتًا لاهثًا يردّد اسمي المبعثر في انتفاضة العودة إلى المنازل. ينتفض الجميع أوّل ما يتناهى إليهم صوت الجرس. كإطفائيّيْن يهرعون إلى مسيرة النار.

لا يكفّون عن سؤال المعلّم في نهاية كل ربع ساعة من الحصّة الأخيرة وهم يجمعون أدواتهم المدرسية استعدادًا للعودة إلى البيوت: "نَضُبّ أستاذ..؟" هكذا ترددها شلّة العرب من الفلسطينيّيْن، المصريّيْن، السوريّيْن، العراقيّيْن، اليمنيّيْن، السودانيّيْن وبعض القمريّيْن الذين كانوا يُعرَفون من قبلُ بالبدون، بينما شلّة غير العرب من الباكستانيّيْن والبنغاليّيْن وبعض القمريّيْن الذين لا يُجيدون العربية جيّدًا يلفظونها: "نزُب أستاز" بقلب الضاد زايًا.

ويحدث أن ينطقها بعض الأفغانيّيْن الذين تغدو ألسنتهم ثقيلة مع الحروف العربية خصوصًا في الأعوام الأولى، فتخرج العبارة من أفواههم الأعجمية مبتورة: "زُب أستاز". كفّوا عن تداول العبارة بعد أن نهرهم معلّم التربية الإسلامية دون أن يوضّح لهم السبب. المجموعة الأفغانية انكفأت على نفسها متسائلةً عن سرّ منع هذه العبارة؛ عزموا على ترديدها في حصّة معلّم اللغة العربية الأستاذ "عطية حسني" الذي لا يتوانى عادة عن

عرض تفاصيل المسائل وأسبابها، وفي نهاية اليوم نفسه، نطق أحد الطَّلَبَة الأفغانيّينْ العبارة، لم ينتبه الأستاذ "عطية حسني"، لذا أعادتها الجماعة الأفغانية على مسامعه بصوت أعلى، وحين احمرّت أوداجه المنتفخة، أدركوا أن الأمر جلل، ولم تمضِ ثوان حتّى نفث الأستاذ "عطية حسني" لعنته في وجوههم: "لعنة الله عليكم، يا ولاد الـ ....". لكن كلمته الأخيرة من السباب تبدّدت في ضجيج جرس العودة إلى المنازل.

معلّم الدراسات الاجتماعية لم يكن يخذل نداءاتهم بضَبّ حاجياتهم في الحقيبة، بل كان يتجاوب مع لكنتهم قائلاً لهم بحماس مَنْ يريد أن يرتاح قليلاً من ثقل الحصّة الأخيرة: "ضبّوا خلّونا نِخْلص من هاليوم ..؟" يتأبّط حقيبته، ويعيد أقلام السّبّورة للتلميذ الذي اشتراها خصّيصًا لحصّته.

ولكن الحال يختلف مع معلّم الرياضيات، ولحسن حظّهم لا يصادف جدول الحصّة الأخيرة معه سوى مرّة في الأسبوع، وفي حصّته لفظتا "الضَّبّ" و"الزَّبّ" تُطمسان تمامًا. فهو يثور حين يقاطع أحدهم شرحه بالسرحان أو التثاؤب، ناهيكَ عن أحاديث جانبية في أثناء شرحه لنظرية من النظريات التي يراها أهمّ من أي شيء حوله، تثور ثائرته حين يلمح - في أثناء استغراقه في الشرح - أحد التلاميذ يضع دفترًا في حقيبته أو يحشر حافظة أقلامه فيها أو يحملها على إحدى كتفَيْه أو يدفعها ما بين فخذَيْه؛ لذلك تجنّبوا معه مسألة الزَّبّ.

حين سجّلتْني أختي "عائشة" في هذه المدرسة، أخبروها أنها لفئة البدون، وأن الأولوية في القبول ستكون لهم، لم تكن أختي تعي معنى فئة البدون، منْ يكونون؟ أو من أي أرض أتوا؟ ولماذا هم بدون؟! وبدون ماذا؟ ما الذي ينقصهم؟

فرحتْ أختي كثيرًا حين وافقوا على طلب التحاقي بالمدرسة؛ فالجميع يدرس مجّانًا سواء كانوا من فئة البدون أو من فئة الوافدين التي أنتمي إليها كما يطلقون علينا هنا.

في هذه المدرسة، لا يمكن تمييز طلاب الصفوف الابتدائية من قاماتهم؛ فمعظمهم يجلسون على المقعد المدرسي لأوّل مرّة في سنوات متأخّرة من أعمارهم التي لا يعرفون كم بلغتْ؟ فقد عوّدتهم ظروف حياتهم السابقة على إحصاء كم بقي لا كم ضاع منها في أزمنة الحروب والتّشرّد والهلع! سنوات تتجلّى على الوجوه الكالحة والأجساد الضئيلة، لمَنْ هم مثلي ضحايا الجوع والتّشرّد، والذين أنهكتْهم ويلات الحروب، أمّا الذين فرّوا منها إلى أرض أكثر أمانًا وإشباعًا، فإن أجسادهم تغدو أكثر امتلاءً عادة، ويفيضون بالصّحّة.

على الرغم من ذلك، ترى الجميع مهما عبرهم الزمن الخشن حريصين على التّمتّع بتلك الطفولة المتأخّرة بكامل نزقهم؛ يتجلّى ذلك في تدافعهم وهم يحملون حقائبهم المعلّقة على ظهورهم أو يجرّون عجلاتها على البلاط المتكسّر دافعين معها خوفهم من أن تذهب عنهم الحافلة في عتمة الليل، لا سيّما إذا لم يكن لأحدهم أخ أكبر منه أو ابن عمّ أو جار.

أمّا الذي له أخ في صفوف أعلى أو أقارب في الحافلة نفسها، فيمكث مطمئنًا أمام فصله حتّى يأتي القريب، ليمسك بيده، ويجرّه نحو الحافلة، كما لو أنه يُنفّذ مهمّة مستعجلة.

وآخرون يبكون، لأنهم وحيدون، ولأنهم تاهوا عن الطريق المؤدّي إلى حيث تربض الحافلة، ولأن الظلام قابع في زوايا المدرسة كلها. أحيانًا يضطرّ أحد المشرفين المسؤولين أن يقتادهم إلى حافلاتهم، ولكن المهمّة

تكون شاقّة عليه حين لا يُجيد الطفل الباكي العربية، ولا يفهم ما يُقال له، فيتذمّر المشرف، ويلعن الظروف التي حملته على أن يلتحق بدوام جزئي في وسط حشد، لا يجيدون العربية، ويدرسونها.

تتصاعد لعناته حين لا يجد بحوزة الصغير أي شيء يُسفر عن هويّته، فلا يجد بُدًّا من أن يقبض على يد التلميذ، ويقوده إلى حيث تربض الحافلات، ليمرّره على الحافلات المتحفّزة للمغادرة، لعلّ أحد السائقين أو الراكبين من الطلاب يتعرّف عليه، وحين تبوء محاولاته بالفشل، يضطرّ أخيرًا إلى نبش أرشيف السجلات المكوّمة في الغرفة الخلفية، والتي تقبع خلفها تمامًا مقبرة، أُشيع أنها مسكونة بالجنّ، غير أنه يقبض على قلبه النابض بعنف، ويخرس صوت هلعه الموسوس في صدره، ليُظهِر شجاعته أمام الصبي الذي يرافقه كظلّه، كي لا يضيع.

يُشعل مصباح السقف الخشبي المتآكل منذ أمطار الأعوام السابقة، يسابق خطاه صوب الخزانة الحديدية العتيقة، ليفتّش في أحشائها. يجد في أعلى رفّ من رفوفها العريضة، أوراق المستجدّين للعام الدراسي، يلتقط ملفًّا من ملفّات المسجّلين حديثًا، يقلّب أوراقها، كما لو أنه في مضمار سباق، ومن خلال الصورة يعرف الطفل رَقْم وليّ أمره.

خلال الأعوام الأولى، لم يكن لي أخ أو جار، لم يكن لي أحد أعرفه، لم تكن لي صلات مع أيّ كان، كنتُ وحيدًا في عالم صاخب؛ لهذا حرصتْ أختي "عائشة" على أن تُثبّت بطاقة بيضاء على الجانب الأيسر من صدري، كما أوصاها المشرف يوم سجّلتُ اسمي كطالب مستجدّ يلتحق بالمدرسة لأوّل مرّة في حياته، دوّنتُ بخطّ عريض اسمي بالكامل وعنواني، أمّا خانة رَقْم الهاتف، تركتْه فارغًا، على الرغم من أنها كانت تعرف رَقْم خالي الوحيد "منغستو" أو "منصور".

كنتُ أزيل البطاقة المغلّفة بمجرّد صعودي الحافلة، ربّما لأنها كانت تُشعرني بأني غريب، طفل ضالّ في أرض غريبة، ورغم حقيقة كوني في أرض غريبة، لم أكن أريد أن تتجسّد تلك الغربة الخشنة حولي كفعل، لم أكن أريد أن أعترف بها في قاعي الذي كان يسعى حثيثًا لتجديد جذوره العتيقة المنفلتة، في بلاد أحمل أوجاعها في قلبي. كان خلع البطاقة فعلاً يوميًا واعتياديًا في آن طوال السنة الدراسية الأولى، أنتزعها من الثوب الأبيض الفضفاض عليّ، وأحشرها في حقيبة الظهر التي حصلتْ عليها أمّي من أحد البيوت التي تعمل بها، كما حصلت أيضًا على الثوب الأبيض الذي أرتديه للمدرسة الـ "كندورة" كما يسمّيها هنا أهل البلد.

كنتُ أستدلّ في طريقي إلى الحافلة برأس صبي بنغالي، يتميّز برأسه الضخم وشَعْره الكَثّ، كنتُ أبصره من بعيد برقبته الطويلة النحيفة ورأسه الكبير اللامع، رأسه لا يمتّ إلى رقبته بصِلة، كما لو أنه رأس مستعار لشابّ أكبر منه بأعوام.

أتبعه في عتمة الأضواء الخافتة إلى الحافلة. كان يحتلّ المقعد نفسه دائمًا. أوّل مَنْ يصعد الحافلة من الطَّلَبَة. يجلس على المقعد المنفرد قرب باب الحافلة، حين كنتُ أراه أطمئنّ إلى كوني على متن الحافلة المَعنية التي قد يتغيّر سائقها وبعض راكبيها لتغيّر أماكن السَّكَن أو لعدم استكمال إجراءات الإقامة في أحيان أخرى مثلما فسّرت أختي "عائشة" لأمّي حين أخبرتها عن الوجوه الجديدة التي أقابلها باستمرار في الحافلة أو في المدرسة، وجوه سرعان ما تختفي.

أرتقي الحافلة، وبمحاذاة الطفل البنغالي أجلس. أراقبه، يظلّ صامتًا، يكتفي بالتّفرّج من نافذة الحافلة، أتلصّص عليه بطرف عيني. في عتمة الحافلة أضواء الشوارع تُعينني على رؤية انطباعات وجهه الشمعي

الصامد، لم يكن يضحك أبدًا، كان يبدو مشدودًا إلى عالم آخر، إلى مكان أثير، حيث صُلبّت ملامحه هناك. أتراه يفكّر في بلاده!

القمل كان سببًا فعليًا لقطع صلتي بمقعده، فحين غزا القمل شَعْري، وتكاثر؛ طلبت منّي أختي "عائشة" أن أغيّر مقعدي في الفصل، وفي الحافلة، فهذا القمل لا ينقله لي سوى هذَيْن المقعدَيْن عادة، مضيفة بتأنيب بأن القمل في بلد نظيف يُعدّ أمرًا معيبًا، وغاية في القذارة، وقد ظلّت تردّد كلّما صادفت صيبان على شَعْري:

- هل تريد أن تفضحنا بين الغرباء في هذا البلد؟

حتّى القمل الذي كان يتكاثر من حولي في بلادي دون أن يبالي به أحد، صار علينا تجنّبه هنا، كي لا يُشوّه غربتنا!

ومن يومها، غادرتُ مقعد صاحب الرأس الكبير والشَّعْر المزيّت بجوز الهند؛ رائحة نفّاذة، يشعر المرء وكأنّ مصدرها ليس رأسه، بل ثمرة جوز هند عملاقة، لم يجازف أحد بالجلوس إلى جانبه حتّى أكمل أعوام دراسته، واختفى بعدها، كأن لم يكن. أيتذكّره الآخرون؟ أم ترى وحدي، لم أنسَ رائحة جوز الهند؟!

تلاميذ الصفوف العليا لم يكونوا ينتفضون حين يُنبّههم جرس العودة إلى البيوت، بل تغدو خطواتهم بطيئة، وهي تتداخل مع نكاتهم التي يفرقعونها بضحكات مجلجلة في الردهات دون أن يبالوا بالحافلة التي تُزمِّر أو التي تتخطّاهم، فهم إمّا يكملون الطريق إلى بيوتهم مشيًا بالتّجوّل في الشوارع المضاءة أو يستوقفون أوّل تاكسي يقلّهم إلى محلّ البولينج حين يكون بحوزتهم مال يكفي لهذه المتعة.

ولكنْ، سرعان ما تتّسع خطواتهم، ويخرس صوت الضحكات، حين يمرّ بالقرب منهم المشرف المسؤول الذي يستبقهم بصوته الصارخ وهو يحدِّق شَزْرًا إلى ضحكاتهم المشبوهة، أمّا كُتُبهم القليلة، فيحملونها بخفّة، يظهر من خلالها استهتارهم؛ الكُتُب التي عكفوا على وضعها في أدراج طاولاتهم قبل أن تتفشّى ظاهرة اختفاء الكُتُب المدرسية، فامتنع الجميع عن تركها في ظلام تلك المستودعات الصغيرة لا حرصًا على الكتاب من السرقة، بل لإنذار المدير لهم بأن مَنْ يُضيّع كتابه أو يشتكي من سرقته، فإنه سيتحمّل وحده تكاليف كتاب بديل له؛ صرتُ أشّد كُتُبي إلى صدري، أتشبّث بها كأنها طوق نجاة خوف أن أفقدها.

- فارهو .. فارهو ..

أسمع الصوت يسابق صداه خلفي وسط جلبَة أصوات الآخرين، النبرة أعرفها جيّدًا، صوت لا أتوه عنه في وسط الضّجّة الهائلة لأقدام، تتسابق نحو حافلاتها الصفراء ومحرّكاتها على أهبة الاستعداد للانطلاق في أي لحظة، وحتّى من دونهم. أعرف صوته، أُميّزه، أدير رأسي مقابل الصوت .. "قاسم" صبيّ أفغانيّ، عيناه ضيّقتان كحَبَّتَي لوز، وخدّاه متورّدان من أثر الجري خلفي؛ كان يطيب له أن ينطق اسمي "فارهو"، على الرغم من أنني كنتُ كثيرًا ما أُصحّح له الاسم، ليقوم بتهجئته بطريقة سليمة، كما أطلقتْه أمّي عليّ - بعد ولادة متعسّرة - قائلةً لكل مَنْ حولها: سيكون اسمه "فارح".

قلبت يومها الجارات الأُثيوبيات المسيحيات شفاههنّ من الاسم الذي انتقتْه أمّي لي، فبعد موت أبي، اعتقدنَ أن أمّي ستتخيّر لي اسما أثيوبيًّا مسيحيًّا لا كاسم أختي "عائشة" الذي اختاره أبي قبل ولادتها، لتحمل اسم أمّه .. أمّا الجارات الصوماليات المسلمات، أطلقنَ زغاريد، تُعبِّر عن فرحتهنّ.

- فارهو .. فارهو ...

على الرغم من تصويبي له مخارج الحروف، ظلّ "قاسم" يناديني "فارهو"، يقلب الحاء هاء، ثمّ يمدّها بواو، كأنه يستلّذ بذلك. بينما كان زملاؤه من أبناء جِلْدته يدعونه "كَاسُم" بقلب القاف كافًا. ومنهم "عبد الصمد" الباكستاني الذي يجلس بقربي في الفصل، والذي استقرّ مع والديه هنا منذ عامَينْ، يناديني "فارِهْ"، كان يجد مشقّة جمّة في نطق الحروف العربية، ففي "كراتشي" في ديار والدَيْه، لم يكونوا يعرفون من العربية سوى بعض سور القرآن القصيرة، يردّدونها في الصلاة، دون أن يُدركوا جلّ معانيها. كانت الحاء من أكثر الحروف ثقلاً على لسانه. الحاء التي يقلبها هاء، والضاد التي يحرّرها من لسانه كـ "زاء"، "ضفدع" تغدو "زفدع" ... و"فارح" تكون "فاره".

-فارهو .. فارهو ..

وقف "قاسم" أمامي بسحنته البيضاء المخلوطة بحمرة وأنفاسه لاهثة من الجري خلفي، انتصب قبالتي بجسده القصير السمين أمام طولي ونحافتي وسحنتي السوداء. كنّا أشبه بعمود كهرباء فاحم ولمبة مشتعلة .. تنفّس الصّعداء، ولهاثه ينفث حرارته في وجهي، ثمّ مدّ يده نحوي:

- نسيت هازا .. مسطرة فوق تيبل داخل فصل، بكره امتحان ريازيّات ...

آخذ منه مسطرتي، وأجري صوب الحافلة، ويجري معي، كنّا ننزل جميعنا في بقعة واحدة في طرف الشارع "قاسم"، "عبد الصمد"، "خلدون"، "محمّد" نقطن الحيّ نفسه.

الفتيات كنّ يجتمعنَ بدورهنّ فترات الظهيرة قبل الذهاب إلى المدرسة المسائية في الشارع المقابل، حيث كنّا نقف لانتظار الحافلة، ولكنْ، في

أثناء الليل، كان سائق الحافلة يحرص على أن تهبط كل فتاة عند باب بيتها تمامًا، كما نُبِّه عليه من أولياء أمورهنّ. فالليل مظلم، وكلّ ظلام مخيف .. وحين كنتُ أسأل أختي "عائشة" عن السبب، تقول لي ببساطة:

- يكفي أنها بنت!

كنّا ثلاثتنا "قاسم" و"عبد الصمد" وأنا نمشي حتى نصل إلى مسجد الحيّ الصغير، وهو بيت "قاسم"، فوالده إمام المسجد، لم يسبق أن دعانا إلى بيته، ولم يسبق أن صادفتُ أباه عند الباب، فقد كنّا نصل دائمًا عند أذان العشاء وصوت والده يؤّم المصلّين، وكان "قاسم" حينئذ يسحب ظلّه مهرولًا، وعلى ظهره تهتزّ حقيبته الضخمة التي يركنها بجانب باب المسجد، ثمّ على عجل يحشر جسده السمين في صفوف المصلّين.

نمضي أنا و"عبد الصمد" إلى محلّ خياطة صغير، حيث يقف والده مَحني الظهر خلف طاولة مستطيلة من الخشب الأملس، ثبّت عليها بالدبابيس المدبّبة صغيرة الحجم قطعة قماش قطني، لونه على ما يبدو كان أبيض، واستحال مع مرور الأيّام وكثرة الاتّكاء عليها أقرب إلى اللون الرمادي الباهت؛ قام بتثبيتها، كي لا تتزحلق قطع القماش عليها، وهو يخطّط ثناياها بطبشور كربوني، لونه أصفر، يمرّرها على تقاطيع قطعة ثوب يفصّلها على هيئة امرأة أو طفلة. وقفته كانت أكثر استقامة منذ عامَيْن حين كان محلّه الصغير مفتوحًا حديثًا، واجهته الزجاجية تكشف عن لفافات عريضة، يغلب عليها اللون الأبيض، وهو اللون الشائع لأثواب الرجال، يسمّيها أهل البلد "الكنادير"، وهي ملبوسهم في المواسم كلها، الخفيفة منها في فصل الصيف الممتدّ في معظم فصول السنة، أمّا الأقمشة الثقيلة التي يغلب عليها اللون البنّيّ الفاتح والرمادي القاتم والأسود، فتروج في الشتاء الذي لا يتعدّى الشهر أو الشهرَيْن.

كان والد "عبد الصمد" خيّاطًا للموديلات النسائية في بلده "كراتشي"، وحين أجّر هذا المحلّ من كفيله المواطن، علّق لافتة عريضة باللون الأحمر، مكتوب عليها (محل راشد لتفصيل ملابس الرجال).

كاد المحلّ أن ينهار على رأسه حين افتتحه بأيّام؛ لقد أخطأ في تفصيل كندورة أحد الشباب من أهل البلد، داهم الشّابّ المحلّ آخذًا بخناق والد "عبد الصمد" نافثًا لعناته عليه، قاذفًا شتائمه ومتوعدًا:

- واحد باكستاني .. بكسّر هالمحلّ على راسَكْ، وِبْسَفّرَكْ .. شو تحسبني حرمة .. مخصّر لي الكندورة .. واحد حيوان ...

لم ينفكّ عنه حتّى تدخّل الناس الذين احتشدوا داخل المحلّ الضّيّق لتهدئة الرجل الذي أفرغ غضبه على الكندورة التي شقّها نصفَيْن.

لم يكن "عبد الصمد" بارعًا في تفصيل أثواب الرجال براعته في تفاصيل ملابس النساء، وتزيينها بتطريزات مبتكرة، ولولا إصرار كفيله راشد لما قبل بخوض المغامرة، لكنْ، بعد الحادثة، اقتنع الكفيل؛ فاستحال اسم المحلّ إلى (محلّ شيخة لخياطة الأقمشة النسائية) بعد أن اشترط عليه أن يقوم بتفصيل جلابيب زوجته وبناته وأخواته مجّانًا.

صوت آلة الخياطة من ماركة "سنجر" يصلنا ونحن في طريقنا إليه، أشبه بصوت مروحة عتيقة متآكلة من الصدأ، لا تكلّ عن الدوران حول نفسها، كلّما دنونا من باب المحلّ علا أزيزها.

على واجهة باب المحلّ ثبتت قطعة قماش كستارة عن الشمس، اعتاد معظم الخيّاطين من الهنود والباكستانيّيْن تثبيتها على واجهات محالّهم الزجاجية، لا لتتقي ضربات شمس الضحى والظهيرة اللاهبة فحسب، بل

أيضًا لتحجب ملابس النساء المعلّقة بعد إتمام تفصيلها، كما باح لي "عبد الصمد" بخَفَر واضح، وهو يهمس كَمَنْ يُخبِّئ سرًّا: ئيب .. هرام .. هرمة!

وحين نلج إلى المحلّ، يغدو والد "عبد الصمد" في الهيئة نفسها، حيث اعتدنا رؤيته، قابعًا خلف ماكنته، مأخوذًا بالقماش الذي بين يَدَيْه، وقدمه اليمنى تكبس على الدوّاسة التي تجري على أجزاء الثوب الذي بين يَدَيْه، وحين ينتبه لوجودنا، يُوقِف عمل الماكنة برهة، ويرفع رأسه الضئيل، فتبدو أمارات التعب على وجهه النحيف بارزة، يرخي قليلاً نظّارته بإطارها البيضاوي السميك على أرنبة أنفه المتعرّق، يدعكها بمنديل، يطويها مثلّثة في جيب صدّارية اللبس البنجابي الذي يرتديه.

وفي أحيان كثيرة، يزيح النّظّارة عن عينَيْه، كي يُلمِّع زجاجهما، ويحدث أن يضعها جانبًا، ثمّ يدعك عينَيْه بحركات دائرية، ربّما أراد أن يشاهدنا بعينَيْه الحقيقيَّتَيْن لا بتلك العدسات الزجاجية التي لا تقبع داخلها سوى المشاهد نفسها التي يعمل عليها طوال يومه: إبر، خيوط، أقمشة، مقصّات، قطع كربون ملوّن، ماكينة سوداء أطرافها مذهّبة وقصاصات أقمشة منثورة أسفل قَدَمَيْه بألوان متعدّدة، يكوّمها في زاوية بممسحته العريضة المسنودة على الحائط بالقرب منه، لتكون نهايتها القمامة، وأقمشة لم يجسّها بعد ما تزال حبيسة أكياسها مَرمية على بلاط المحلّ، بجانب رفوف جدارية غاصّة بأقمشة، تترقّب اكتمالها على هيئة جسد، وأُخر معلّقة تتباهى بخصرها المكتمل.

يدنو منه "عبد الصمد" ليطبع قُبلة الطاعة على يده، أفعل مثلما يفعل "عبد الصمد" من باب الاحترام بينما يربّت بيده الخشنة على رأسي بطيبة أبوية، ثمّ يفتح علبة كرتونية، لونها أبيض مركونة بجانبه على طاولة الخياطة في جوفها قطع حلوى بأشكال هندسية: الدائرية منها لونها أصفر،

المربّعة باللون الحليبي، المستطيلة باللون البنّيّ، وأخرى مصبوغة بالأخضر، مهرجان ألوان.

كان "عبد الصمد" يلتهم دائمًا قطعة كاملة بلذّة، ثمّ يتبعها بقطعة أخرى، بينما أظلّ في كل مرّة أقبض على قطعتي في راحة كفّي، يبلّلها، في الغالب، عَرَق يدي، وأنا أضغط عليها. فتذوب تحت حرارة جسمي، لا سيّما في الصيف.

حين سألتُ "عبد الصمد" عن اسم الحلوى بقطعها الهندسية الهشّة، أخبرني بابتسامة مفاخرة، كأنه دليل سياحي عن وطنه:

- لدُّو ...

كان فمه يجرش كل قطعة بلذّة واستمتاع بالغَين، إمعانًا في دعايته البريئة، يحمّسني بفم ممتلئ:

- جرِّب "فاره" .. ولاّه لزيز ...

يحرّك رأسه على جانبَيْن، وهو يردّد بلذّة أكبر كَمَنْ يغري:

- امممم ...امممممممممم ...

كان الطريق ينحني كلما أوغلت، فيقودني عبر طُرُقات مهجورة شاحبة الضوء، إلى حيث أسكن. كنتُ أودّع رفاقي عند بيوتهم، ولا أحد منهم يعرف بيتي أو الطريق إليه، أمضي وحيدًا، أمامي شارعان مزدحمان، على رصيف الشارع الأول يسكن "قاسم" و"عبد الصمد" تتكاثر محلات متنوّعة، مطاعم ومقاهٍ هندية، مخابز إيرانية. وقد انتشرت في الأعوام الأخيرة مخابز للخبز الأفغاني المليء بالثقوب؛ منه الدائري، ومنه المسطّح كنافذة بأفواه صارخة. ومطاعم المندي اليمني، كما افتُتح حديثًا مطعم زهرة دمشق للشاورما، بمحاذاتها تمامًا محلّ حلاقة للرجال، يكتظّ يومَي الخميس مساءً والجمعة صباحًا. وعلى بُعد خطوات منه ترتفع أصوات آلات الخياطة لتفصيل ملابس النساء لأبي "عبد الصمد"، والآخر لتطريزها بزخرفات ملوّنة مطبوعة بالآلة في مكان مساحته كبيرة، يتوسّطها أربع آلات خياطة، بامتداد الشارع نفسه بشكل مستقيم، تتجاور مكتبتان للقرطاسيات كلتاهما تكونان مزدحمَتَيْن طوال شهور السنة الدراسية بجموع من أولياء أمور طلَبَة المدارس الصباحية، لعمل مشاريع ووسائل أنشطة، تُكلّف بها المدارس طلابها، تلك المشاريع لا يُلزمونا بها نحن طلَبَة المدارس المسائية، لاختلاف ظروف الدراسة والمعيشة.

تجني المكتبتان ربحًا وفيرًا في أثناء موسم الاختبارات نظير قصاصات صغيرة، بطول إصبع يد وعرضه، يجهّزونها لطلَبَة المدارس الصباحية، حيث

يحرص العامل البنغالي على إبقاء نسخ منها لطَلَبَة المدارس المسائية، في أثناء فترات الاختبارات، في سبيل جني المال؛ قصاصات يطلق عليها أصدقائي القمريون في المدرسة المسائية "البراشيم"، بواسطتها يتجاوزون المراحل الدراسية بنجاح، اعتادوا تمريرها فيما بينهم في قاعة الاختبار وسط غفلة الأستاذ المراقب، وفي كثير من الأحيان، وسط تجاهله، فقد أصبح أكثرهم متساهلاً مع الوقت في هذه المسألة بالتحديد وغيرها، نائيًا بنفسه عن جدالات، هو في غنى عنها، لا سيّما حين أصبح النجاح يسيرًا، فالجميع يجتاز المرحلة بنجاح في نهاية العام بـ "البراشيم" أو بتساهل بعض المراقبين، بموافقة ضمنية من المدير الوافد الذي يخشى أن يفقد وظيفته، إذا ما رسب هذا الكمّ الكبير من الطَّلَبَة الذين لا يتحدّث معظمهم اللغة العربية، تلك المعدّلات من الرسوب بدورها ستدفع لجانًا أخرى ربّما إلى غلق هذه المدارس المسائية التي لا تُخرِّج طَلَبَة جيّدين، وبهذا سيفقد المدير وزملاؤه فرصة عمل في دوام جزئي، أمّا مستقبلنا نحن الطَّلَبَة، فلا أحد يبالي به، بقدر مبالاتهم بالمبلغ الذي يقبضونه آخر الشهر!

على بُعد عدّة أمتار ثمّة لوحة ضوئية كبيرة مطبوع عليها صورة امرأة، طُمست ملامحها خلف ألوان مبهرجة، كُتب عليها عبارة صالون حسناء للنساء، أمّا الشارع الثاني المقابل، حيث الطريق إلى الغرفة التي أقطنها مع أمّي وأختي "عائشة"، فتحتشد محلات السمكرة، مستودعات أدوات البناء والسيراميك، محالّ بيع أسطوانات الغاز، وصيدلية وحيدة.

الطريق إلى الغرفة، حيث أعيش، كان يتطلّب منّي أن أسلك شارعَيْن، وأغدو في سباق محموم مع أنفاسي، أسابق نفسي، أسابق خوفي وهلعي من عتمات دربي الطويل، وعتمات ماضٍ يقبض على أنفاسي، وحاضرٍ يلاحقني افتضاح أمره، ومستقبل مشوّه المعالم.

أجري وأنا أقطع الشارع الأوّل؛ كي لا تسحقني سيّارة مسرعة، السّيّارات هنا فخمة، لامعة، نظيفة، أضواؤها ساطعة، يغطّي زجاجها اللون الأسود، فلا تعرف مَنْ يدير مقودها أكان رجلًا أم امرأة، لا سيّما في أثناء الليل.

تمرق السّيّارات بشكل كثيف، وأنتظر لتهدأ أو تكون بعيدة عن مرمى بصري، كي أقطع الشارع، أحرص على خلو الشارع حتّى لو اضطرّني ذلك انتظار نصف ساعة، ولا أجازف بجسدي وسط تلك الومضات الضوئية، لا يمكن أن أمسح عن ذاكرتي ذلك الحادث الذي وقع هنا منذ عامَيْن أمام عينَي حين قطع رجل بنغالي الشارع، فدهسته سيّارة كانت منطلقة كرصاصة، اصطدمت بالجسد العابر، وألقت بجثّته على الجانب الآخر، ارتطم بشدّة بواجهة أحد المحالّ، فتناثر زجاجها مُحدِثًا أصوات انكسار هائلة.

وقفتُ مذهولًا كتمثال حجري على رصيف الشارع، وبلّل ذعري ثيابي الداخلية، وبدت الحقيبة المدرسية بثقلها على ظهري، كما لو أنها مليئة بالحجارة، فلو أنني عبرتُ في اللحظة المنكوبة تلك، لغدوتُ جثّة مهروسة إلى جانب جثّة الرجل البنغالي!

يومها احتشد عدد غفير من الناس وهم يُحوقلون ويتحلّقون حول الحادث المرير، وسمعتُ أحدهم يلعن البنغاليّيْن قائلًا: "إنهم يتقصّدون رمي أنفسهم أمام السّيّارات، ليحصل أبناؤهم على "دية" أو مبلغًا جيّدًا تعويضًا عن كسر رجل أو عطب ما في الجسد". لم أفهم معنى "دِية" في جدال الرجل الساخط وسط صخب العشرات من البنغاليّيْن وهم يحملون صاحبهم في هلع.

بمرور الأعوام وفي أثناء عبوري الشارع نفسه كل يوم في طريق ذهابي

وعودتي من المدرسة؛ أدركتُ أن الناس هنا لا يموتون مثلنا، لا يموتون مثلنا من الجوع، ولا من الحروب ولا حتّى من الأمراض القاتلة؛ إنما يموتون من السّيّارات المسرعة، ومن تناول الأطعمة حتّى التخمة، من البلادة والوحدة والثراء، الموت هنا مغامرة مترفة، وموتنا حتميّ وقاسٍ .... ليت موتنا يشبه موتهم!

لم أكَد أقطع الشارع حتّى استوقفتني يدٌ تهزّ كتفي، أدرتُ وجهي، لأرى بجانبي رجلًا مسنًّا متكئًا على عصاه، إنه الخَرِف الذي ألفه كل من في المنطقة، وعرفوا طباعه وحركاته الغريبة، فهو يعكف على التقاط أعقاب السجائر، يلتقطها، لتمتلئ جيوبه، وتفوح رائحته بها.كم كان سلوكه يفاجئني!

الرجل نفسه مرّ بالقرب منّا منذ شهور حين كنتُ مع ثلّة من الرفاق وكُتُبنا المدرسية مشدودة على ظهورنا في منتصف فترة الظهيرة، ننتظر الحافلة بتململ؛ فالتقط من أمامنا عقب سيجارة تالفة مدعوكة بغبار الأقدام التي وطأتها، ثمّ أخرج من جيبه عقبًا آخر، وألصقهما بمحاذاة بعضهما، ليقارن أيهما أطول، ثمّ تابع طريقه بمحاذاتنا دون أن ينطق بكلمة أو يلتفت نحونا، كأنه لم يلحظ وجودنا، بل حتّى وجود أي شيء من حوله عدا أعقاب السجائر.

سمعتُ عنه لأوّل مرّة من "قاسم" الذي كان واقفًا بمحاذاتي وحقيبته المدرسية الثقيلة مركونة بالقرب من قَدَمه، قال إنه يعرفه، بل والده أيضا يعرفه، فهو رجل ثري، وله أبناء كُثُر من زوجته، وإن ابنه الأكبر يصلّي كل يوم معهم في المسجد، وقد شكا له مرّة عن والده المدخّن الذي يعاني من داء الخَرَف؛ فيستغفلهم، على الرغم أنهم خصّصوا له بنغاليًا يلاحقه كظلّه، كما أنهم منعوا عنه السجائر التي اعتاد تدخينها حين كانوا صغارًا، ليس لأن صحّته ما عادت تتحمّل فحسب، بل لأنها مكروهة في الإسلام أيضًا.

وعرفت أن البنغالي الذي يقتاده في كل مرّة ليضعه في سيّارة فخمة، بينما هو يشتم ويتذمّر كطفل متمرّد كان سائقه الخاصّ، يذهب به إلى الفيلا الكبيرة في أعلى تلّة من الحيّ الذي يقطنه كل من "قاسم" و"عبد الصمد"، رفض اقتراح أبنائه في مغادرة هذا الحيّ، فقد أصبح عتيقًا، ولا يقطنه سوى الباكستانيّيْن والهنود، إذ غادر معظم ساكنيه الأصليّيْن إلى مناطق أكثر حداثة، إلى بيوت مَبنية على الطراز الرفيع، محاولاتهم كلّها لمغادرة الحيّ الذي عاش فيه والبيت الذي شهد بناءه طوبة طوبة باءت بالفشل؛ ما جعل أبناءه يرضخون لرغبته في البقاء غير أنهم أعادوا تصميم البيت على الطراز الحديث، فبدا من أرقى بيوت الحيّ وأكثرها فخامة وأكبرها مساحة، يتباهى بنفسه كقصر في الأعلى، يطلّ على بيوت كصناديق البريد في حجمها الضئيل، ومساحاتها الضّيّقة، ودهانها المكشوط بفعل الأمطار والسنين، هناك يعيش مع زوجته وخادمَتَيْن وبنغاليَّيْن، أحدهما يعتني بالحديقة أمام البيت، والآخر سائق بعد أن غادره معظم أبنائه إلى بيوت حديثة، حصلوا عليها من الحكومة، على الرغم من الحراسة المشدّدة، كان يفلح في كل مرّة في التّملّص منهم، ليتابع مهمّة بحثه عن أعقاب سجائر ممصوصة.

استطال أمامي بوجهه المجعّد من أثر السنين، وظهره المحني كشجرة مقوسة، يهزّ كتفي، ليسألني بلهجته البدوية المتعجّلة عن المخبز الإيراني، ظلّ يردّد على مسمعي لفظَتَيْن غريبَتَيْن "باجلا ونخي"، ظلّ يردّدهما بإلحاح كلّما استفهمتُه: ها..؟ حتّى كدتُ ألتقطهما بأذني بوضوح لكثرة تكرارهما، وأردّد من ورائه: "باجلا ونخي" .. أتفادى الموقف المحرج الذي وجدتُ نفسي فيه معه وسط تطلّع البنغاليّيْن الفضوليّيْن في الشارع والتّجّار الأفغانيّيْن القابعين خلف زجاج محالّهم لبيع المفروشات الجاهزة وبعض أصحاب سيّارات مركونة قبالة محلات البيع من أصحاب البلد، لأشير له بيدي إلى مكان المخبز الإيراني

على بُعد خطوات قليلة على رصيف الشارع، حيث أقف، وحين اهتدى لدربه انساب شعور بالراحة في داخلي؛ لأنه لن يضطرّ إلى قطع الشارع في كثافة تلك الأضواء المتسارعة نحو قَدَرها.

حين كان يقطع الشارع مع عصاه وهو يطوّحها أحيانًا في الهواء والسّيّارات تزمّر في وجهه، ويمشي كبطريق، كنتُ أخشى أن أراه يومًا هناك في وسط الشارع مطموس الملامح، بفعل عجلة خاطفة كذلك البنغالي.

حين خلا الشارع الثاني تحت مصابيح الليل جريتُ بكامل سرعتي وكُتُبي المدرسية التي أحكمتُ ربطها بحزام جلدي، شددتُه إلى صدري، هرولتُ حتّى الرصيف الآخر، وقد بدا أكثر إعتامًا عن الشارع المقابل، معظم محلاته كانت مغلقة. مخازن أسطوانات الغاز، وأدوات البناء وغيرها يقفلها أصحابها في قرابة الساعة الثامنة تمامًا موعد قدومي من المدرسة مساءً. وحدها المطاعم وكافيتريات الوجبات السريعة تكون مفتوحة على مدار ٢٤ ساعة.

أتخطّى ازدحام الشارع بعجلة، وأنفاسي تلهث، والحقيبة على ظهري ترتجّ، وحين تنتصب قَدَمَاي بثبات على الرصيف الرملي، تستكين روحي المتوتّرة من ضجيج الشارع العامّ، أتابع طريقي عبر أزقّة ضيّقة، مشبّعة بالظلمة، تفضي إلى بيوت قديمة، وأكثرها متآكلة، معظمها من إسمنت وأبنية مهجورة غير مكتملة البناء.

بيوت متراصّة، كلّما عبرتُ الطريق إلى العلبة الضّيّقة المهدّمة التي أسكَنَنا فيها خالي "منغستو" منذ سبعة أعوام، تسحبني ذاكرتي إلى مخيّم "بوصاصو" حيث وُلدتُ.

أدلف إلى طريق رملي، يبرز منها صخور، كما لو أنها وجه مسطّح مثقوب

بالبثور، أتعثّر بها بين حين وحين، تُطمر في فصول الصيف، أمّا في الشتاء تبدو بارزة، فالتربة تغدو أكثر صلابة، وحين تمسّها الأمطار الغزيرة، فإنها تقلب وجهها إلى تربة طينية لزجة، تلطّخ عابريها كلهم.

أمضي بحذر بين أحراش متشابكة، لم يبالِ أحد بإزالتها في هذه البقعة المَنسية التي لا يمرّ عبرها سوى المقطوعين. حتّى ضوء القمر فيها شحيح للغاية. أتقدّم بحذر بين كل خطوة وأخرى، لا خوفًا من الأفاعي أو العقارب والجرذان، فقد اعتدت هذه الكائنات المؤذية في المخيّم، بل حذرًا من قطع زجاجية مبعثرة من مشروبات، حطّمها بعض السُّكارى حين كانوا يهتاجون في منتصف الليل، لا سيّما ليلة الجمعة الإجازة الرسمية المتاحة للعمّال البنغاليّيْن كلهم وغيرهم هنا، زعيقهم يخترق ثقوب الأبنية المهدّمة، حيث نعيش، تلك القطع الزجاجية الحادّة كادت تدميني أكثر من مرّة، لولا الحذاء الذي تحتمي قَدَمَاي بجوفه. أسحب جسدي المثقل بالحقيبة على كتفَيّ الضئيلَتَيْن، إلى مدخل، تستقبلني فيه أشجار عتيقة، ما تزال تقاوم زحف الزمن، تبدو في الليل، في الظلام المحاط بها، وكأنها كائنات مؤذية.

أخترق الزقاق الضّيّق، وظلامها ما عاد يخيفني كما أعوامي الأولى هنا، حين كنتُ أخشى أن يستلّ أحدهم مُدية مِن قلب الظلام، لينحرني أو آخر يقوم بخطفي، كي أغدو وسيلته لتحقيق مآربه.

أسبر الظلام .. أقطعه بشجاعة، يقطع تخبّط خطواتي المندفعة وتوهان روحي صوت بهتني لوهلة وهو يقول لي بتذمّر نافر:

- هي أنتَ .. أيّها البليد .. ارمِ هذه الكُتُب الغبية التي تشدّها إلى صدركَ ككنز ثمين، وانضمّ معي، كي أعلّمكَ مهنة، تعيش منها، أفضل لكَ من هذه الشهادة التي لن تطعمك في بلد كهذا.

كان صوت خالي "منغستو" الذي كان جالسًا باسترخاء واضعًا رجلًا على رجل أمام الغرفة الملتصقة بغرفتنا على كرسي بلاستيكي بنّيّ باهت، تقشّر لونه من الشمس وهو يدخّن سيجارته التي اشتريتُها له صباحًا من البقالة القريبة.

أختي "عائشة" كانت واقفة عند الباب، تنتظرني كعادتها، تخاف عليّ من البقعة المهجورة التي أقطعها وحدي عبر الزقاق المظلم كل ليلة، كلّما عدتُ من المدرسة المسائية في منطقة سكنية، بها ثلّة من العزّاب، ومعظمهم من السُّكارى، حين سمعتُ عبارة خالي "منغستو" اندفعتْ بضع خطوات، لترى وجهه متواريًا في الظلمة إلا من الشعلة الضئيلة لسيجارته التي يمصّ روحها، تقدّمتْ منه حتّى واجهتْه تمامًا، وهي تلوّح بسبّابتها كتهديد:

- اتركْ أخي الصغير وشأنه، وأبعده عن عالمكَ القذر!

عندها قهقه خالي بصوت مرتفع، وأخذ نَفَسًا من سيجارته، ثمّ نفثها في وجهها وهو يقول بتحدٍّ نافر:

- عالمي القذر، يا منيو ...

رنين هاتفه الصاخب بنغمة خليجية أشغلَه، فهبّ مستعجلًا من على كرسيّه، داس على سيجارته بحركة آلية، ثمّ مضى، بصقت أختي "عائشة" حيث جلس خالي، ثمّ مشينا إلى الداخل، كانت أمّي كالعادة مستلقية تئنّ - إذا لم تكن نائمة - بصوت خافت، كي لا تُزعجنا.

لم أكن أعرف بوجود خالي "منغستو" سوى حين حضرتُ إلى هنا، لم يحدث لأمّي أن حدّثتْنا عنه أو ذكرت سيرته، ولو خطفًا، وحين تأزّمت

الأوضاع، وأصبح العيش في مخيّم "بوصاصو" مستحيلاً، أفضت أمّي بجزءٍ من سيرتها وسيرة أخيها الوحيد "منغستو". اسمه الذي انساب غريبًا على لسانها كبيت عتيق فارغ، تتخبّط أبوابه في صدىً وحشي، لكن أختي "عائشة" أكّدت أنه زارنا أكثر من مرّة، وكانت ترتفع أصواتهما هو وأمّي في كل زيارة، وكانت أصغر من أن تستوعب مبعث خلافاتهما في ذلك الوقت.

يومها تحوّلت أمّي للفتاة التي كانتها، وطفقت تحكي عن أمّها، بدونا مذهولين كأننا نكتشف لأوّل مرّة أن لها أمًّا مثلنا تمامًا: **حين وُلدتُ، كان العالم من حولي مشوّشًا، لم أعرف أحدًا من أقربائي، لم أعرف طوال إقامتي في الصومال سوى أمّي، المرأة التي كافحت من أجل أن أعيش بشرف.**

لم أكن أعي في البداية أني أثيوبية، وأنني مختلفة عن صديقاتي الصوماليات. لعلّ مبعث ذلك يعود إلى ولادتي في الصومال، ترعرعتُ ونهلتُ منها ما لم أنهله من وطني الحقيقي الذي كان مجهولاً لي كليًّا. كانت أمّي سببًا في صوماليّتي حتّى النخاع، فمذ هجرتْ أثيوبيا في صباها لظروف لا أذكرها الآن، تزوّجت حين بلغت السابعة عشر من أثيوبي مثلها، غادر دياره هربًا من جحيم أرضه إلى جحيم أرض بمسمّى آخر، أبي الذي تزوّجته لم أره قطّ، فعند ولادتي هجرها إلى امرأة أخرى، لم يكتفِ بهجرها، بل خطف أخي أيضًا من حضن أمّي، ليعجن ابنه بطريقته كما قال في وجهها يومئذ، لكن السبب الحقيقي الكامن خلف سلوكه هو إدراكه بانقطاع نسله الذكوري بالتحديد، كان مسكونًا بالهلع مذ بصق في وجهه أحد الذين كانوا يتعاطون السِّحْر، ويقتاتون على الشعوذة، بأنه لن ينجب سوى ابنٍ واحدٍ، وأن المرأة نفسها قد تلد له أنثى، لم يبالِ بالأنثى، والتي هي أنا، لكنه حرص على أن يحمل ابنه معه، حيث عزم على السفر إلى أديس أبابا، والاستقرار هناك مع زوجته. لقد آمن

بكامل وعيه بتلك النبوءة المشؤومة، كما لو أنها تميمة من القَدَر، في بلاد لا يؤمن فيها رجالها سوى بأمرَيْن، بما يقوله السَّحَرَة من تنبّؤات قيامة الحياة، والأمر الآخر اليقيني بالنسبة إليهم هي أسلحة الحرب. حمل أبي ابنه معه كما حمل سلاحه، كأنهما شيء واحد ملتصق ببعضهما، وزوجة فاتنة ستُشبعه لسنوات، لكن نبوءات السَّحَرَة أخطأت السهم، فقد قذفت له زوجتُه توأمَين، نسي أبي بهما العالم، وأسقط أخي من حساباته، أخي الذي جاءنا وفي رأسه غاية واحدة هي الفرار خارج قارّة أفريقيا بأكملها، كان يؤمن أن أفريقيا لا مستقبل لها، قارّة تمصّ دمكَ، تتغذّى علينا، ولا يقرّ لها قرار حتّى تنتهي، قارّة مُعدَمَة الطموح رغم أنها مطمع المستعمرين جميعهم. ظلّ يُقنعني وأمّي بالفرار معه إلى السعودية، لنعمل معًا في مشاريع، تدرّ أموالًا طائلة، وحين اخترنا البقاء خوفًا من فكرة مغادرة مكان، كنّا قد اعتدنا عليه، إلى أرض مجهولة طالما سمعنا عن مدى قسوة رجالها، لا سيّما أصحاب اللِّحى منهم، لكن أخي قرّر الرحيل وحده، وغادرت أمّي الحياة بعد رحيله دون أن تعرف عنه شيئًا.

أمّي التي حين ألفت نفسها وحيدة وهي حُبلى بي في شهرها الثاني، ارتأت أن تجد مستقرّها في إحدى مخيّمات "بوصاصو" بعد أن عرضت عليها امرأة صومالية عجوز أن تقيم معها مقابل توفير الطعام لها، فهي مقطوعة من شجرة بعد أن غادر أبناؤها الذكور كلهم إلى حروب، لا تُعرف أسباب اشتعالها، أمّا ابنتها الوحيدة، فقد تزوجت، وغادرت إلى السودان، حيث يعمل زوجها، لم تعرف لحظتها أمّي هل تشفق عليها؟! أم تشفق على حالها؟!

كانت أمّي تعمل في نقل القمامة قبل أن يُقعدها المرض، وكان عليّ أن أرافقها كي أتعلّم، كنتُ أحلّ محلّها أحيانًا، ولكنْ، مع الوقت حين

عجزت رجلاها عن حملها، لازمت الفراش، وكان عليّ وحدي أن أتحمّل مشاقّ حمل القمامة ورائحتها العطنة، لذا بذلتُ جهدي، كي أجد عملاً آخر، أقتات منه، فمن قذارة القمامة، أصبحتُ غسّالة ثياب، ظللتُ بالحال نفسها حتّى أنجبتُكما ...

كنتُ مشدوهًا بحكاية أمّي وهي تسترسل عن نفسها وأخيها، خالي "منغستو" قابلتُه أوّل مرّة في المطار، استقبلنا يومها رجل يشبهنا، لكّن هندامه على شاكلة أهل البلد، وقف أمامنا وهو يرحّب بأمّي بلهجة تُتقنها، لكنْ، خلال إنجازه لأوراقنا في المطار مع الموظّفين والموظّفات كان يتحدّث بلهجة أهل البلد، لكنته طليقة، وكأنه من أهلها.

واقف بمحاذاة أختي " عائشة " التي قبضت على يدي اليمنى بينما عصرت يدي اليسرى في كف أمي. خائف من بلاد غريبة، لا أعرفها ولا تعرفني، لا أشبهها ولا تشبهني، بلاد نظيفة، وكلّ شيء فيها منظّم، وفي مكانه، بلاد بدت لوهلة مخيفة لصبي مشتّت قادم من صحارٍ قاحلة، من خراب ملعون بالجوع والتّشرّد، لا أعرف أين مآلي، ولا أيّ مصير فيها يترقّبني بين أناس لونهم أبيض أو حنطيّي البشرة، كما كان خالي "منغستو" يقول عنهم:

- أهل الخليج حنطيّو البشرة، وبعضهم مثلنا نحن الأفارقة في لون جلودهم،وذلك يعود لصلات قرابة عربية، أفرزتها الهجرات في القرون السالفة.

حين استقبلنا في المطار الرجل الغريب الذي عرفتُ بعد ذلك أنه خالي، لم تكن أمّي تحمل في يدها سوى حقيبة صغيرة، ورثْتها عن جَدّتي، لا أدري ماذا كانت تحوي؛ لكنها تبدو فارغة، فقد باعت معظم ما نملكه

من أمتعة. خرجنا من المطار إلى سيّارة كبيرة، كان صعودها يستلزم أن تضع رجلكَ على ارتكازة الصعود، كدتُ أتعثّر لولا أختي، كانت خلفي، فعاونتني على الصعود.

بدت السّيّارة باردة على نقيض الجوّ الرطب الذي صفع وجوهنا أوّل ما دلفنا خارج المطار، لم أتبيّن لونها جيّدًا في الليل، ألحّ خالي على أمّي أن تجلس في المقعد الأمامي بجانبه، وحين استعدّت السّيّارة للانطلاق، ارتفع صوتُ أُغنيّة خليجية من المسجّلة، ظلّ صوتها يطغى على أي صوت آخر في السّيّارة المعتمة التي بدت نوافذها مَطلية بالأسود حتّى وصلنا ونحن نصف نائمين إلى المكان الذي سنعيش فيه، إلى الغرفة التي وعد خالي "منغستو" أمّي أن يستبدلها لنا لاحقًا سكنًا أفضل، غير أنه بلع الوعدَ مع الزمن.

بتْنا ليلتها نحن الثلاثة على فراش رثّ، يفوح برائحة غبار ورطوبة، نمْنا كفلّاحٍ ظلّ يحرث أرضه نهارًا كاملاً في سماء لا تشبه سماءنا.

في صباح اليوم التالي، استيقظنا على جلبة خالي حاملاً بيده أكياسًا أفرغها أمامنا على عجالة، كانت تحتوي طعامًا معلّبًا، بطّانيّات جديدة، علبتان صغيرتان من مسحوق الغسيل لغسل الملابس والشَّعْر والصحون الوسخة كما فهمنا، ثمّ أخرج من تلك الأكياس قطعَتَيْن لونهما أسود، ثوبَيْن طويلَيْن فضفاضَيْن، عرضهما أمام أمّي:

- هاتان القطعتان واحدة لكِ، والأخرى لـ "عائشة"، يسمّونها هنا العباءة، ملابس النساء الرسمية للخروج.

رأى خالي علامات الحَيْرة على وجه أمّي، فهي مسيحية وغير محجّبة، وخالي المسيحي يعرف ذلك جيّدًا؛ فأضاف مفسّرًا بجدّيّة محدّقًا في وجهها الذي علتْه نظرة اندهاش:

- أختي، أنصتي لي جيّدًا، في هذه البلاد من الأفضل أن تكوني مسلمة بمظهركِ الخارجي، ولا يهمّ ما تؤمنين به في داخلكِ .. ثمّ لا تنسي أن طفلَيْكِ مسلمان كأبيهما، لذا المسألة يسيرة عليكِ، خذي هذه العباءة، وارتديها.

ثمّ أشار إلى قطعة سوداء صغيرة متابعًا توجيهاته: غطّي رأسكِ بهذه حين تخرجين من عتبة هذا الباب، ستعتادين ارتداءهما.

ثمّ أضاف:

- يجب أن تعرفي أيضًا أن لا أحد هنا يناديني "منغستو"، فاسمي هو - "منصور" -وهو الاسم الذي اختاره لي كفيلي، الرجل الذي أعمل تحت إمرته، قال إن اسمي صعب و-"منصور" - اسم عربي ومسلم.

حكت لنا أمّي بعد مغادرة خالي بأن "منغستو" هو الاسم الذي اختارتْه له جَدّتي حين كان جَدّي يخونها، برفقة امرأة أخرى، وتشفّيًا منه، أطلقت عليه اسم رئيس أثيوبيا "منغستو هيلا مريام" الرئيس الذي أقدم في خطبته الشهيرة عام ١٩٧٧م على "تحطيم زجاجات مملوءة بالدم على اسمَي مصر والسعودية"(*) ما جعل حلم جَدّي للتّسلّل إلى السعودية آنذاك ينهار، فقد كانت هناك تشديدات على دخول العمالة الأثيوبية، كما أخبره رفاقه في ذلك الحين، لذا بقي حيث هو في الصومال، علّه يجد فرصة سانحة، لكن الحياة مضت به دون أن يجد تلك الفرصة، وقد أفلحت جَدّتي في قهره باختيارها هذه التسمية لنسله الذكوري. وفي رواية أخرى بأن جَدّتي ظلت تفاخر بهذا الاسم أمام جَدّي، وأمام جاراتها أيضًا؛ لأن الرئيس الأثيوبي كان يحمل أيضًا

---

*) موقع ويكيبيديا .

اسم أمّه "ماريام" أي مريم، كانت الجارات من حول جَدّتي يعلّقنَ بطرافة حين يعرفنَ حكاية اسمه:

- لكلّ امرئ من اسمه نصيب، يا مارية..

كنّ بذلك يلمزنَ إلى سفالة الرئيس وأعماله البشعة وجرائمه الوحشية!

بينما أمّي كانت تُدعى "لَمْلَمْ"، وحين أجبرها خالي على العمل كخادمة في البيوت، أصبح اسمها -"لميا" - وهو الاسم الذي سجّله على البطاقة الصّحّيّة، لتتابع علاجها، فأصحاب هذه البلاد لا يميلون للأسماء الغريبة، واستبدالها حتمي، هذا ما أخبرنا به خالي "منغستو"، أضاف أيضًا أنهم يرتاحون أكثر للأسماء التي تُشبههم، وتحمل طبيعة بيئاتهم، أسماء مسلمة، وليست كافرة، أمّا الأسماء الغريبة، فهي مستهجنة عادة، وكأنها حاملة لجرثوم ما؛ لذا يتحاشون استخدامها، ويسعون لتغييرها في اليوم نفسه.

أتخيّل ماذا سيكون اسمي لو لم أكن "فارح"؟ هل سأتعاطف مع اسمي حينها؟ هل ستتضاءل غربتي حين أحمل اسمًا يناسب البلد الذي أكون فيه؟ ما أكثر أسئلتي، وما أوسع خيالي التعس!

أمّي صارت تحمل اسمًا مختلفًا، اسمًا لا صلة له بماضيها السحيق في التعاسة وهواجس الخراب، اسمًا صار لصيقها في بلد غريب، اغترب معه، وفيه كل شيء حتّى هويّتها كمسيحية، خضعت للتغيير كلّيًّا في سبيل حياة أفضل لنا، لي ولأختي "عائشة"، أمّي شكّلها خالي "منغستو" على الهيئة التي تناسب الأرض الجديدة، على هيئة منافعه الشخصية.

عرفتْ أمّي، مع الوقت، أن في هذه البلاد يحصل المسلمون على امتيازات عديدة، لا سيّما الفقراء كالصدقات التي تُبذل بلا مناسبات،

واللحوم التي تُوزَّع في الأعياد، وتخرج لهم الزكاة في موسم الشهر الفضيل، بل أيقنت أهمّيّة أن تكون مسلمة في بلد خليجي ومسلم حين ذهبت لأوّل مرّة إلى جمعية خيرية. ما أكثر الجمعيات الخيرية هنا! قيل إن معظمها للمعوزين من أمثالنا، بل هناك جمعيات أخرى مخصّصة لأبناء هذه البلاد الثرية، كان ذلك أمرًا يدهشني، فالجميع هنا أثرياء، تلك الجمعيات الخيرية ما هي سوى لمضاعفة ثرائهم، كما أفهمنا خالي موضحًا بنبرة نافرة بأن أهل هذه البلاد جشعون لا يشبعون، يودّون لو أنهم يملكون جبالًا من الذهب: بنو شعبنا يموتون جوعًا، وهنا يتجشّؤون ذهبًا! قالها بحقد دفين.

لذا دفع أمّي دفعًا إلى هذه الجمعيات، لتنال نصيبها من ولائم هؤلاء الأثرياء، ليقدّموا لنا معونات، نحن في مساس الحاجة إليها، كما أوصاها خالي وهو يضع بين يَدَيها كومة من الأوراق، كان قد جهّزها سلفًا من صورة لشهادة وفاة أبي، ونسخ عن شهادة الميلاد لي ولأختي "عائشة"، ونسخة تُثبت أنها امرأة أرملة وحيدة بلا معيل، وصورة عن إيصال إيجار الغرفة، وفواتير الكهرباء والماء، وعن حاجتي لمساعدة مالية، من أجل الالتحاق بالمدرسة، وفواتير أخرى، طالبها أن تكون مقنعة كفاية، ليصرفوا لها المعونة.

كان هذا هو أوّل مشوار لنا بعد مضي أسبوعَيْن على إقامتنا، قبله أقلّنا خالي في سيّارته من المطار، وظلّت السّيّارة مركونة أمام حائط غرفتنا.

وصلنا مبنى الجمعية، أمّي تحمل أوراقها في يد، وباليد الأخرى تمسك بي وأختي -"عائشة" - وراءنا وكلتاهما تلفّان جسدَيْهما بالقطع السوداء التي أحضرها لهما خالي "منصور". بدا مظهر أختي "عائشة" مضحكًا وهي تتعثّر كلّما خطت خطوة للأمام، فقد كانت العباءة فضفاضة وطويلة عليها، بينما

بدت قصيرة على قامة أمّي الطويلة، وظلّ حذاءاها المطّاطيّان اللذان مشت عليهما على تراب "بوصاصو" في جولات عملها الصباحية مكشوفَيْن.

حين دلفنا الردهة الرئيسة ونحن في الطريق إلى مكتب الموظّفات في الجمعية الخيرية، كما أشار علينا رجل، بدا أنه الحارس، استوقفنا صوت رجل كان يصرخ في المكتب نفسه الذي وجدنا أنفسنا فيه، لم أرَ وجه الرجل الذي منحنا ظهره وكتفَيْه العريضَيْن، طفق يجادل بحدّة يسمعها كلّ مَنْ كان هناك، ولا يمكن نسيان نبراته الهجومية:

- أنا غيرت دياني، صرِت مسلم، ومَرتي كمان صارت متلي لحتّى نال رضى حضراتكم، وتقدّمو لنا حقوقنا من الصدآت والمساعدات اللي ما بياخدها غير المسلمين هون، بس الهيئة كنت غلطان، الهيئة انكون خدعتونا!

رفع الأوراق التي كان يحملها، لوّح بها وهو يقول بغضب: كِبُّوها في الزبالة ...

ظلّ يراوح مكانه صارخًا حتّى انتشله بقوّة الحارس الذي سبق ودلنّا على المكتب الذي كان فيه نساء يرتدينَ الأسود كأمّي وأختي، وحين جرّه خارجًا هدأ المكان، كانت أمامنا بالانتظار امرأة بيدها طفل، وحين قدّمت أوراقها إليهم، بدأت تشكو حالها بلغة لم نفهمها، بدت الحروف العربية التي تخرج من حَنْجَرَتِها مقطوعة وملتوية كأغصان شجرة شاحبة.

كانت إحدى الموظّفات مع زميلة لها في هذه الأثناء تتذمّران من الرجل الذي أعلن إسلامه طمعًا في الحصول على أموال من الجمعية الخيرية، دون أن أميّز صوت المتحدّثة منهما، فكلتاهما تغطّيان كامل وجهيهما بقطعة سوداء، لا تُسفر سوى عن عينَيْن مكحّلَتَيْن:

- رفع ضغطي هالريال، الله يلعن ابليسه .. كأن حنّا طلبنا منه يغيّر دينه .. احنا شو دخلنا بدينه، شو خَصنا إذا كان مسيحي أو مسلم؟! ترا المساعدات منها للمسلمين، ومنها لغير المسلمين، أنا شو دخلني يعصّب علي، إذا كان مدير جمعيتنا المطوّع خصّص أكثر مساعداتها للناس المسلمة!

ردّت الأخرى وكأنها تؤيّد قول صاحبتها:

- يُشهرون إسلامهم يا الغالية عشان مصالحهم الماديّة مو عشان حبّ في الإسلام والله.

- وهذا اللي ينرفزني منهم، ودّي أطردهم أوّل ما يدشّون المكتب، يا ختي ما أحبّ المنافقين .. ودين الإسلام مو لعبة عشان يدخله كل من يبا مصلحة، ولمّا تخلص هالمصلحة يرد كافر يعني .. أستغفر الله .. أستغفر الله ..

كرّرت زميلتها مثلها:

- هي والله: أستغفر الله .. عافانا الله ..

ثمّ رفعت السّمّاعة، وخاطبت الطرف الآخر بصوت يسمعه الجميع:

- راجو .. هات اثنين جاي كرك مضبوط بالهيل ..

وضعت السّمّاعة وهي تقول بنبرة ضاحكة:

- خلّينا نهدّي أعصابنا شوي بشاي كرك ..

حركت الأخرى رأسها موافقة.

كنّا نُنصت لحوارهما دون أن نعي بتفاصيله، وحين جاء دورنا، هبّت أمّي مذعورة، وقدّمت بيد مرتجفة أوراقها للموظّفة التي كانت في الركن الأيمن من الغرفة، حيث كنّا جالسين.

بدت ودودة من نبرة صوتها وترحيبها بأمّي، وكذلك نظراتها وهي ترمقنا، لم تسأل أمّي إن كانت مسلمة، ولعلّ الحجاب والعباءة كانا كفيلَيْن برسم هويّتها العامّة.

استلمت أوراقها منها، وطرحت بعض الأسئلة عن ظروفنا الاجتماعية والصّحّيّة ومدّة إقامتنا في هذه البلاد، وحين كنتُ أحدّق في حركات عيونهما وهي تتحرّك أو ترمش كلّما تحدّثتا رمقتني إحداهنّ؛ تلك التي طلبت الشاي عبر الهاتف، أشارت لي بإصبعها تحثّني على التّقدّم إلى مكتبها، حيث هي جالسة وحين تردّدتُ، خاطبتني بلغة لم أسمعها من قبل:

- يا صغيرون، تعال هني عندي، وخذ لك قطعة شوكليت .. تعال خذ شكليت، يا شكليت .. قالت ذلك وهي تضحك وزميلتها التي بقربها تشاطرها الضحك.

فاجأني لوهلة نعتها لي بصغيرون، ثمّ يا شكليت حتّى خُيّل لي أنها تخاطب طفلاً آخر، ولكنْ، لم يكن أحد غيري من الصغار في المكتب، بقيتُ مراوحًا مكاني وقلبي ينبض بعنف بين أن أذهب أو أبقى حيث أنا، ألقيتُ نظرة على كلّ من أمّي وأختي، كانتا مأخوذتَين بالحديث مع الموظّفة، حينها ألفيتُ قَدَمَيّ تحثّان الخُطى نحوها، قدّمت المرأة لي قطعة شكولاتة من سلّة كبيرة موضوعة على مكتبها. قطع الشكولاتة بدت مصفوفة بعناية كبناء هندسي متقَن في سلّة دائرية، وكل قطعة منها على

هيئة مختلفة مربّعة ومثلّثة ودائرية، كلّ منها مغلّفة بلون مغاير أيضًا، كانت قطعتي دائرية ومغلّفة بورق لونه ذهبي، لم أذق في حياتي شيئًا لذيذًا كهذا، كم وددتُ لو أجرّبها كلها!

ودار في رأس الفتاة الأخرى ما دار في رأسي، فوضعت في يدي ثلاث قطع إضافية، واحدة لي والثانية لأمّي وأخرى لأختي.

استغنت أمّي عن قطعتها لي كعادتها، كلّما حصلت على شيء تعرف أنني أحبّه، فأصبح بحوزتي قطعتان، إحداهما مربّعة ولون غلافه شبيه بلون العشب، كانت مَحشوّة بمادّة بيضاء، تغطّيها شكولاتة لذيذة. أما القطعة الأخرى فكانت مثلّثة ومغلّفة بلون البحر، بينما قطعة أختي "عائشة" كانت كقطعتي الأولى دائرية بغلاف ذهبي.

أخذوا الأوراق الشخصية من أمّي بعد أن طرحوا عليها عدّة أسئلة تخصّني وأختي، ظلّت أمّي تردّد ما لقّنه لها خالي دون أن تضيف شيئًا أو تُنقص شيئًا، وكأن الذي كان يتحدّث هو خالي، ولكنْ، بصوت أمّي!

حين عرفوا بسوء حالة أمّي الصّحّيّة، اقترحوا عليها المساعدة بتحمّل تكاليف العلاج لثلاثة أشهر مع إرسال لجنة لتقصّي الحالة الاجتماعية وأوضاع السّكَن، وبعدها سيقرّرون استحقاقية صرف مبلغ شهري أو دفعات أو استلام قسائم مشتريات؛ هذا ما لم يُرضِ خالي "منصور" الذي كان يترقّب الشيك الذي اعتقد أن تحصل أمّي عليه، لو أنها أفلحت في إقناعهم؛ لذا أجبرها أن تُعيد الكرة عدّة مرّات حتّى ينال ما يبتغي هو، وضع في يَدَيْها كومة الأوراق نفسها، لتقوم بالتسجيل في جمعات خيرية أخرى، تزخر بها هذه البلاد التي لم أكن أعرف عنها شيئًا.

حين عرض علينا معلّم اللغة العربية المصري "عطية حسني" قصّة "القفزة" لكاتب من بلاد الروس، كما أخبرنا، صار اسمه تسلية لبعض الطلاب؛ فقد كان من المستحيل على "عبد الصمد" وغيره من الرفاق الباكستانيّيْن نطق اسمه بالطريقة السليمة؛ فتخرج مبتورةَ الحروف، لا صلة لها باسم الكاتب الروسي من بعيد أو من قريب: "تلوسوي". اللفظة مقصوصة الجناح ظلّت عالقة على ألسنتهم، مهما مدّد الأستاذ "عطية حسني" لسانه، كي تخرج بنبرة دقيقة، لكنْ، بلا جدوى.

وكذلك الأفغانيون طفقوا ينطقونها "تولوسي". أمّا الشّلّة البلوشية من حاملي جواز جزر القمر، وقد عرفوا بميلهم للمزاح، وتسابقهم للجلوس آخر الفصل؛ فكانوا ينطقون حروف اسم الكاتب الروسي بطريقة تثير فيهم عاصفةً من الضحك الهستيري؛ حتّى إن دموعهم كانت تسيل من الضحك، وآخرون يمسكون بطونهم كلّما مرّروا بينهم لفظة "توس". طردهم الأستاذ "عطية حسني" من الفصل، بسبب ذلك، ولم نكن نحن بقية التلاميذ العرب نعي سرّ هرجهم من تلك اللفظة!

وحين صعدنا إلى الحافلة في مساء ذلك اليوم، جلس حيث كنّا نجلس أنا و"عبد الصمد" و"قاسم" الصبي القمري المدعو "عوض"، وكان كل من "عبد الصمد" ورفاقه من القمريين ينادونه "عَوَزْ" سواء في الفصل أو في الحافلة كما كانوا ينادون "سلطان" بـ"سلتان" .. اقترب منّا "عوض"،

وكان وجهه محتقنًا من الضحك منذ حصّة اللغة العربية، وكان ضمن أفراد الشّلّة التي طُردت من الفصل، وضّح لنا وسط قهقهاته المنفلتة كلّما تذكّر اسم الكاتب الروسي أنه ورفاقه كانوا يضحكون؛ لأن لفظة "تووس" التي التصقت بلسانهم تعني "ضراط".

ذهبت جهود الأستاذ "عطية حسني" سدىً؛ ويئس من نطقنا لاسم الكاتب الروسي. كتب على السّبّورة البيضاء العريضة بالقلم الأحمر اسم الكاتب، وحوّطه بدائرة باللون نفسه كما يفعل عادة حين يمرّ علينا في المقرّر الدراسي لفظة مستعصية أو عبارة مهمّة في الكتاب، وفي أحيان كثيرة حين تكون العبارة بحدّ ذاتها تهمّه شخصيًّا، بمعنى عبارة ارتبطت بها ذاكرته: بعد طرد الشّلّة القمرية، أخذ يحكي لنا أنه عرف هذا الكاتب الروسي في سنّ مبكّرة من حياته، في مثل عمرنا تقريبًا، في الثانية عشر، حين أراد أن يسرق من مكتبة أبيه كتابًا، حدّق في وجوهنا قبل أن يُكمل جملته الأخيرة، ثمّ سرعان ما انتبه، واستبدل بلفظة السرقة الاستعارة.

لم يكن يُسمح له بالاقتراب من مكتبة أبيه قطّ، بحجّة أنها مكتبةٌ للكبار، وليست للصغار، في حين خصّصوا له أرففًا صغيرة، تحوي قصصًا للأطفال، تلك القصص لم تُشبع فضوله، وحاول أن يغامر، ليقرأ شيئًا جديدًا من مكتبة أبيه، فقد كان يُدهشه الوقت الذي يقضيه والده في مكتبته الكبيرة بين مئات من الكُتُب بأغلفتها الداكنة وأحجامها الضخمة.

لم يجرؤ بعد تحذيرات أمّه وحاجة أبيه للهدوء من الاقتراب من المكتبة حتّى عزم في أحد الأيام أن يتسلّل إليها بينما أمّه منشغلة في المطبخ، وذهب والده إلى المقهى مع رفاقه. كانت الفرصة متاحة أمامه، لينساب بهدوء، ويقف بمهابة أمام المكتبة الفسيحة التي حرمه والده منها، بحجّة صغر سنّه، لمس أطرافها بيَدَيْه، لاحظ كم هي مهولة أمام جسده الضئيل،

فتح إحدى درفاتها، ليقع بين يَدَيْه على عجالة كتاب صغير، غلافه بنّيّ، طُبع عليه صورة بيت صغير ووجه حصان. خبّأه تحت قميصه، ثمّ جرى كالمحموم إلى غرفته، وحين أخرج الكتاب الصغير حيث أخفاه، ولأوّل مرّة في حياته يتصفّح كتابًا للكبار، ما جعله يتساءل بحَيْرة: هل كُتُب الكبار تختلف عن كُتُب الصغار؟ هل تختلف في أحجامها؟ لكن بعض كُتُب الكبار أحجامها تساوي أحجام كُتُب الصغار؟ لقد سمع من زملائه في المدرسة أن كُتُب الكبار بها كثير من الأسرار، أسرار مخيفة، أسرار غير لائقة، لم يكن يعرف ما مدى دلالة لفظة غير لائقة؟! وكيف يمكن أن تكون الأفكار في الكُتُب غير لائقة؟ بل كيف تكون الكلمات عارية والجمل عارية؟!

سمع أحد زملائه في الفصل وقد سرق كتابًا من مكتبة والده يتحدّث أمامهم عنه، ويصفه بأنه كتاب عارٍ، اعتقد كما بقية رفاقه أنه يحوي صورًا لأشخاص بلا ملابس، كما كانت تحوي بعض الكُتُب والمجلات المخصّصة للكبار، لكن الكتاب كان خاويًا من الصور، فضحك الولد الذي كانوا يلقّبونه بالفيلسوف ساخرًا، ووضح لرفاقه أن العريّ لا يكون في الصور وحدها، بل هناك أفكار وكلمات وجمل عارية أيضًا، هكذا سمع الفيلسوف من والده الأستاذ الجامعي، وكان يناقش زميلًا له في مكتبه، بينما هو منشغلٌ بمطالعة كتاب قصصي، انتقاه له والده من مكتبته، وقد تناسيا وجوده تمامًا في أثناء نقاشهما، ما جعل فضوله مستثارًا؛ وحين غادر والده مع صديقه، دسّ الكتاب في كتابه القصصي الذي كان يطالعه، مغادرًا غرفة المكتبة كلصّ، وحين قلّب صفحاته، لم يجد سيقانًا عارية، ولا أثداء منتفخة، ولا رجالًا في أوضاع مثيرة، بل مجرّد كتاب يزخر بكلمات مصفوفة، كتاب يشبه الكبار، عارٍ من الصور، وحين طالع سطور الكتاب وجدها عاريةً كما قال والده!

قلّب عطيّة الصغير الكتاب بين يَدَيْه، وأمعن النظر في غلافه، وفي اسم

مؤلّفه، حاول أن يقرأها، غدت الحروف التي تشكّل الاسم صعبة، استغرق ثوانٍ، ليستوعبها ويستجمعها في كلمة واحدة كاملة كما تُقرأ الكلمات عادة، حاول أن يُركّب طريقة نطقها، فانسابت مخارجها من حلقه الذي كان ملتهبًا من البرد: تولوسي .. تووليس .. ومرّة: تولوسيس .. حتّى اعتقد أنه أتقن نطقها في لفظة: توليستووي ..

سرح الأستاذ "عطية حسني" في حكايته كعادته حين يشرع في سرد ذكراه عن نفسه يتيه تماما في تفاصيله وحده، وكأنه يحكيها لنفسه رغبة منه لاستعادتها، فمعظم مَنْ في الفصل لم يكونوا يُتقنون اللغة العربية، وبالكاد يلتقطون بعض الجمل.قليل منّا ينصت لحكاياته غير أنني كنتُ أراها طريفة، وأمعن في كل كلمة يقولها.

لم يكن يقطع خيالاتي سوى مشاغبات التلاميذ، وهم يضايقون الأستاذ "عطية حسني"، وكان بدوره يشتمهم تارة بالأغبياء، وتارة يقذفهم بألفاظ مصرية نابية كـ "جزمة"، "يا تماسيل"، "يا عيال الشوارع"، أو يدعو عليهم "بلاوي، ربّنا يخدكوا كلكو"، تلك الألفاظ التي لم يسبق أن سمعوا بها ناهيكَ عن معرفة معانيها؛ لكنه كان يعاملني باحترام، ليس لهدوئي وتأدّبي معه فحسب، بل لأنني أنقذتُه؛ فحين فاجأنا موجّه اللغة العربية في إحدى المرّات؛ لاحظتُ كما بقية التلاميذ توتّره؛ طفق يتحدّث بصوت مرتعش، يطرح أسئلة لم يجد لها إجابات شافية وسط استهتار بعض الطَّلَبَة الذين وجدوها فرصة سانحة للتّشفّي من المعلّم الذي كان يُغرقهم في كل حصة بكومة من شتائم، لا يعرفون معناها، لكنهم كانوا يحسّون بوقاحتها.قام الموجّه يستعرض معلوماتنا، كنتُ وحدي في الفصل أرفع إصبعي بأدب جمّ، لأجيب، يومها ربّت الموجّه على رأسي، وسألني عن اسمي، وقبل أن أجيب، سبقني أستاذ "عطية حسني" كما لو أنه يقدّم ملكًا، ونطق اسمي بفخامة أدهشتني:

- "فارح حسنو" تلميذ نجيب من بلد الأصالة الصومال.

بعدها أصبحتُ التلميذ الأثير للأستاذ "عطية حسني".

في حصص التعبير الإنشائي يكتب المعلّم سطورًا على السّبّورة تساعدنا على الكتابة، كنتُ عادةً أوّل مَنْ ينتهي في الفصل، فيطلب منّي قراءة ما كتبتُه على مسامع التلاميذ الذين لا يجيد معظمهم الكتابة باللغة العربية، وتغدو صفحات دفاترهم مخربشة بخطوط ركيكة، يضطرّ بعضهم خوفًا من عقاب المعلّم إلى ملء فراغات السطور باللهجة التي يتحدّث بها في منزله، وكان ذلك كفيلاً بإغضاب المعلّم؛ فيتوعّدهم بإرسالهم إلى مقاعد الروضة؛ كي يتعلّموا حروف الهجاء، فوجودهم في الصّفّ السادس بهذا المستوى عار كبير.

كان لا يكتفي بالثناء على كتابتي، بل يبدي أيضًا إعجابه بخطّي في رسم الحروف:

- يا واد، يا فارح، يا ابن الصومال، أنتَ خطّك بسم الله، ما شاء الله، بديع أوي ...

يقولها وكفّه الضخمة تخبط على كتفي خبطًا، يكاد يخلعه حين يزداد ثناؤه حماسةً إلى ما أكتبه أو أنقله من نسخ الفروض المنزلية.

غدا خطّي بديعًا وكتابتي منسابة بفضل أختي "عائشة" التي علّمتني الحروف العربية مذ استقرارنا هنا حين أصبح مستقبلي هاجسها. وحين كانت أمّي تغادرنا إلى عملها خادمة في البيوت، كانت أختي "عائشة" تعكف ساعات على تعليمي، لم يكن ثمّة شيء يشغلني أو يشغلها في تلك الساعات الطويلة التي تعبرنا برتابة حتّى عودة أمّي من العمل.

اكتسبت عائشة مهارةَ قراءةِ الحروف العربية وتراكيبها بفضل شابّ كانوا

يدعونه "المعلّم" قالت إنه جاء متطوّعًا من تلقاء نفسه من وسط مدينة "بوت لاند"، لينتشل أطفال المخيّم الهزيلين من شتاتهم، انتشلهم بمسؤولية وحبّ، ليعلّمهم القراءة والكتابة بلا مقابل. كان ذلك غريبًا في مخيّم معدَم، يلهث فيه الجميع، كي يكسبوا منفعة أو لقمة أو سنتًا لصغارهم، لذا امتنع كثير من الأهالي الأمّيّيْن في البداية عن إرسال أطفالهم إلى خيمته الصغيرة خشية أن يطلب منهم مالًا، هم أحوج إليه لملء بطون صغارهم، لا عقولهم، حتّى حين أعلن المعلّم الشّابّ وهو يطوف المخيّم من أوّله إلى آخره مؤكّدًا للأهالي أن عمله تطوّعي، ولا يطلب مقابل ما سيقدّمه لصغارهم من تعليم، لكن شكوكهم لم تبرح عقولهم، وظلّوا قلقين؛ لأنهم كانوا يخشون أن يكون أحد أولئك اللصوص أو المنتمين لرجال العصابات أو قادم من إحدى جبهات الحرب، ليخطف صغارهم، ويجبرهم على الهروب معه إلى حيث المجهول، وإلى حيث الحرب والنهب والقرصنة!

لا يمكنهم أن يعيشوا في الواقع دون تلك الأفكار، فالحرب تسلب عقل الإنسان، وتسمّم أفكاره ودمه. المحاربون يحاربون بأسلحتهم، أمّا هؤلاء الأمّهات، فيحاربنَ لأجل أفكارهنّ وتأمين لقمة عيشهنّ؛ كانت حربهنّ فظيعة وحقيقية، حرب مستمرّة.

لكنّهن، مع الوقت، بسبب طباعه الحسنة، وبثناء بعض الصغار الذين حضروا دروسه دون علم الكبار، وثقنَ فيه، بل غدا وجوده مع الوقت لكثير منهنّ طريقًا إلى حياةٍ أفضل، من خلال تعليم صغارهم القراءة والكتابة؛ لعلّ نور العلم يُخرجهم من ظلام الفاقة.

عكف على تعليمهم في خيمة صغيرة، لم تكن تحوي في داخلها سوى قطعة مربّعة سوداء، كانوا يسمّونها لوحة المعلومات، ودأب "المعلّم" المتطوّع على تعليم الصغار الهزيلين حروف اللغة العربية، وكيفية نطقها،

كان يرسم الحروف على سبّورة المعلومات بقطعة طبشور أبيض، ودأب الصغار على تهجئتها بهمّة عالية.

كان يعرف كيف يُلبِس كل حرف صوتًا، كل كلمة لها نغمها، ويحوّل كل عبارة إلى رقصة، ويضرب لهم المثل بالنحلات التي تخاطب بعضها بحركات راقصة، فكل حركة من حركاتهنّ الراقصة كانت تعبّر عن معنى ما، كان يصنع من لفظة واحدة مجموع كلمات، كل لفظة تمرّ على لسانه، ويعرّفهم بها حتّى يتمكّنوا من تشكيل قواميس، تؤسّس لغتهم في المستقبل.

ظلّت أختي "عائشة" تحكي عن "المعلّم" بانبهار، وحين كانت تعلّمني، تطلب منّي لفظة على طريقة معلّمها، فكنتُ أسحب من عقلي عادة ألفاظًا أُحسّ بها كـ "جوع"، فتفتّت عائشة كلّ حرف وحده، ثمّ تنحت الحرف على هيئة كلمة جديدة من اختراعها: من الجيم "جبن"، ومن الواو "وليمة"، ومن العين "عنب"، فتضاعف كلماتها التي استخلصتْها من حروف كلمتي حدّة جوعي.

سرعان ما غدت لعبة صناعة الكلمات تسليتي، أطرح عليها كلمات، لأختبر مهاراتها اللغوية، وهي تشكّلها كهيئة كلمات كاملة لها معناها، وحين تنوّع قاموس كلماتي التي كنتُ أطرحها عليها، طلبت منّي أن أعلو إلى المستوى الثاني، حيث أغدو كطائر مكتمل له جناحان وتهبط هي إلى المستوى الأوّل كفرخ في طور التّعلّم، فتطرح عليّ الكلمة التي أصنع منها عجين كلمات لها ثقل، وكم كانت تشبيهاتها تضحكني.

أمّا لغة الألوان، فكان المعلّم الشّابّ يعلّمها لهم من خلال ألوان الطبيعة، حكت لي كيف أنه أخذهم في جولة إلى سوق "بوصاصو"، هناك أصبح يربطهم بذاكرة الألوان من خلال الأشياء التي تحيط بهم.

فالأرض التي يمشون عليها لونها ترابي، وحين يمتصّها الماء، يصير لونها طيني، الطين الذي عجننا الله منه، وفي ساحل "بوصاصو" عرفوا لون البحر وكل ما هو أزرق بحري، أمّا السماء، فلونها متقلّب، مرّة بلون صوف الخروف، ومرّة بلون الرماد.

عبر هذه المهارات التي تلقّيتُها بدأب من أختي "عائشة" تطوّرت كتابتي باللغة العربية، ما جعل معلّم اللغة العربية ينعت لغتي بأنها أصيلة، كنتُ ولفيف من الأصدقاء السوريّيْن منهم والمصريّيْن والفلسطينيّيْن وبعض القمريّيْن نتحدّث بلهجة سليمة قراءة وكتابة، أمّا بعض اليمنيّيْن والعراقيّيْن، فكان مستواهم القرائي والكتابي يكاد يكون هشًّا رغم أنهم عرب؛ ربمّا لأن ظروف الحرب التي طالت أجيالًا منهم هي التي قضت على التعليم، ظروف الحرب، اللجوء، العنف، الجوع، والتّشرّد في أقاصي الأرض. هذه الكلمات التي يعرفها العالم الآخر كمفردات، لكنها عبرتنا بمعانيها الحقيقية، مررنا بها كتجارب عنيفة. شرخت أرواحنا الهزيلة!

وكان كل من "قاسم" و"عبد الصمد" والبقية من جنسيات غير عربية وبعض القمريّيْن كذلك يجدون صعوبة جمّة في التفاهم بألفاظ عربية، في وقت كانت ثرثرتهم فيما بينهم بلغتهم الأمّ، وهي اللغة نفسها التي يشتمون بها الأستاذ "عطية حسني" حين يلسعهم بالعصا أو يعاقبهم بإرسالهم إلى المدير وعندما يُسكتهم بعبارته التي حفظوها. بعد نهاية الحصّة يتندّرون عليه محاولين تقليد نرفزته:

- اخرس منَّك له، يا ولاد الجنّيّة!

على الرغم من المضايقات، كان الطَّلَبَة جميعهم يتجاوزون المرحلة الدراسية بنجاح، حتّى أولئك الذين لا يُتقنون اللغة العربية، ولا يجيدون حتّى كتابة أسمائهم، كان هذا الأمر يُدهشني للغاية.

لكن مساعي "عبد الصمد" لإتقان التّحدّث باللغة العربية والكتابة بها كانت جادّة، ففي أعوامه الأولى، لم يكن يتقن حروف الأبجدية رغم أنه ظلّ يتدرّب ويقلّد كببغاء كل كلمة يلتقطها من أي فم يتحدّث أمامه.

كان يُضحكنا بحلمه حين أخبرنا بزهو بأنه يرغب في أن يكون معلّمًا للُّغة العربية حين يكبر، اللغة التي كتب الله عز وجلّ بها "قُرآن كريم" كما كان يلفظها؛ كي يضمن لنفسه مكانًا في الجنّة، وليحبّه الله، وحين كان يردّد لفظ الجلالة "اللاه" بنبرته الرخيمة، كان يحرص على أن يُخرج حروفها من فمه بنبرة احترام شديدة.

"عبد الصمد" درس في كراتشي حتّى الصّفّ الرابع قبل أن يأتي إلى هنا، وحين كنّا نقول له إنه باكستاني نسبة إلى وطنه، كان يعترض ويصحّح لنا المعلومة ليقول بدقة محقّق، وبعربية مكسّرة وهو يبتلع معظم حروفها:

- أنا "عبد الصمد" هافز كرم بخش من كراجي ..

كان يقولها بحمية حقيقية، ينفخ صدره بانفعال واضح، يعقد ما بين حاجبْه المقرونَيْن كسيفَيْن غليظَيْن، أمّا النقرة التي كانت تزيّن ذقنه كغمّازة، فتختفي في تكشيرته.

"عبد الصمد" شغوف بالمدرسة، لم يتغيّب يومًا مذ عرفناه، كان يعترف أنه في البيت عادة يكون ضجرًا، وليس لديه أحد يلهو معه، فوالده يقضي النهار بأكمله حتّى الحادية عشر مساء بين ماكنته ومقصّاته وأقمشته، وفي فترة الظهيرة الوحيدة المتاحة له للذهاب إلى بيته يتناول فيها غداءه، ثمّ سرعان ما يسلّم نفسه المجهدة لقيلولة حتّى أذان العصر، ليتابع عمله بعد الصلاة، وفي هذا الوقت يُعدّ نفسه للذهاب إلى المدرسة، حيث نلتقي جميعًا في ناصية الشارع في انتظار الحافلة التي تقلّنا في تمام الساعة الثالثة ظهرًا.

أمّا أمّه، فإنها تقضي يومها في التنظيف وإعداد الطعام لهم، وأحيانًا مشاهدة قنواتها الباكستانية المفضّلة، لتستعيد حنين وطن، اضطرّت لمغادرته رغمًا عنها هي وزوجها وابنها.

حين مرّ على غيابه يومان، سألنا معلّم اللغة العربية، إن كنّا نعرف سبب غيابه، ولم يكن التّغيّب عن المدرسة من عادة "عبد الصمد"، وحين نزلنا من الحافلة مساء ذلك اليوم، اقترح علي "قاسم" أن نمرّ على أبيه، لنسأله عن سبب غياب "عبد الصمد".

كان صوت آلة الخياطة صاخبًا، وحين ولجنا المحلّ الصغير أنا و"قاسم" لوهلة لم يشعر بنا، تنحنح "قاسم"، ورفع صوته للسلام عليه، أرخى قَدَمَه اليمنى عن دوّاسة ماكينته، ثمّ أسفرت وجنتاه الغائرتان عن ابتسامة متعبة، بادرناه بالسؤال عن "عبد الصمد"، فاسترسل بصوت متعب أنه مريض بالحمّى، وحرارته غير مستقرّة، ثمّ اقترح علينا أن نزوره في البيت، لنخفّف عنه، وقبل مغادرتنا، اتّصل على رَقْم البيت من هاتف المحلّ، ليُعلّم أمّ "عبد الصمد"، كي تستقبلنا، فهي لا تفتح الباب للغرباء مطلقًا حين يكون هو خارج البيت.

لم يستغرقنا الوصول إلى البيت سوى عبور الجدار الذي يقع خلف محلّ الخياطة، عبرنا السّكّة التي أنعش ظلمتها انعكاس شفيف لأضواء المحلات والشارع. وقفنا أمام باب حديدي قصير من درفَتَيْن منحوت بأشكال دائرية على شكل ورود صغيرة بارزة مصبوغة بلونَيْن مختلفَيْن في تجويفها الداخلي الأحمر، أمّا الأطراف البارزة، فدُهنت بالأخضر.

فتحت أمّه الباب بحذر واضح بعد أن ضغط "قاسم" على الجرس، لم نتبيّن شكلها في الضوء الخافت للمبة صفراء متدلّية كبيضة مسلوقة على رأس الباب قبل أن نمضي خلفها إلى صالة مربّعة، أجلستْنا بلطف بالغ

على كنبة خضراء طويلة، بعد وهلة، رأينا بيدها صينية دائرية من المعدن، عليها كأسان زجاجيان مزخرفان بنقوش زرقاء مملوآن حتّى حافّتهما بسائل لونه أحمر فاتح. فاحت من الكأسَينْ رائحة الورد، وأدركتُ بأنه المشروب الذي أخبرنا عنه "عبد الصمد"؛ حين جرّب من باب الفضول في إحدى المرّات شرابًا يُباع في مقصف المدرسة بصقه من فمه متقزّزًا وسط دهشتنا قائلًا بنبرة ممتعضة إنه لن يحتسي هذا المشروب في حياته مرّة أخرى؛ لأنه لا يضاهي في طعمه، ولا في رائحته الشراب الذي تعدّه أمّه في البيت، والذي توارثَه عائلته بدورها عن أجداده في كراتشي، وحين سأله أحد الأصدقاء الفلسطينيّينْ عن اسم الشراب الذي يعنيه لفظه بحماس: "روح أفزا"، وطفق يستعرض ميزات هذا الشراب السِّحْرِيّ في لونه ورائحته ومذاقه، محرّضًا إيّانا على تجربه، فهو يُباع في الأسواق هنا على الرغم من أن الذي يُصنَع في بلادهم أكثف وألذّ مذاقًا.

لم تكن أمّه على ما يبدو تجيد العربية، لذا ظلّت صامتة، بدت عيناها المستديرتان الواسعتان كعينَي "عبد الصمد" ترحّبان بنا وابتسامتها الأمومية تحتوينا بحبّ، ولم تنتبه أن "قاسم" يجيد لهجتها، غير أنه ظلّ صامتًا هو الآخر مستمتعًا باحتساء الشراب حتّى آخر قطرة.

حين جاء "عبد الصمد" متّكئًا بدلال على يد أمّه، لم تستوقفْنا علامات المرض التي استقرّت على وجهه، ولا نحول جسمه، بل يد أمّه التي بدت وكأنها مقطوعة، نظرات "قاسم" الذاهلة نحوي أكّدت ذلك، لكن صوت "عبد الصمد" بعثر نظراتنا، وسرعان ما أخذتنا الأحاديث عن المدرسة والاختبار والفروض المنزلية.

خاطبتْه أمّه بعبارة ترجمها لي "قاسم" بأنها تريد أن يُبقينا على العشاء،

لكننا غادرنا معتذرين لتأخّر الوقت،ولم نكد نبتعد قليلاً حتّى هجم عليّ "قاسم" بفضول سؤاله:

- فارهو .. إنتِ يشوف اللي أنا يشوف؟

- نعم، شفت ..

- إنتِ يفكّر أنا يفكّر فيه؟

- أفكّر ئيش ..؟

-إيد ماما "عبد الصمد" سيم سيم إيد نفرات أنا يشوفهم في مكّة،أنا يسأل بابا قال هادا شرطة يقطع إيدهم عشان هرامية. هرامي لازم يقطع إيدهم بسكّين، اللاه سبهانه يقول هادا في قُران ..

- يعني أمّ "عبد الصمد" حرامية؟!

- اللاه أعلم. أنا في خوف، مسكين "عبد الصمد".

- ضروري نسأل "عبد الصمد ".

- ممكن هادا صعب فارهو ..كيف؟

- ما في حَلّ ثاني، يا "قاسم" ضروري نسأل؟

تقلّبتُ ليلتها في فراشي وأفكاري ساهمة عن اليد المقطوعة لأمّ "عبد الصمد". شعرتُ أن وراءها حكاية .. حكاية لم يخلْ "عبد الصمد" في روايتها لنا حين حاصرناه بشكوكنا.

هل تعلم، يا كارل، كانت الأسئلة كالأسلحة!

كنتُ طفلًا ذاق مرارة الهروب لأوّل مرّة من وطنه، وطن لم يعرف يومًا هل يحبّه، أو كيف يحبّه وجسده مستباح وروحه مثقوبة بأصوات الرصاصات؟

وطن يستحمّ بالدم وهو عارٍ، يستبيحون عريه،وهو يقهقه بهستيريا كحيوان جريح يدّعي القوّة بكبرياء!

لم أكن أسأل نفسي قطّ، ولكنْ، مَنْ هم حولي من رفاق كانوا دائمًا يحاصرونني بأسئلتهم، وحين كنتُ أتنصّل منها، يواجهونني باستياء: أنتَ دائمًا تهرب من الأسئلة التي نحاصرك بها؟لم يكونوا يعلمون، يا كارل، ليت الزمن يعود للوراء، حينها سأشرع أبواب قلبي الموصدة كلها، سأتقيّأ أسراري كلها دفعة واحدة، كما لو أنني محكوم بقَطْع لساني!

كنتُ أهرب من الأسئلة التي تُصوّب خنجرها في كبدي، الأسئلة التي يقذفها رفاقي عليّ كالجمر المستعر. كان الهروب من الأسئلة المحجوزة في قاعي، والتي كان صوتها يلحّ في رأسي، وتفتّت مخالبها بقسوة في جمجمتي؛ كي أطيعها، وأطارد الأجوبة؛ كي أشفي غليلها، غير أنني في كل مرّة كنتُ أعجز أمامها، فأهرب!

هرّبتني أمّي في سبيل مستقبل بلا جوع، في سبيل حياة خالية من

سيرة السلاح، فهناك في بلادنا المقفرة يحبلون بهم وسط الأسلحة، ويقذفونهم من ثقوب الأنوثة وسط الأسلحة أيضًا. السلاح هو أوّل رفيق يصحبه الطفل، يترعرع معه، ويرافقه حتّى مماته، غير أن أمّي لم تكن تريد لي أن أكون رفيقًا للسلاح، أن تكبر عظام أكتافي على لحم مَنْ أقتلهم، أن أعتاد على السلاح أو آخذه وسيلة لرزقي، الرزق الذي سأقتل من خلاله المئات أو الآلاف، ولكنْ، في النهاية حيث المصير محتوم لكل حامل سلاح ستنقلب رصاصاته عليّ، وتوجِّه فوهته صوب قلبي، وتزهق روحي بعدد الأرواح التي أزهقتُها، مَنْ سار على طريق الدم لن يصل، سيغصّ حتمًا بدماء مَنْ شرب دمهم.

غدت الأسئلة في جوفي كالأسلحة.

للموت طُرُقٌ متشعّبة، على الرغم من تشابه الدّم الذي يطرطش من جسد الضحية برصاصة أو بقذيفة، بمطرقة أو منشار أو حتّى بغيبوبة أبدية. هل تعلم، يا كارل، مَنْ لطّخ طريقي بالدم؟ أولئك الذين آمنوا بالجسد، وصارت أعضاؤه آلهتهم، القلوب والأكباد والكلى .. كلّ جزء من جسد الآدمي هو صفقة لا تُفوَّت!

يحدث، يا كارل، أن حامل الجسد الذي يمشي في زقاق بكامل صحّته وعنفوانه لا يعلم أنه شريك في الجرم، وأن القلب الذي يضخّ دمه، لربّما كان لرجل بريء، أو الكلية التي تدرّ بوله لشابّ مهمّش، أو عجوز كان يحيا على ابتسامة! لشخص يمدّ عن طيب خاطر يده، ليمسح دمعة، لايعرف مصدرها. دمعة تستحيل إلى رمح، تطعن ظهر الضحية، ولا حيلة لها بعد ذلك. شلال من الدم يُغرقني في كوابيس، تذبحني كل ليلة.

تذبحني على امتداد عمري المنقضي!

كان خالي "منصور" يقيم في الغرفة المجاورة لغرفتنا. سقف كلتا الغرفتَيْن واطئ، ومياه الأمطار تتسرّب عبر ثقوبه. طلبت أمّي منّي أن أبحث عن كيس من النايلون، لنتّقي المطر كحلّ مؤقّت، وحين ينتهي المطر، نُصلحه بالجصّ والطين، كما يفعل معظم الساكنين هنا. ولكنْ، منذ عامَيْن خاصمت الأمطار هذه الديار، فلم تسقط قطرة مطر واحدة. الصنادق المتراصّة حولنا معظمها من غرفة واحدة، جدرانها من الخشب، وسقفها من الشينكو، لذلك تحتفظ بالحرارة في سطحها؛ أمّا البيوت المصنوعة من طوب الطين، فهي عتيقة جدًّا، جدرانها مقشّرة، وأسقفها مرمّمة بالخشب المربّع والإسمنت غير أنها مزدحمة، يقطنها حشد من البنغاليّيْن والباكستانيّيْن والأفغانيّيْن وأفارقة من جنسيات متعدّدة.

المكان أشبه بمجمّع سَكَني قديم يمتلكه – كما عرفتُ فيما بعد - مواطن من أهل البلد، ويعرفه خالي "منصور" جيّدًا. كان يعلم بحاجة العمّال إلى مكان للعيش كيفما كان، برواتبهم الضئيلة التي يبعثون أكثر من نصفها إلى أبنائهم وزوجاتهم في ديارهم أو أولئك الذين كانوا يقومون بأعمال مشبوهة، معظمهم بلا عوائل، تسكن معهم، والهنود هم أكثر الجنسيات كثافة سكّانيّة في هذه المنطقة. عشرات من الرؤوس تتراصّ في غرفة واحدة، ليتقاسموا تكاليف الإيجار الباهظة.

في أيّامنا الأولى لم أكن وأختي "عائشة" نخرج قطّ، كنّا نبقى حبيسَي

الغرفة، منقطعين عن كل ما له صلة بالخارج، أمّنا تقضي النهار بطوله، وأحيانًا ساعات من الليل في البيوت، تعمل خادمة بنظام دعاه خالي بنظام الساعات. اختار لها هذه الطريقة المرهقة في العمل، حيث تنتقل من بيت إلى آخر في ساعات كثيفة؛ لتكسب أضعاف ما كانت ستكسبه، لو عملت في بيت واحد، ولتُوسّع معارفها، وتوثق صلاتها مع الأُسَر الثريّة في هذه البلاد.

لم تكن أمّي تعرف أن ذلك مخالف للقانون حتّى نبّهها خالي، لكي تتوخّى الحذر، كما نبّه خالي الأهالي الذين تعمل أمّي لديهم أن يكتموا الأمر، وذلك لمصلحتهم ومصلحته، كانت كلّ واحدة منهنّ تحتاجها في اليوم لساعة أو لساعتَيْن، وأحيانًا تتضاعف الساعات في أوقات المناسبات والولائم التي كانوا يقيمونها غالبًا في نهاية كل أسبوع، لم تكن أمّي تعلم كم كانوا يمنحونها على الساعة الواحدة؛ لأن الذي يقبض هو خالي "منصور"باتّفاق مُسبّق مع الأهالي، ويبرّر ذلك بأنه دَيْن مقابل جلبنا إلى هنا، وكنا نجهل عن مدّة انتهاء هذا الدَّيْن.

تعود إلينا منهَكَة، وفي يدها بقايا الطعام الذي يفيض عن مطابخهم، وفي بعض الأحيان، كانت تأتي محمّلة بثياب، أحذية، حقائب مدرسية ونسائية، ألعاب، ملاعق وأطباق، وغيرها من أشياء، أجهل أسماءها، يُراكمونها في أكياس سوداء كبيرة، لم تكن أمّي تشتكي، لم أسمعها قطّ تتذمّر، بل على العكس من ذلك، تعمل لساعات إضافية، لتوفّر مالًا كافيًا لخالي، كي لا يُلحِق أختي في عمل البيوت، فقد كانت تخشى عليها في بلد غريب، وتفضّل أن نبقى معًا في الغرفة، نُقفل بابها، ولا نفتحه لأحد.

لكنْ، مع الأيّام طفق خالي "منغستو" أو "منصور" يوسّع من مسوغات خروجي عن ضيق الجدران الأربعة. كان صاحب البقالة البنغالي يجلب

طلبات خالي حين يُنهي فترة عمله عائدًا إلى حيث يقطن قريبًا من الحيّ الذي نسكنه، لكنْ، حين يريد خالي طلباته قبل موعد قدوم البائع، كان يرسلني إلى البقالة.

هذا المشوار غدا أوّل انفتاحي على الحياة في الخارج، أشتري كل ما يُدوّنه على ورقة مقصوصة. ثم اعتاد مع الوقت أن يرسلني بلا ورقة طلبات، فيعلم عامل البقالة ما يريده دون أن يسألني. دائمًا أُحضر له الحاجات نفسها، سجائر، وشراب يسمّيه عصير الشعير، وعلبُها تماثل العلب التي كان البنغاليون وغيرهم من الرجال يعجونها، ويرمونها بين الأحراش. حين كنتُ أعرّج إلى البقالة، كان صاحبها البنغالي يتوجّه نحو مخبأ في دكّانه، حيث يراكم صناديق الشيبس بنكهاتها المختلفة التي لم يحدث أن تذوّقتُها من قبل أو لمستُها أو حتّى أحطتُ بأسمائها، يزيحها واحدًا واحدًا من أعلى، ليضعها في الأسفل على الأرض أو فوق صناديق أخرى، ليزيحها عن ثلاجة، أخفاها خلف تلك الصناديق المتراكمة فوق بعضها، ثمّ يزيح من أعلى الثلاجة مشروبات غازية، ومن قاعها يخرج ثلاث علب من عصير الشعير المثلّج، ويضعها سريعًا في كيس أسود، ثمّ يضع فوقها علبتَينْ من السجائر المعتادة.

لم يكن يمنحني نقودًا لشراء ما يريده، ولم يكن العامل يطلب أو يسجّل في كرّاس الديون كما يفعلون عادة، هل يقدّمها مجّانًا مقابل خدمات يقدّمها له خالي؟ أم أنه يسجّلها بعدما أذهب؟

لم تكن مهمّات خالي "منغستو" لي تنتهي، وفي يوم عاد وفي يده أشولة، اعتقدتُ لوهلة أنها تحوي في داخلها أرزًا أو طحينًا أو سكّرًا، ولكنْ، حين حملها بخفّة في يد واحدة، توقّعتُ أنها أشياء حصل عليها، ولكني تفاجأتُ حين فتح الأشولة، وأخرج منها علبًا لمشروبات غازية فارغة،

وطلب منّي أن أقوم بجمع العلب الفارغة، وعن كل شِوال ممتلئ سوف يمنحني درهمَين.

غدت هذه المهمّة سهلة وممتعة في آن، فالمنطقة التي كنتُ أقطنها تتكدّس بها كهذه العلب بين الأحراش، وفي الطُرُقات التي تكون خارج اهتمام العامل البنغالي جامع القمامة الذي ينكفئ على التقاطها في الشوارع العامّة، كما يحتّم عليه عمله. وتفيض بها حاويات القمامة، لذا كنت أبدأ بمهمّتي منها، فهي تتكاثر في كل زاوية من زوايا الحيّ، وعند كل بيت، فأقوم بتصفية ما أجده في قاعها قبل الشاحنة التي تقوم بعملية تفريغها من محتوياتها كلها. الحاويات تكون وفيرة بعلب الكولا والبيبسي ومشروبات أخرى غازية، ونادرًا ما أصادف فيها علب الشعير التي ألتقطها عادة ما بين الأحراش.

أجمع العلب في أشولة أو أراكمها في صناديق البطاطس الفارغة التي أجدها مَرميّة قرب البقالة. انتشرت هذه التجارة بين معظم الطَّلَبَة الذين عرفتُهم فيما بعد في المدرسة، يجمعونها بلا علم أهاليهم، وبعلمهم أيضًا، يحصلون على مبلغ لكل كيس العلب حسب وزنه. غدت الأحياء نظيفة، ونادرًا ما نصادف علبًا مَرمية. كان الأطفال يتنافسون في الوصول إلى برميل القمامة الذي لم يفتّشه أحدٌ بعد؛ يملؤون أكياسهم، ثمّ يبيعونها لرجل يلقّبونه برجل السكراب، يقود شاحنة صغيرة، يسير بها بين البيوت مُزمّرًا ببوقها: تيييييت تيييت .. يشتري الشوال بعشرة أو عشرين درهمًا حسب وزنه، لذا أوصاني خالي "منغستو" بعجّ كل علبة قبل أن أضعها في الشوال، ليتّسع للمزيد، ويثقل وزنه.

كنتُ أستمتع بهذه الجولات قبل ذهابي إلى المدرسة في الفترة المسائية بينما أختي "عائشة" كانت تُبدي اعتراضها على خروجي وحدي في غياب أمّي؛ لأننا في حيّ سُمعته سيّئة، يثير الريبة نهارًا وليلًا. يقطنه

غرباء بهيئات مختلفة، ولكنْ، حين سمع خالي شكواها لأمّي العائدة من عملها، وشهد نبرات اعتراضها، ردّ عليها مغاضبًا:

- لولا وجودي، لكنتِ الآن نائمة في الشارع، وفي أحسن الأحوال متقلّبة في بيوت الدعا ....!

كادت أختي "عائشة" أن تصفعه وهي تقول بنرفزة:

- اخرس، يا وسخ!

لكن خالي صدّ يدها، ولولا صوت أمّي المبحوح بالكفّ، لتعاركا بالأيدي.

لم تكن العلاقة بين خالي " منغستو" وأختي "عائشة" على ودّ، إذ كانا يتلاسنان كثيرًا، ولولا تدخّل أمّي لربمّا مدّ يده عليها. كان طمّاعًا، واشترط على أمّي قبل عمل أوراق الفيزا أن يشغّلها لتردّ الدين، ولم تعترض قطّ. لم تكن تملك قرارها منذ انتشلها من ضياعها في مطار غريب عنها ومعها صغيراها .ظلّت طوال حياتها ممنونة له، على الرغم من كل شيء!

وحين تدهورت صحّتها، وعجزت عن العمل بعد عامَيْن من إقامتنا هنا، طلب خالي من أختي "عائشة" أن تحلّ محلّ أمّي في العمل أو سنضطرّ إلى النوم في الشارع، وافقتْ على مضض مراعاة لصحّة أمّي. خالي هو الرجل الوحيد في هذه البلاد الغريبة الذي نعرفه، وهو يعرف البلاد وقوانينها .على الرغم من ذلك، كان يطالب بأجرة الغرفة شهريًّا، لا سيّما بعد أن التحقت أختي "عائشة" بالعمل غير أنني عرفتُ فيما بعد أنه مَعفي من الإيجار؛ فقد كان هو المسؤول الذي يجمع إيجارات العمّال في هذا المكان الأشبه بالمجمّع، ثمّ يضعها في يد صاحب المكان، المواطن.

في يوم، كنتُ عائدًا من المخبز القريب، رأيتُ خالي يحادث رجلًا،

يرتدي لباس أهل البلد جالسًا في سيّارة فخمة، نوافذها مظلّلة. ثوبه ناصع البياض. يخفي عينَيْه خلف نظّارة قاتمة، عريضة الحجم، تلائم أوداجه الممتلئة وشواربه الثخينة، تحادثا قليلاً، ثمّ وضع خالي في يده رزمة أوارق نقدية، وعندئذ سمعتُ صوت الرجل:

- سيأتي رجل يهمّني، ليستأجر غرفة هنا، جدْ له مكانًا، ولا تأخذ منه، فهو مَعفيّ مثلكَ.

ثمّ أخذا يتهامسان ويضحكان كأنهما صديقان ...

احتفظتُ بالسّرّ لنفسي، كي لا أزيد الأمور سوءًا بين خالي الذي اكتشفتُ جشعه للتّوّ وأختي، وكلّما صادفتُ الرجل مع خالي في كلّ نهاية شهر، تحسّستُ السّرّ المخبّأ في قلبي.

مع الأيّام، ساءت العلاقة بينهما كثيرًا حتّى صارت أختي "عائشة" تمنعني من أن أدخل غرفته أو أجلس معه، وحين كنتُ أتذمّر من ذلك، كانت تردّ عليّ:

- نحن في بلد غريب، من الأفضل لكَ أن تنتبه لدراستكَ، وألا تخالط الكبار؟

وكانت عبارتها تُذهلني، أخاطبها وأنا غير مقتنع:

- لكنه خالنا، يا أختي، وهو مَنْ أحضرنا إلى هنا.

فتردّ عليّ بنفاد صبر كعادتها حين تتهرّب من قول الحقيقة:

- قلتُ لكَ انتبه لدراستكَ، وإلا سأُقفل عليكَ باب البيت حين تعود من المدرسة.

كانت أحيانًا تنهرني عن زيارة خالي بوجود أمّي دون أن تتدخّل أو تقول شيئًا عن أخيها أو عن الموضوع برمّته،وحين أرجوها أن تخبرني كل ما تعرف عنه أو تكشف لي بعض أسراره تدّعي النوم.

لعلّ تهديد أختي "عائشة" هو ما جعلني أُلاحق فضولي، وأراقب خالي "منغستو" الذي لم يكن يخرج لعمله نهارًا. ويكتفي بمكالمات هاتفية، يستقبلها عادة من هاتفَيْن مختلفَيْن، أحدهما حديث الطراز، والآخر قديم. يجلس عادة أمام التلفاز رافعًا صوته عاليًا، وحين تشتكي أختي "عائشة" من الإزعاج، يخفّض الصوت قليلاً، كنتُ أرى انعكاس ما يشاهده من نافذته في أثناء الليل، ثمّ يستقبل رجالًا، لم أكن أراهم، لكن صخبهم يرتطم بجدارنا الملاصق: أغانٍ صاخبة، تعتليها أصواتهم، يرقصون، يصفّرون، يطلقون صيحات متحمّسة، تذوي في آخر الليل، تهمد كلّيًا، وحينها أعرف أنهم غادروا.

كانت مراقبته والتّلصّص عليه ليلاً متاحة لي أكثر من النهار، فقد اعتدتُ السهر في معظم الليالي، أستذكر دروسي، وأُنجز فروضي المدرسية بينما أمّي وأختي تكونان غارقَتَيْن في النوم.

أمّي ينتظرها مواعيد في الصباح في المستشفيات منذ تركتْ عملها في خدمة البيوت المتفرّقة، وصار المرض هو مبعث خروجها الوحيد من جحرنا، و"عائشة" التحقت بالعمل عوضًا عنها مشرفةً لحافلات الأطفال، حين كانت تفرغ من مهمّتها، تستأذن مديرة المدرسة في الخروج لبضع ساعات لمواعيد علاج أمّي في المستشفى، على أن تعود في نهاية الدوام إلى عملها، لترافق الأطفال إلى بيوتهم، كما يستدعي عملها.

لم تكن مراقبته في أثناء الليل تشكّل لي مشكلة؛ فمن حولي نيام. مرّة،

قرابة منتصف الليل، وددتُ أن أستنشق هواءً خارج الغرفة النائمة، وحين شرعتُ بفتح الباب، تفاجأتُ بخالي يمشي متثاقل الخُطى، يتعارك مع كلمات أُغنيّة أثيوبية لتيلاهون جيسيس، سبق وسمعتُها من أمّي. حين رأيتُ حالته تلك تنحّيتُ صوب النافذة التي أنام تحتها، وعلى ضوء القمر، رأيتُه يترنّح وهو مستند على كتف فتاة، كانت تحاول إسناد طوله، لم أتبينّ وجهها في الظلام، بدت ملابسها قصيرة تصل لأعلى الركبَتَينْ أو هذا ما خُيّل إليّ، حين جرّته الفتاة إلى الغرفة الملاصقة لغرفتنا، فقدتُ الرؤية. كم وددتُ أن أتسلّل خارج الغرفة على رؤوس أصابعي! لكن صوت أمّي جعلني أبقى حيث أنا تحت لحافي مسلّمًا نفسي لهواجس ليل مرتعش وأحلام متوعّكة.

"كان جَدّي عسكريًّا، ولم يرد لابنه أن يسلك طريق العسكرية، وأن يذوق ما ذاقه من ويلات في بلد كباكستان وصراعاتها التي لا تهدأ مع الهند .. مع أمريكا .. مع الإرهاب .. مع اللصوص والفساد ..." كلمات كبيرة أطلقها "عبد الصمد" على مسامعنا بمسؤولية وجدّيّة كبيرة، كلمات تداولها والداه، كما تداولها كل كبير وصغير في بلده، كلمات اعتادها كل باكستاني، كلمات لم نتوقّع أن يقولها "عبد الصمد" بتلك الجدّيّة كلها غير المألوفة حين كاشفناه عن سرّ يد أمّه المبتورة، ونحن في الحافلة في طريقنا إلى المنزل.

قبل أن يقدِّم جَدّ "عبد الصمد" لابنه المال الذي ادّخره حتّى يجنّبه طريق العنف في الحياة العسكريّة التي عاشها؛ قاده من يده المراهقة إلى محلّ للخياطة عند رجل طيّب، يثق به وبكفاءته لتعليم ابنه الصنعة، وبعد أعوام، انتقل من مجرّد أجير إلى صاحب دكّان؛ فقد اشترى والده بالمال المدّخر محلّ خياطة صغيرًا. كان المحلّ يحقّق أرباحًا في المناسبات، لا سيّما في موسم العيد الصغير كما يسمّونه، فالناس الميسورون ماديًّا يقومون بتفصيل ملابسهم وملابس أطفالهم في العيد الصغير، وهو عيد الفطر بعد صيام شهر رمضان، وتقلّ نسبة الزبائن في أثناء قدوم العيد الكبير وهو عيد الحجّ، دأب معظم الأهالي على إقناع أطفالهم بأنه عيد للحجّاج، ولا داعي لتفصيل ملابس جديدة، وملابس العيد الصغير تفي

بالغرض. وكانوا عوضًا عن تكاليف الثياب، يشترون بقرة أو خروفًا، ويفاخرون بذبحه أمام الباب، ليريقوا دم الأُضحيّة أمام دكّة البيت، يتبرّكون بها، ويقطعون لحمها، ويتصدّقون بها على الفقراء. البيوت كلها تحظى بنصيبها من لحم الأُضحيّة التي يعتنون بتفاصيلها جيّدًا حسب الأصول والعادات، من تزيين الأُضحيّة قبل العيد بشهر كامل استعدادًا ليوم ذبحها، إلى إعداد الوجبة الرئيسة لوجبة غداء أيّام العيد الأربعة، وهي وجبة يوم النحر.

يخبرنا "عبد الصمد" بفخر بأنه يعدّ نفسه في ظلّ والدَيْه طفلاً محظوظًا؛ فخزائنه فائضة بالثياب الجديدة في المناسبات كلها، على الرغم من اعتيادهم لظروفهم السياسية المتقلّبة التي تضطرّهم أحيانًا إلى إغلاق محلّهم لأسابيع نتيجة لمظاهرات أو لأعمال شغب، يقوم بها شباب ملثّمون مع شباب ملثّمين آخرين، وكل يرشق الآخر بألفاظه قبل أن يرشقه بحجر يشجّ رأسه.

انتشار العصابات في الأسواق وسلبها المحلات على مرأى من الناس كان أكثر ما يعكّر صفو معيشتهم، فأعمال الشغب صارت جزءًا من روتين، قد اعتادوا عليها، كما اعتادوا على مظاهر عديدة تغيّرت، وتغيّرت معها نفوس الناس وأمزجتهم أيضًا، لا سيّما بعدما حدث لـ "قرش" حتّى إن أهل كراتشي غدوا يرتّبون الأحداث السياسية حيث يقطنون بفترة ما قبل "قرش" وفترة ما بعد "قرش".

حدّثنا عن هذه المرحلة "عبد الصمد" بصوته الثخين: **كان محلّ والدي يجاور محلّ رجل يُدعى "قرش"، يُعرف بنكاته السمجة، يعرض في محلّه ملابس داخلية نسائية، وصوت مسجّله الكبير يدوّي في شارع السوق بأغانٍ راقصة، اعتاد عليه كل مَنْ في الشارع، حتّى إذا جاء أحد يسأل عن رفيق في السوق أو الحيّ نفسه، فإنهم يشيرون إلى المحلّ الذي يصدر**

منه أغانٍ صاخبة، ليستدلّوا على محلّ خياطة أبي أو أي من المحلات الأخرى المصطفّة على طول الشارع المزدحم والمزركش بالألوان.

عرفه الجميع بميله إلى الخفّة والسخرية، ولكنْ، منذ يوم عراكه مع شرطي حاول أن يمسك عنوة يد فتاة كانت مع أمّها في محلّه، يتفرّجان على ملابس داخلية معروضة للبيع، لكم الشرطي لكمة، أسقطتْه أرضًا وسط صخب السوق، على إثر ذلك حاصرت مجموعة من دوريات الشرطة محل "قرش" واضطروه للخروج رافع اليدين وهم يشهرون أسلحتهم في وجهه خوفا من أن يكون قد استعد لذلك بإحضار سلاح ما، كبّلوا يَدَيْه، واقتادوه بجلبة وسط ذهول السوق المزدحم إلى حيث لا يعلم أحد!

غاب لمدّة أسبوعَيْن، وحين عاد لم يعد "قرش" الذي كان يعرفه الجميع، طفق يحبس نفسه في عزلة بيته، ونادرًا ما يفتح محلّه، وتوقّف تمامًا صوت المسجّلة التي اعتاد عليها الجميع، والتي كانت تملأ السوق فرحًا بصوت أغانيها. وفي يوم ألصق على واجهة محلّه لوحة "للبيع". حمل متاعه، ورحل، دون أن يعلم أحد إلى أين؟

بعد مدّة أُشيع أنه التحق بصفوف "طالبان" وأن أوّل عملية قام بها هي قتل الشرطي الذي تعارك معه، بل بعضهم ذهب إلى أنه أحرق مركز الشرطة الذي اقتادوه إليه.

حين كان "عبد الصمد" ينقل لنا بعربيّته الركيكة أوضاع بلده، لم تكن تفاصيلها تُدهِشنا أنا و"قاسم"، فقد كانت أوضاعنا شبيهة، وإن غدت مسمّيات أوطاننا مختلفة. لغة الحرب والدم في كل مكان واحد، له طعم البشاعة نفسها، والوجع نفسه، وضحايا أبرياء يطاردون مناماتكَ، وأنتَ عاجز عن مَدّ يد العون لهم، وتكاد تكون جزءًا من الجريمة حين تغدو

صامتًا، كسيرًا، وجبانًا. كان مصيرنا واحدًا، وأعداؤنا متوحّدين .. طفق يسرد حكاية والدَيْه عن وضع أمّه، وحقيقة هروبهم من وطنه الذي يحبّه حبًّا جمًّا كحبّه لوالدَيْه.

خرجت أمّه يومًا لحضور حفلة زفاف إحدى صديقاتها في حيّ قريب من بيتهم، يقطعه شارع مزدحم، يعرض الباعة فيه بضاعتهم، وكان محلّ أبيه في الشارع نفسه، يقع قبله محلّ الشاي الكشميري في وسط السوق، يملكه أبو حافز كما ينطقه "عبد الصمد". "أبو حافظ" هاربٌ من كشمير ونزاعاتها السياسية، وحين جاء إلى كراتشي أعيتْه سُبُل الحياة كلها فيها، فالمدينة مزدحمة، يشغل معظم مواطنيها المتعلّمين الوظائف الحكومية، رأى أبو حافظ أن أنسب شيء يفعله هو أن يشتغل في التجارة، ولهذا سار على عادة معظم التّجّار الصغار والمبتدئين، يبسط أوانيه في شارع عامّ، لإعداد الشاي الذي ورث حرفيّة تحضيره على أصوله من أجداده، سرعان ما ازدهرت تجارته، وغدا حلم المقهى حقيقةً، من خلال تهافت أهل كراتشي على الشاي الذي يتفنّن في إعداده.

الشاي الكشميري يضبط المزاج، كما كان أبو "عبد الصمد" يردّد بحفاوة أمام رفاقه حين يلجُ المقهى الذي يجاور محلّه، علاقته بأبي حافظ قوية، وإذا ما تشاغل أحدهما عن محلّه، فإنه يطمئنّ بأن الآخر جار حبيب، سيهتمّ بكل زائر، ويحرس المحلّ، كما لو أنه صاحبه.

و"عبد الصمد" بدوره يحبّ ما يحبّه والده، بل اعتاد أن يحتسي يوميًا من الشاي الكشميري في مقهى أبو حافظ حين تسمح له أمّه بمغادرة البيت برفقة حافظ. في المقهى يقدّم حافظ بنفسه الشاي لـ "عبد الصمد"، ويطلب من أبيه أن يسجّله على حساب المقهى. ويتباهى أبو حافظ بأن ابنه كبر، وأصبح يستضيف رفاقه، ولا يبخل عن مضاعفة حبّات

اللوز إلى إبريق الشاي، فكلاهما "حافظ" و"عبد الصمد" يستمتعان باللوز الناعم المجروش قليلاً، إذ يضفي على الشاي لونًا قَرَنْفُلِيًّا محبّبًا، ثمّ يجريان بشقاوة، ليباشرا لعبهما مع بقية الرفاق في الزقاق، قرب محلات آبائهم، حتّى تكفل مراقبة الكبار لهم، فالمدينة ما عادت آمنة، كما في الأعوام الماضية. كان حافظ رفيق اللعب، كما أنه الرفيق الذي يتبادل معه الأسرار، أسرار ما يهمس به والدهما قبل النوم كل مساء، وهما مستلقيان على فراش واحد، وكلاهما يتسابقان في أيّهما يحمل معه أكبر قدر من الأسرار، ويكشفها للآخر بزهو، كما لو أنه محلّل سياسي خبير في شؤون البلد.

كانت أمّي تعرّج يوميًا إلى محلّ الخياطة حاملةً وجبة الغداء لأبي، وإذا وجدتْه غير مشغول، تجالسه قليلاً حتّى يُنهي غداءه بينما أكون في الدّكّان المجاور، أشتري سكاكر، وألتهمها دفعة واحدة، كما لو أن العالم سيفرغ من الحلوى.

وحين يتزاحم الزبائن في المحلّ، تبعثني لأنادي على أبي، فصوت المرأة عورة خاصّة أمام الناس وفي الشارع، ولا تبالي بإلحاحي وأنا أطلب منها أن تحمّلني الأوعية الساخنة الفائضة بالأطعمة، فأمّي تحرص على تنوّع الأطباق المحبّبة لوالدي مثل "بالك"، وهي السبانخ الخضراء التي تقوم بطبخها مع البطاطا مع خبز "نان تندوري"، في الطبق الذي يليه "سبزي"، وهي "البازلاء الخضراء"، ويحدث أن تضع معهما "دال" وهو "العدس" أو "دال ماش" مع خبز "شباتي"، وحين يكون العمل مكتظًّا، ويضطرّ أبي بعد صلاة الجمعة أن يبقى في محلّه لإنهاء عمل مستعجل، كما في مواسم المناسبات، فإن أمّي تعدّ له وجبة "أرز برياني بخاري" أو "كاري دجاج".

كان "عبد الصمد" ينطق اسم كل وجبة بلهجته، ويحاول تفسيرها لي باللغة العربية، وحين يجد صعوبة في ذلك يتطوّع " قاسم" بمهمّة التوضيح.

أتشبّث بثوبها الملتفّ على جسدها كستارة؛ كي تسمح لي بحمل أوعية الطعام إلى أبي في وسط المحلّ المزدحم بالزبائن؛ رجال مع أبنائهم يستعدّون لموسم العيد الصغير الذي سيكون بعد شهرَيْن. فالناس في كراتشي خصوصًا متوسّطو الدخل، يحرصون حين يقبضون المال على شراء المستلزمات الضرورية كملابس العيد، ليسقط عنهم عبء التفكير بما سيرتديه الصغار.

حين يكون المحلّ مكتظًّا بالرجال، تقف أمّي بمحاذاة الباب خارجًا، تتريّث، ليستلم أبي الغداء الساخن من يَدَيْها.

في ذلك اليوم، مرّت أمّي على المحلّ، لتستبقيني مع أبي بينما اتّجهتْ هي إلى بيت صديقتها لحضور الزفاف في الحيّ نفسه، فضّلت أن أبقى برفقة أبي، لألهو مع رفاقي بالقرب من محلّ الخياطة، ففي زحمة بيت العروس، يلهو الأطفال في الشارع وهي تخشى عليّ من السّيّارات، وعادة الصِّبية يتراكضون ولا ينتبهون، أمّا الفتيات، فيجدنَ في مناسبات الزفاف فرصة ثرية لمشاهدة العروس، والجلوس بمحاذاتها، وتأمُّل زينتها.

اعتاد "عبد الصمد" على مرافقتها في معظم المناسبات الاجتماعية في تلك الأعراس الصاخبة، يتفرّج النساء على بعضهن بعضًا، وهنّ يتمايلنَ راقصات وسط تصفيق حارّ بأكفهنّ المنقوشة بالحنّاء، وتُهَزّ الأكتافُ فرحًا مع العروس الخجلى، وهي ترتدي أبهى الحلل، وتتقلّد أثمن الحلي داخل خيمتها الحمراء المزركشة، تُوزّع حلوى اللّدُّو اللذيذة والحلويات الأخرى على الحضور، ويُنثَر المال مع الورود الملوّنة لحظة قدوم العريس، ليجلس بجانب عروسه، يلتقط الأطفال الأوراق النقدية المنثورة بشكل عشوائي؛ أمّا هدايا الزّوّار والضيوف للعريسَيْن، فتكون أوراقًا نقديةً مصنوعة على شكل أطواق، تُعلّق حول رقبتهما.

استمتعتْ أمّي بالعرس، وتغافلتْ أن تسدل على يَدَيْها القماش الحريري المزركش الذي يُلبَس في الأفراح؛ فالتمعت أساورها الذهبية في معصمها.

كان أبي رجلاً غيورًا، ولا يحبّ أن تُظهِر امرأته زينتها كبقية نساء كراتشي اللاتي يخرجنَ بثياب مزركشة، تُظهِر زينتهنّ أمام الرجال؛ لذلك فرض عليها أن تغطّي رأسها بنقاب طويل، يخفي ملامحها سوى العينَيْن، وينسدل ليغطّي إغراءات الجسد البارزة ...

برزت أساور أمّي من تحت خمارها الطويل، أساور عريضة من الذهب الخالص، ومحفورة بنقوش دقيق، احتفظت ببريقها، على الرغم من الزمن، فأمي لم تكن تُزيّن بها رسغها سوى في المناسبات العائلية الخاصّة، ونادرًا ما تخرج وهي مزيّنة بالذهب في شوارع كراتشي درءًا للفتنة.

ولكنْ، في المناسبات الاجتماعية حيث تجتمع النساء لعرض زينتهنّ والتباهي مدى حبّ أزواجهنّ لهنّ لا تستطيع أن تمنع نفسها من عرضها أمام النساء في الحفلات والمناسبات الاجتماعية، تتباهى كلّ امرأة بالذهب الذي قدّمه لها زوجها، وقدّر قيمتها من خلاله، فالذهب الثقيل دليل على محبّة الزوج العميقة لزوجته، كما تُظهِر بذلك حالتها ومكانتها المعيشية المريحة، في ظلّ زوج يكرمها.

يومها وهي تمضي في طريق العودة إلى البيت، لمحت أساورَها أربعةُ أعينٍ كانت مترصّدةً في السوق، كان بيتنا يقع في زقاق خلفه، زقاق ضيّق بالكاد يعبره شخصان، ولمّا عرجت نحو الزقاق المظلم المفضي إلى بيتها استمرّا يتبعانها بصمت، وحين اطمأنّا من خلو الزقاق حاصراها،

أحدهما كمّم صرختها بينما الآخر شدّ اليد التي تلتمع بها الأساور الذهبية، لكنّ الأساور كانت ضيّقة في يد أمّي ...

كانت تعاني حين تُخرجها من يدها، ولمّا اقترح عليها أبي أن يستبدلها، لم تستسغ الفكرة؛ فقد كانت عزيزة على قلبها، تُذكّرها بيوم زواجها، وحتّى تدعم موقفها في كل مرّة يقترح عليها أبي استبدالها، تقول له بأن نقوشها نادرة، ولم يكن يُزعجها قطّ إخراجها بالصابون بعد أن ازدادت يدها سمنة مع مرور الزمن.

كاد غطاء رأسها يقع وهي تقاومهما، وخوفًا من مساس جسدها بالرجلَين، سكنت حركتها، فما كان من اللّص الذي قبض على يدها سوى انتزاعها بطريقته؛ ثمّ فرّا هاربَين مع أساور ذهبية ملطّخة بالدم، بينما أمّي غاب وعيها على الأرض نازفةً من يدها المقطوعة!

الحجرة التي نقطنها باردة جدًّا في الشتاء بينما في الصيف تكون حارّة، وكأننا في فرن مشتعل. تتسلّل إلينا الحشرات والسحالي من فتحات الباب والنوافذ. تقضي أختي "عائشة" الليل بطوله وهي تحكّ جِلْدها، إذا لسعتها حشرة مندسّة في فراشها. الغريب أنني وأمّي لم نتأثّر يومًا من تلك الحشرات، يبدو أنها أنفت عن مصّ دمي وبدا أنها تفضّل دم أختي "عائشة"، لأن لون جِلْدها أفتح من لوني ولون أمّي؛ فسحنتها أشبه بسحنة أبي الصومالي، وحين تلفّ رأسها بقطعة قماش أسود "الشيلة" وجسدها بالعباية تبدو كواحدة من نساء هذا البلد.

حين كانت أمّي تغادر إلى عملها، كنتُ أزجي الوقت في نفض الأغطية والفُرُش، ثمّ أنشرها تحت الشمس، فحرارتها تقضي على العثّ وبيوض الحشرات؛ بهذه الطريقة، كنتُ أقاومها، لقد كانت تُزعج أختي "عائشة" كثيرًا. ولولا "عائشة" وعملها مشرفة في إحدى حافلات المدارس الحكومية لهلكنا هنا. ولولا تلك الحادثة: التي أحدثت ضجّة ورعبًا بين أهالي الحي والأحياء المجاورة عن طفلة في حافلة مدرسية، اعتدى عليها سائق حافلة، لم أفهم معنى كلمة اعتدى، فكل ما فكّرتُ فيه أن الرجل اعتدى عليها توبيخًا وضربًا ربّما، لكن معنى الاعتداء كان أكبر في عقول الكبار، وأخطر من المفهوم الذي قلّبتُه في عقلي وقتئذ. السائق الذي تعرّض لها أنذرها بأنه سيقطع لسانها إن حكت لأهلها تفاصيل ما عمل بها! كانت الطفلة

هي آخر راكبة تصل إلى بيتها الذي يقع في منطقة نائية، كما كُتب في تحقيق الخبر الذي قرأتْه علينا أختي من الصحيفة.

وفي مساء اليوم نفسه عندما لملمت الخادمة الملابس المتّسخة من غرفة الطفلة لغسلها، هالتْها نقاط داكنة تلطّخ لباسها الداخلي، وفي تراكض لاهث لوّحت الخادمة بالقطع المبقّعة بالدم. انهارت الطفلة التي كانت في السادسة من عمرها، واعترفت بكل شيء لأمّها وهي ترتعش من الهلع. أوجعت الحادثة أختي "عائشة"، وظلّتْ لأيّام تُتابع حيثيات الحدث من الصحف الملقاة للعمّال الذين يقطنون الحيّ نفسه، لأنهم كانوا يستخدمونها لأغراض شتّى كفرشها على الأرض، ليتناولوا وجباتهم عليها أو لصقها على زجاج نوافذهم اتّقاءً للشمس وحجب الرؤية عنها أو حشرها في فجوات الجدران المثقوبة لصَدّ دخول الحشرات السّامّة أو لمنع خروج هواء المكيّف العتيق في أوقات تشغيله حين يكون الطقس حارقًا، بينما الذين يعملون سوّاقين لسيّارات خاصّة كانوا يستخدمون أوراق الصحف لدَعْك السّيّارات وتلميع إطاراتها، ليحصلوا من أصحابها على بعض الدراهم. هذه النماذج كلها كانت حاضرة في الحيّ السَّكَني الذي أقطنه؛ لكن أختي "عائشة" كانت تسبقهم في الحصول عليها لقراءتها، لتعرف أخبار البلد وآخر مجريات الحرب المدمّرة وضحايا المجاعة التي جعلتنا مَنفيّيْن وهاربين من جحيم أوطاننا، وحين تنتهي من تقليبها، تُعيدها محتفظةً بصفحات الإعلانات، لنستخدمها كسفرة للطعام. الحادثة التي وقعت للطفلة من سائق الحافلة، سبّبت فزعًا هائلًا للأهالي في هذا البلد الذي لم يشهد حادثة شبيهة من قبل، يومها سمعتُ أختي "عائشة" تقول لأمّي بحسرة مبطّنة بعد أن نقلت لها الخبر:

- وقعت وتقع مثل هذه الحوادث في "مقديشو" و"أوغادين" ومخيّمات "بوصاصو". في كل بقعة من أرض بلدي في الصومال مئات من الصغيرات

والفتيات والنساء يتعرّضنَ لاغتصاب يومي، على مرأى العالم، ولا أحد يبالي بهنّ!

حين سمعتْ أمّي ذلك، تقلّبت في منامتها على الجانب الآخر دون أن تقول شيئًا مكتفية بتنهيدة طويلة، خرجتْ منها، وبعد عدّة أسابيع حين انتهت الصحف من تناول مجريات حادثة الطفلة، فاجأ أختي "عائشة" إعلان عريض، يتصدّر الصفحات الأولى من الصحيفة الرسمية عن توظيف عاملات من جنسيات عربية أو غير عربية، يُجدنَ اللغة العربية، ليعملنَ مشرفات، يعتنينَ بالأطفال في الحافلات؛ يرافقنَ الصغار من المدرسة وإليها، وتكون مشرفة الحافلات هي أوّل مَنْ تصعد الحافلة، وتبقى فيها إلى أن تتأكّد من وصول الأطفال جميعهم إلى بيوتهم. هذه الوظيفة كانت نعمة عظيمة لأختي "عائشة" وغيرها من النساء الوافدات هنا، فأهالي المنطقة والمناطق المجاورة رفضوا صعود بناتهم إلى الحافلات مع السائق وحدهنّ بلا رقابة خوفًا من فكرة تعرّضهنّ لحالات اعتداء مماثلة.

كنتُ أوقن دائمًا بأن أختي "عائشة" رأت أكثر ممّا رأيتُه، فقد عاشت مدّة من الزمن في مخيّم "بوصاصو"، وخبرتْ طبيعة الحياة القاسية والمتقلّبة، واختلطت بأجناس متباينة، لعلّ هذا ما جعلها تتعامل معي بصرامة، وتحرص على تعليمي كلّ شيء، في الوقت نفسه، حفّظتْني بقدر ما أمكنها آيات من القرآن الكريم قبل أن ألتحق بالمدرسة كما علّمتْني الكتابة بحروف صحيحة، كي أكون تلميذًا نجيبًا.كانت تحرص على تعليمي، ولا تسمح لي قطّ بتغيّبي عن المدرسة، ولو ليومٍ واحد، بل إن أوّل خطّة كانت برأسها حين عزمتْ أمّي على الرحيل هي أن تعمل كي تُلحقني بالمدرسة، فالمدارس هنا ليست مجّانية لأمثالنا، وحين علمتْ بأن هناك مدارس خيرية، رفرف قلبها من الفرح، ربّما كانت تراني طوق النجاة أو سندًا صلبًا

لمستقبل غير واضح المعالم مع امرأتَيْن كسيرتَيْن، تعرّضتا لصنوف الذّلّ والعوز. في مخيّم "بوصاصو" كانت شخصية أختي "عائشة" مؤثّرة؛ صلاتها الاجتماعية بمعظم نساء المخيّم وفتياته كانت وطيدة، على العكس من أمّي التي عرفت بأنها منطوية على ذاتها، ولم تكن تتواصل مع الآخرين سوى في أثناء العمل، كانت هي مَنْ تقف في طابور، ترقّب حصّتنا من الأغذية التي تُوزّعها بعض المنظّمات الخيرية. لم تُكلّفها أمّي بأي عمل، وهي ابنة الثانية عشر غير أنها كانت تسعى في الأوقات كلها، لتوفّر لنا الطعام، لعلّ صلاتها الاجتماعية الطّيّبة مع مَنْ حولها، كان يسهّل عليها مهمّتها.حين تأتي قوافل المساعدات، تهرع بطاقتها كلها، وتتدافع في الحشد، لتستلم نصيبنا، وجودها خارج البيت بدا أمرًا طبيعيًا لأمّي التي تعمل مذ الفجر تبيع الحليب في سوق "بوصاصو"، وأحيانًا تُضطرّ إلى ملازمة المخيّم وبيع حليبها للجارات، فأوجاع كليتها كانت تُقعدها كثيرا عن القيام بأشغال أخرى كناقلة قمامة مع معظم نسوة المخيّم، أصبح نقل القمامة منظرًا يوميًّا، نصحو وننام عليه نحن الصغار حتّى إن بعض الصِّبية ما انفكّوا يتفاخرون بأن أمّهاتهم جامعات للقمامة. قمامة الأثرياء التي يجدون فيها ما لذّ وطاب من سكاكر نصف مأكولة أو مسجّل قديم يصلح للبيع أو كرة مثقوبة، يركلها صغار المخيّم في لهوهم. وفي أكثر الأحيان، يحصلون على علب مياه بلاستيكية قابلة للاستخدام مرّة أخرى كتعبئتها بماء شرب أو قطع الجزء العلوي منها، واتّخاذ قعره قصعة طعام لمَنْ لا يملكون ما يغترفون به طعامهم المتبرّع لهم أو المتاح عادة أمام بيوت الأثرياء الذين يضعون ما يفيض عن حاجتهم أمام بوّاباتهم الكبيرة لعابري سبيل، أخبرني صديقي "أدُّو"، وكانت أمّه ناقلة للقمامة في المخيّم أن القمامة هي بقالة الفقراء، يمدّهم بكل ما يكفي حاجتهم، كان ذلك قبل أن تفرغ تمامًا في مواسم القحط والمجاعة، وتستحيل هذه القمامات نفسها وبالًا علينا!

كنتُ أفرح وأُفاخر بما تُحضره أختي "عائشة" لي من لُعب مكسورة، مرّة أحضرت لي شيئا مخطّطًا بمربّعات مكشوطة، بهتت ألوانه من الشمس والمطر، وأخبرتْني أن اسمه "شطرنج" لعبة يُغرم بها الملوك. بدا الوحل ملتصقًا بقعرها وحوافّها مقشّرة، ولم يكن معها سوى ملك تعس مكسور التاج، يومها خطرت ببالي فكرة، فلملمتُ حجارة صغيرة الحجم، وقمتُ بتلطيخها بالطين، وحجارة الفريق الآخر تركتُها نظيفة، لم أعرف كيف عرفتْ أختي "عائشة" أسرار هذه اللعبة الصعبة وقواعدها وهي تعلّمني؛ فأيقنتُ أنها تعرف كلّ شيء.

ليت "أدُّو" وغيره من رفاقي في مخيّم "بوصاصو" يرون ما أجنيه في هذا البلد من حاويات القمامة ... لا . لا . هنا لا تحوي الحاويات في جوفها القمامة التي اعتدنا عليها نحن الفقراء، لأن قماماتهم إن وُجدت يضعونها احترامًا للذوق العامّ في أكياس سوداء من الحجم الكبير، يوثقونها بإحكام حتّى لا تُلوّث الهواء في الحيّ بروائح عفنة، ترميها خادماتهم في قاع الحاوية حفاظًا على مظهر البيئة في الأحياء الفاخرة، أمّا في جوف الحاوية أو بالقرب منها، تجد أحيانًا وجبات أطعمة كاملة، لم تُمَسّ، عبوات مياه ومشروبات، معلّبات منتهية الصلاحيّة، لكنها غير فاسدة، ألعاب بحالة جيّدة، وبأحجام متعدّدة، تبدو نظيفة، وكأنها غير مستعملة، ملابس وأحذية، خزائن للثياب، ملاعق، أطباق، سجّاد للأرضيات وأجهزة إلكترونية متنوّعة بعض أزرارها مقلوعة، أقلام وكُتُب مدرسية مشخبطة، كُتُب ومجلات في مجالات أعجز عن معرفتها، تصبح جميع هذه الأشياء بعد أن يتخلص منها أصحابها قوتًا للأبقار والأغنام والقطط والفئران والنمال، فكل حيوان يعرف ما يريده بالضبط، ولا يطمع بحصّة غيره كالبشر؛ فالأبقار تهجم على الأكياس التي تفوح منها بقايا الأرز واللحم والدجاج، بينما القطط تقفز على مخلّفات السمك وعظامها، وتكتفي الأغنام عادة بالتهام أوراق الصحف والمجلات،

أمّا الفئران، فتقرض الأدوات الصلبة كأسلاك هاتف عتيق أو حذاء بهت لونه قليلاً أو جلد ساعة يد، نفدت بطّاريّتها أو تفّاحة قُضم جزء منها أو رجل طاولة نصف مكسورة، أو دمية بترت بعض أطرافها، أمّا النمال، فكانت، في الأحوال كلها، تجد ما يفيض لمخزونها الشتوي حتّى إنها تنأى عن القمامات، وتقتحم بشجاعة مخازن الأطعمة في البيوت والمطابخ الفخمة دون أن تبالي بغضب أصحابها، ومقاومتهم لها بشتّى الوسائل، ولكنْ، بعد أعوام، اختفت هذه المشاهد حين أصدر قانون يمنع تسيّب الحيوانات في الأحياء؛ لأن معظم الأغنام كانت تلتهم الأشجار والزهور أمام واجهات المنازل الفخمة، أمّا الأبقار، فلأنها تُشوّه مظهر الأحياء الراقية حين تضع قذارتها في الطُّرُقات والشوارع، فتوسّخ الأحذية اللامعة وعجلات السّيّارات الحديثة، كما أنها تفوح بروائح كريهة، وتنقل الأمراض. لاحظتُ مع مرور الوقت أن أثرياء البلد هنا يتعمّدون ترك ما لا يحتاجونه بالقرب من حاويات القمامة، ليحصل عليها المعوزون أمثالنا. ليتكَ، يا صديقي، "أدُّو" تحظى بالذي أحظى به، ترى كم بإمكانكَ أن تعيش هنا في هذا البلد الذي أحيا فيه حياة كاملة من قمامات الأغنياء. أجل .. ربّما في المخيّمات يجد الأطفال الحرّيّة التي لا تُتاح لطفل مرفّه، يعيش في بيت ثابت، الحرّيّة التي لا يمكن أن يشعر بها طفل تحميه جدران صلبة، تضم مخاوفه، وتتصدّى لأصوات الطبيعة في لحظات هياجها وجنونها، وتقلّص من أحاسيسه لمعايشة ما يطرأ على الكون من متغيّرات هائلة، لا يفهم الطبيعة، ولا تفهمه الطبيعة، وتظلّ العلاقة بينهما مبهَمَة وعدائية، محاطة بالذعر واللعن! لا يمكن أن يشعر بالطبيعة وتأثيراتها من حوله، كما يشعر بها ويخوضها الطفل اللاجئ الذي يتصالح مع الطبيعة، ويفهم أمزجتها مضطرًا، كي يأمن شرّها، لتغدو العلاقة بينهما مع الزمن متصالحة، من رعشة البرد وأنتَ في القطعة البالية التي تحتمي بها، فإذا هي تحتمي بكَ،

أو المطر الذي يقطر من شقوق السقف، لتتفاجأ أنكَ تعيش في طوّافة مثقوبة والمياه تكاد تبتلعكَ، وتبعثر كل غرض من مكانه، أو حين تحترق بالشمس، تشعر بأن جلدكَ يذوي، وتفوح من مساماته رائحة عفونة، مع توالي الأيّام والشهور والأعوام تصير أشبه بكائن آلي، روبوت تعوّد على طقوس الطبيعة وعلى طقوس العفن والذوبان والتّجمّد والتّخشّب والعيش تحت سقف مثقوب وجدران متشقّقة، يحقّ للريح وحدها أن تحجب عُرينا أو تفضحه تبعًا لهواها، وحين تغضب، تقتلعنا من جذورنا، تعرضنا عُراة في عرض مجّاني، يشارك فيه - شاء أم أبى - كل مَنْ يحمل لقب لاجئ، تلك الحرّيّة التي ندفع ضريبتها غاليًا ذكورًا كنّا أم إناثًا! كانت مشاهدة عورات بعضنا أمرًا مألوفًا، لم نكن نأبه به نحن الصغار، ولكنْ، انقلب كياني حين رأيتُ ما رأيتُ وأنا في الخامسة. لم أكن أنأى عن أرض المخيّم، ألهو مع صغار في مثل قامتي أو أطول قليلاً. أنضمّ إليهم في جمع كل ما يمكن أن يُشترى، نبيع كل ما نجمعه، ثمّ نقبض ثمنه، ويذهب أطولنا قامة إلى سوق "بوصاصو"، ليحضر لنا السكاكر الرخيصة، تذوُّقها حلم باذخ. في يوم، وبينما كنّا ننتظر بلهفة السكاكر الحامضة لنلحسها، فتلسع ألسنتنا، اقترح أحد الرفاق أن نلعب لعبة الغميضة التي نلعبها عادة حين تسقط الأمطار رغم أنه لم يكن هناك مطر، في ذلك اليوم، قطعتُ مسافة أطول للاختباء، وصادفتُ على بُعد أمتار بناء خشبيًّا متداعيًا، واختبأتُ خلفه عن أنظار الصديق الذي بلعت المسافات صوته وهو يعدّ، ليبدأ في البحث عنّا، واكتشاف مكان اختبائنا. كان المكان متواريًا وهادئًا، على الرغم من أن الوقت ضُحى. استطعتُ بفضل نحافتي أن أعصر جسدي الضئيل، وأدسّه بين برميلَيْن بلاستيكيَّيْن كبيرَيْن، كان أحدهما ثقيلاً، وتوقّعتُ أن به ماء، حفظه أحدهم لدواعي الاغتسال والطبخ، فالبئر بعيدة عن المخيّم، ويشكّل الذهاب والإياب يوميًّا مشقّة للأمّهات اللواتي يقمنَ بكل شيء.

في أثناء اختبائي، تناهى إليّ همهمات، لم أميّز في البدء مصدر الأصوات ومسافة انبعاثها. تلفَّتُّ حولي من مكاني، فلم أجد أحدًا، لكن الصوت كان كوشوشة، كنتُ جاثيًا على ركبَتَي وجسدي محجوب بالبرميلَين، أما ظهري، فمستند إلى البناء الخشبي المتداعي، وحين أصختُ السمع، انتبهتُ أنها تأتي من خلف رأسي، حيث أنا مسند ظهري. من البناء الخشبي، أدرتُ جسدي كله بصعوبة، بسبب ضيق المسافة، رأيتُ عدّة ثقوب، ثقوب صغيرة تكشف المحجوب. في البدء، كانت رؤيتي مُظلّلة، ربّما بسبب الشمس الساطعة، وقرصها مسلّط عليّ، أطبقتُ على جفنَيّ، وفتحتُهما، أطبقتُ وفتحتُ، أطبقتُ وفتحتُ حتّى يتلاشى الضوء المنسكب على عينَي، كما نفعل عادة حين تتقاطع أعيننا في مكانَين متعاكسَين ما بين سطوع وظلام، فتتخلّل الرؤية ظلال سوداء أو هكذا نخالها. حين فتحتُ جفنَي، ونظرتُ عبر الثقب الأوّل لم تكن الصورة واضحة، ثمّ استقرّت عيني على الثقب الثاني، ورأيتُ رأسًا بشَعْر فاحم، يتحرّك حينًا لأعلى، وحينًا لأسفل، فكّرتُ أن أوسّع الرؤية، فانتقلتُ إلى الثقب الثالث، وكان عليّ أن أدفع قليلًا البرميل الذي وجدتُه على يساري، ومن حسن حظّي كان فارغًا، دفعتُه بهدوء، كي لا يُصدر صوتًا، واستقرّت عيني على الثقب الثالث، فهالني ما وقعت عيني عليه عبر هذا الثقب الفاضح، أبعدتُ عيني عن الثقب، وكأنني بذلك أتحاشى ما رأيتُه، وطفق قلبي ينبض بعنف، وكأني نجوتُ من رصاصة طائشة. جسدان ملتحمان. رجل وامرأة كما ميّزتُ منذ الوهلة الأولى، بدت المرأة مستسلمة في الأسفل بكامل سكونها، كما لو أنها دمية بينما الرجل مُنكبٌّ فوقها يزعق، كما لو أنه أُصيب بشظية. كانا بلا ملابس!

كتمتُ شهقتي، وصرتُ أستعيد صور الأجساد العارية كلها في ذاكرتي، العري نفسه كنتُ أراه، في كثير من الأحيان، منفردًا، حين كانت أمّي

تستحمّ أو أختي "عائشة" تخلع ملابسها أمامي بلا حرج، بل رؤيتها بهذا الوضع وفي المخيّم غدت مألوفة مع الأيّام، نساء بأثدائهنّ البارزة من خلف لباس، يشفّ عن عورتهنّ أو مشقوق عمدًا لإرضاع فم جائع، الصِّبية الذين كنتُ أعرفهم وأعرف أمّهاتهم، حتّى عري الرجل كان طقسًا عاديًا، فكثيرًا ما كنّا نحن الصغار نستحمّ كما خُلقنا في حمّام تحت الشمس وأمّهاتنا يدعكنَ جلودنا كلّ أسبوع حين يكون الماء متوفّرًا، كما كنّا نتفرّج على رجال وهم يفركون أجسادهم، والجزء الأسفل منهم مرتخٍ، يقومون بتنظيفه أمامنا نحن الصغار، والوقحون منهم يفاخرون بعرضه ويستعرضون طوله في نكات وقحة، لم نكن نعيها، ويتمادون في وقاحتهم، إذا ما عرفوا أن ثمّة نسوة وفتيات يتلصّصنَ عليهم غير أنها المرّة الأولى التي أرى فيها عريًّا ملتصقًا بهذه الهيئة، حيث الجلد لصيق الجلد. عري رجل وامرأة .. وليس أي امرأة، فحين انتهى الرجل لفت اهتمامي وجهه الذي كان أفريقيًّا، لا أدري أين قابلتُ هذا الوجه، متى حدث ذلك؟ لا أتذكّر، لكنه مألوف؟ حين فرغ ممّا كان فيه، هبّ واقفًا، ولملم ثيابه المَرمية على الأرض، ليرتديها بينما حشرت الفتاة نفسها في ركن قَصيّ من البناء الخشبي المتداعي، وكانت نائية عن مرأى الثقوب التي أحدّق منها، همهم الرجل بشيء ما قبل أن يغادرها مسرعًا، حين استقام جسدها النحيل في مرأى الثقوب، كان وجهها محجوبًا عن الشمس، تقف في مواجهتي، أراها عبر الثقب، ولا تراني، الوجه الذي نجا من تسلّط أشعّة الشمس لن ينجوَ من ذاكرتي مطلقًا، وجه أختي "عائشة" ...

وجدتُ نفسي أتبع المرأة كظلّها حتّى ولجتِ المحلّ. صدر صوت أجراس صغيرة بمجرّد أن دفعت الباب بيدها. يعلّق الباعةُ الأجراسَ في أعلى الباب، لينتبهوا للداخلين والخارجين. انتحيتُ جانبًا في زاوية قريبة حتّى لا أُثير الأعين، وقفتُ أترقّب لحظة خروجها بتوتّر، أخذتُ أركل حجارة الطريق بقَدَمي، بينما صوّبتُ انتباهي إلى داخل المحلّ الذي يكشف زجاجه ما يحدث فيه، كانت تجادل البائع بحركة يَدَيْها وهي تشير إلى عباءات معلّقة. لم يطلْ بقاؤها، خرجتُ من المحلّ بيَدَيْن فارغَتَيْن، على الرغم أنها كانت تحمل في يدها كيسًا حين دخلتْ، لكن الأمر لم يعننِي في شيء، عليّ أن أدنو منها، أن أقف أمامها، أن أُريها دموعي، كانت الدموع كفيلة بعمل كل شيء "حين تجد نفسكَ أمام امرأة، تأكّد أنكَ لن تكون مضطرًا لقول أو عمل أي شيء، دمعتكَ كفيلة بإقناعها..." هكذا لقّنوني حين كانوا يقومون بتدريبي على المهمّة.

أجل، النساء كلّهنّ – بلا شكّ – كأمّي التي تثمّن كل دمعة تسقط من حدقَتَي، النساء متماثلات في أحاسيس الأمومة، لم تتفاجأ حين رأتْني أدنو صوبها، بل بدا كردّ فعل طبيعي، وكأنها كانت تترقّب هذه اللحظة منذ سنوات، لهفة صوتها الدافئ هكذا أشعرتْني وكفّها الناعمة حين قادتْني من يدي بحنان، كما لو أنها أمّي، "أنا ضايع ..."، جلستُ بجوارها في السّيّارة، ودموعي تنساب، لم أكن أدّعي، ولم أصطنع، كنتُ

أبكي من قلبي كله، وكانت دموعي لأمّي التي تركتُها وهي تتمزّق من الألم، تركتُها وأنا أعاهدها بقلبي على تخليصها من آلامها قريبًا. لم تُكتَب لمحاولاتي الأولى النجاح الذي كنتُ آمله، وكان عليّ أن أخوض الطريق عينه، لأخلّصها من عذاباتي، وأتخلّص، لا أحد يمكن أن يشعر بالذي أمرّ به، لا أحد يمكن أن يفهم، إنني وحيد تمامًا، وحيد كلّيًّا، وعليّ أن أخوض هذا الغمار وحدي، إنني مضطرّ لذلك، ولا أبرّر اضطراري، ولن أبرّره لأحد، ولا حتّى لنفسي. ربمّا لهذا السبب وقع اختياري على امرأة، هل سأُفلح هذه المرّة في إنقاذها؟ بكل إرباك اللحظة ورعبها ثقب السؤال جوفي.

ها أنا أمام امرأة تبدو بسوادها كأنها مختبئة في خيمة متنقّلة، عباءة سوداء فضفاضة، لا يبين معالم جسدها المحجوب، وجهها مخفي خلف نقاب لا يظهر سوى عينيها الضئيلَتَيْن وكأنهما ثقبان، لم تكن فارعة الطول غير أنها كانت تنتعل حذاء ذا كعب عالٍ لونه ترابي لمحتُه كلّما رفعتْ إحدى يَدَيْها المطويَّتَيْن في قفّازَيْن أسودَيْن، لتُعدّل من وضعية العباءة التي عاندتها لفحة ريح حارّة مرّت بلا موعد في هذا الجوّ الخانق، قادت السّيّارة، وحين انحرفت بمحاذاة الرصيف، كاد قلبي يسقط من الخوف غير أنها لم تنزل، بل زمّرت على بوق السّيّارة، وما هي سوى لحظات حتّى نبت أمامها رجل بنغالي، تفوح منه روائح زيوت القلي، قالت له دون أن تسأله:

- محمّد جيب واحد عصير موز مع برغر خصوصي.

ما هي سوى دقائق كان فيها البنغالي أمامها مع الوجبة السريعة. حاسبتْهُ، وقبل أن تقود السّيّارة، نظرتْ ناحيتي وهي تُبادرني بصوتها الأمومي:

- أكيد بتكون يوعان، يا حلو، اليِهّال ما يعرفون متى يجوعون ومتى لازم ياكلون .. خذ هالوجبة، طلبتها لك خصوصي، كِلْها، يا بطل .

حين غمرتني بحنانها الدافق، هطلت دموعي من تلقاء نفسها، نعم. بكيتُ دموعًا حقيقية. هذا اللطف، هذه الأمومة الفائضة تكاد تثنيني عن مهمّتي .. لماذا يكون الناس في هذا البلد لطفاء على هذا النحو مع الغرباء؟ لماذا يغمرونهم بالمحبّة والاهتمام دون أن يكون بينهم وثاق معرفة أو حتّى قرابة أو منفعة؟! لا، لا، عليّ أن أخرج من دوّامة هذه الأسئلة التي كالسكاكين تمزّقني وتُدميني! هذه الأسئلة لا تستقيم مع العالم الذي أخوض فيه الآن! إن هذا أكبر من فَهْمي للأمور، أمور هذا العالم الغريب الذي لا أفهمه، ولن أفلح قطعًا في فَهْمه. ربّتت على كتفي، وضعت علبة المناديل بالقرب منّي، وهي تُطبطب على حزني بوداعة:

- لا تصيح، يا حبيبي، لا تخاف، يا صغيرون .. راح أوصلك لحدّ باب بيتكم وعد منّي، وإذا ضيّعته، راح أسلّمك للشرطة، للأيدي الأمينة مثل ما يقولون عشان يسلّمونك لأهلك.

حين فرقعت لفظة الشرطة في داخل السّيّارة، ارتجفت أوصالي، وصارت أسناني تصطكّ كجسد عارٍ في عاصفة ثلجية، وكدتُ أن أفتح باب السّيّارة، وأثب منها، لكن الشارع المزدحم أثناني عن مخاطرة، يمكن أن تُودي بحياتنا معًا! نحّيتُ الفكرة الطائشة جانبًا، وبذعر ازدردتُ ريقي، وضعتُ الوجبة على ركبتَيّ النحيفتَيْن المنقبضتَيْن دون أن أبلع قطعة منها، بالرغم من جوعي، ودار جلّ تفكيري حول تخليص نفسي منها ومن تأثير كلماتها السِّحْرِيّة، ووسواس يطوّحني في محيط شكوكي بين البقاء والفرار، بين أن أنجز مهمّتي أو أتراجع عنها .. لا بدّ وأنها تعرف

أحدًا من الشرطة، وربّما زوجها شرطي أو والدها أو أخوها .. سأكون في ورطة حينها، ستكون مصيبة سوف يطاردونني .. وذاك البنغالي الذي نادته محمّد، والذي رأى وجهي جيّدًا، سيتعرّف عليّ بسهولة، ولن يكلّفه ذلك سوى دقائق، لا بدّ وأنها تعرفه، وسيشهد ضدّي حين يسألونه عنها، وحينها سأُزجّ بلا رحمة في سجن مظلم، وربّما ....!

تكالبت عليّ ظلال أفكار سوداء، وصارت تتمدّد في كياني الهشّ، فلربّما أنا موعود بما هو أسوأ، ربّما ينفونني إلى حيث لا أعرف أحدًا، وتموت أمّي كمدًا عليّ، صرتُ ألهث بذعر خلف ما تطرحه هواجسي. فجأة قاطعتْني بسؤالها، وكأنها سكبت على وجهي ماء باردًا:

- شو اسمك، يا حلو؟

انتشلني صوتها من وجيب خوفي .. بلا تفكير، أجبتُها:

- كريم .. كريم محمود .. من مصر ...

طفقت تردّد اسمي كموسيقا:

- كريم محمود .. كريم محمود .. كريم محمود .. ثمّ عقّبت وهي ضاحكة:

-خلاص ما راح أنساه ..

إنني في خطر محقّق مع هذه المرأة، تبدو وكأنها تعرفني منذ أعوام .. والغريب أنها اكتفت بسؤالي عن اسمي بينما ظلّت تتحدّث عن أمور لا تهمّني، ثمّ فجأة انتحبت باكية، وهي تحكي لي عن ابنها الذي مات. ابنها الذي لو لم تدهسه سيّارة، لكان اليوم إلى جانبها في المقعد الأمامي، حيث أجلس أنا الآن، توصله إلى المدرسة، تشتري له برغرًا خصوصيّاً

مع عصير الموز، كما اعتادت قبل رحيله. ظلّت تستدعي ذكرياتها كلها معه دفعة واحدة. بينما عقدتُ عزمي على تركها قبل أن تُورطّني بتصرّف مجنون، مَنْ يدري؟ ربّما تقوم بخطفي أو تسلّمني لأقرب مركز للشرطة، حينها ستكون نهايتي في هذا البلد. عليّ أن أخلّص نفسي منها، من سيّارتها، من أحاديثها، من لطفها المريب ونحيبها.

عندما وقفت السّيّارة عند الإشارة الضوئية الحمراء، بادرتُها قائلاً:

- هنا .. راح أنزل هنا .. تذكّرتُ الشارع وبيتي يكون في الخلف .

حاولتُ ثَنيي عن مغادرة سيّارتها، وأصرّت على توصيلي حتّى باب البيت، لكني فتحتُ باب السّيّارة، وَثَبْتُ منها كقطّة قبل أن أسمع بقيّة كلماتها، كان توقيتي مثاليًّا، كما أسعفتني الإشارة الحمراء، كم شكرتُها في صميم قلبي!جريتُ كأن الشارع سوف ينشقّ، لو لم أفرّ بأقصى سرعة تاركًا وجبتي في سيّارتها.

أصبح التّلصّص على خالي "منغستو" إحدى متعي السّرّيّة، ففي كل ليلة أسترق النظر عبر النافذة بينما أمّي وأختي "عائشة" نائمتان بعد نهار شاقّ. ظلّ خالي معظم لياليه على حاله، يأتي مترنّحًا، ويهذي بكلمات أثيوبية مختلطة بعربية، أحيانًا يكون وحده، وأحيانًا يصحبه رجل أو رجلان أو امرأة، كان من الصعب تبيُّن ملامحهم عبر الزقاق المظلم. كم مرّة طلبت أختي "عائشة" من خالي أن يُوصِل سلكًا كهربائيًا لتثبيت ضوء فلوريسنت في أعلى الباب خارجًا حتّى لا أتعثّر في الظلام كلّما عدتُ من المدرسة؛ ولكنه نهرها، فالضوء سيُكلّفنا، ثمّ أشار بإصبعه إلى البيوت المتراصّة المعتمة كلها من حولنا بأنها لا تُشعل إلا الأنوار الضرورية توفيرًا للكهرباء؛ فتكاليفها باهظة علينا!

ناحيتنا بأكملها كانت تقبع في ظلام دامس، وكأننا غاطسون في قاع مغارة، كان آخر ما يفكّر فيه العمّال البنغاليون والباكستانيون هو الإنارة، اعتادوا الظلام، واعتادهم، بل إنه كان يُخفي ما كانوا يمارسونه، وما كانوا يحاولون إخفاءه، كان معظمهم يخفي هويّته، لأنهم مخالفون لقانون الإقامة. أمّا الملتحقون بوظائف حكومية أو خاصّة كسائقي حافلات وسيّارات الأجرة والشاحنات والحرّاس وغيرهم فإقاماتهم قانونية، لكنْ، لغلاء المعيشة يفترشون الطُّرُقات، ويلتمّون حول نار، يُشعلونها في فصول البرد، لتُدفئ عظامهم عوضًا عن المدفأة التي يكون ثمنها باهظًا، واقتناؤها نوعًا من

الترف، في مكان شتاؤه بالكاد شهران أو ثلاثة أشهر على أكثر تقدير، وفوق هذا تكلّف كثيرًا من الكهرباء. أكثرهم يقضي فصول الصيف في بلدانهم مع عائلاتهم وأطفالهم هربًا من الحرارة والرطوبة، أمّا الذين لا حيلة لهم على السفر، فإنهم يُزجون وقت فراغهم في المجمّعات التجارية المزوّدة بأجهزة تكييف، ولا يعودون إلى بيوتهم سوى في آخر النهار، وفي الليل، تتراصّ أجسادهم في غرفة واحدة مكتفين بجهاز تكييف واحد. يتضاعف قَهْر أختي "عائشة" حين أصف لها الأنوار المضاءة بكثافة على طول البيوت وجدرانها في الأحياء التي يقطنها أهل البلد. كنّا أنا و"عبد الصمد" نرافق "قاسم" أحيانًا في جولاته الاضطرارية إلى تلك الأحياء الفاخرة ببيوتها الواسعة ذات التصاميم الخلابة، كنتُ أمعن النظر فيها بينما "قاسم" يسجّل الصِّبية الذين سيلتحقون بحلقات تعليم القرآن الكريم في موسمه الثاني، كما كلّفه أبوه.

في تلك الليالي المظلمة، عزمتُ أن أخطو خطوة أوسع في تلصّصي على خالي "منغستو" بأن أتبعه إلى المكان الذي يعود منه مترنّحًا؛ لذا حين حلّ الظلام، ادّعيتُ المرض أمام أختي "عائشة"، وبحاجتي للنوم والراحة؛ لأن يومي في المدرسة كان شاقًّا، رمقتني أمّي بحنان فائض كعادتها، فتوجّهتُ نحو فراشي على الأرض، وتمدّدتُ كما لو كنتُ مجهدًا، غطّيتُ نفسي، وبقيتُ أترقّب العتمة، بعد مرور ساعة، ساد هدوء تامّ. قبل نهوضي، جلستُ لدقائق على فراشي، لأتأكّد من نوم أمّي وأختي "عائشة"، وحين تيقّنتُ من نومهما، نهضتُ واقفًا بحذر، كأني داخل علبة سوداء، وعلى رؤوس أصابعي، تحسّستُ طريقي نحو الباب، من حسن حظّي أن فراشي بمحاذاة الباب تمامًا، وضعتُ اللحاف بطريقة تُوهِم بوجودي، كي لا أُثير شكوك أختي، إذا ما استيقظتْ في أثناء غيابي على صوت أنين أمّي.

تسلّلتُ بحذر. كانت غرفة خالي "منغستو" مضاءة، وتوقّعتُ أن موعد خروجه قد أزف، حجبتُ نفسي خلف حاوية قمامة متآكلة بالصدأ، وبقيتُ هناك حابسًا أنفاسي قدر الإمكان، وانتباهي مصوّب على نافذة غرفة خالي المضاءة.

مرّت عشر دقائق قبل أن تهبط الظلمة على نافذة خالي، سمعتُ صوت صرير بابه، ثمّ وقع أقدامه وهي تقترب من الحاوية المتستّر وراءها، تناهى إليّ بوضوح صوت دندناته، بدا منتشيًا من صوته، انساب ظلّي النحيف خلف تلك الدندنات، اعتقدتُ أنه سيستقلّ السّيّارة التي كانت مركونة أمام غرفته،وقد حضّرتُ نفسي لذلك بما ادّخرتُه من بيع علب الصفيح لأجرة التاكسي، إذا ما اقتضى الأمر أن أستقلّه لأتبعه، لكن خالي ظلّ ماشيًا يدندن، وهو بكامل أناقته. كنتُ أتبعه بحذر، وحمدتُ الله في قلبي كثيرًا؛ لأنها لم تكن ليلة الجمعة، ففي عطلة نهاية الأسبوع، يستحيل المكان هنا بشوارعه وأزقّته إلى مدينة للهنود. روائح أطعمتهم الطافحة بالبهارات الحارّة تلتصق بملابسي، بمجرّد عبوري عبر نافذة مفتوحة، تتصاعد منها أبخرة ما يطبخونه. كان بعضهم يرسل لخالي "منغستو" ما يعدّونه من أطباقهم، وحين لا يكون خالي في غرفته يتركونها أمام باب غرفتنا، حين تذوّقتُ إحداها، انقلبت يومها معدتي، وأُصبتُ بإسهال؛ فالطعام كان طافحًا بالفلفل الأحمر والبهارات.

دلف خالي بحذر إلى عمارة معتمة، لم يكن المكان يبعد من حيث نسكن سوى ثلاث حارات متداخلة، يمكن اختصارها بسلوك طريق داخلية، وهذا ما فعله خالي، سلك طُرُقًا موحِشة، تتخلّلها أزقة ضيّقة، لا تستطيع السّيّارات العبور فيها، كدتُ أقع على وجهي، فالمكان غارقٌ في العتمة، استعان خالي بضوء هاتفه النّقّال، ليتجنّب مفاجآت الظلام، كنتُ خلفه، تفصلنا مسافة،

كي لا يشعر بوجودي، ضوء الهاتف أعانني على تتبّع خطواته، سرعان ما ارتقى عدّة طوابق قبل أن يقف أمام باب ينبثق من تحته ضوء خافت.

سمعتُ أربع طرقات على الباب، فُتح بعدها مباشرة، ودخل خالي، ثمّ أغلق الباب وراءه، اقتربتُ بحذري المعهود من الباب، علّني أهتدي لثقب، يكشف ما يجري غير أنني لم أهتدِ لأيّ ثغرة تعينني.

خشيتُ أن يكتشف وجودي؛ فارتأيتُ أن أبقى منتظرًا خروجه. واريتُ جسدي في الظّلمة خلف السّلّم بعيدًا عن الخطر، وقريبًا من الباب المفضي للداخل. المكان بدا رطبًا وساكنًا؛ يبدو أنها بناية قديمة، لا يقطنها أحد سوى الذين يعرفهم خالي "منغستو" .. تُرى ما الذي يفعله هنا؟

هل هو المكان نفسه الذي يعود منه مترنّحًا؟ شعرتُ أن شيئًا ما يدنو منّي، حيث أقف، سمعتُ صوتًا يتعثّر في الظلمة بقَدَمِي اليسرى، سرتْ في بدني قشعريرة، انتفض على إثرها كامل جسدي، قفزتُ، فاصطدم رأسي بحائط الدرج الذي أختبئ أسفله، ضربة اخترق صوتها الجدران المتدثّرة بظلامها كخفافيش هلعة، أصابتني بإغماء. شعرتُ وكأن الظلام يدور بي، ثمّ كأن أحدهم دنا منّي يخاطبني بصوت خشن:

- قفْ مكانكَ .. مَنْ أنتَ؟

صاحب الصوت انتشلني من على الأرض بيَدَيْن كبيرتَيْن، ثمّ طوّحتا بي يمينًا وشمالاً وقهقهاته ترتطم بأذني، لا أرى وجوههم في الظلام غير أن أفواههم الضاحكة بهستيرية بدت كالأنياب، واليد نفسها التي طفقت تطوّحني في الاتّجاهات كلها حملتني على كتفها العريضة والأنياب تتبعنا متحفزّين، ولجوا بي إلى مكان، أضواؤه مشعّة، ثمّ ألقى بي صاحب اليَدَيْن الكبيرتَيْن على سرير، تفوح منه روائح كريهة، بقعة جافّة في منتصفه، وبقع أخرى على

أطرافه، قبل أن أنتبه تقدّم أحدهم أمامي، وفي يده حبل، قيّدني به بينما صاحب اليَدَيْن الكبيرتَيْن، يتقدّم صوبي وهو يحمل صندوقًا أشبه بقفص حجب بقطعة قماش، لونها أحمر، كما في ألعاب السيرك. كان على وجهه وهو يدنو منّي قناع أسود مثقوب عند موضع العينَيْن والشّفتَيْن.

كانت يداه تقبضان على صندوق، لا أعرف ما في جوفه.. أصبح على بُعد خطوة منّي، حيث ربطوني بإحكام على السرير القذر، وحين فُتح الصندوق، انطلقت منه مئات الجرذان البشعة، تنقض عليّ، وأنا أقاوم، كي أفكّ الحبال عنّي، وأدفع برجلي الجرذان الزاحفة فوقي، يهتزّ السرير مع حركاتي المنفعلة، وحين استقرّ أحد الجرذان على وجهي، أطلقتُ صرخة مهولة، انقبض جسدي على إثر رعشة، فتحتُ عينَيّ، ووجدتُني في مكان مظلم، فتذكّرتُ خالي "منغستو" هل خرج من هنا، يا ترى؟ كم مرّ من الوقت ووعيي غائب؟

قمتُ بحذر، لئلا ترتطم رأسي في وسط هذه الظلمة بشيء، وقد بدا توازني مختلًّا إثر الضربة، قبيل خروجي من تحت السّلّم، تناهى إليّ صوت كعب نسائي وضحكة خشنة لرجل.

الشّقّة التي دلف إليها خالي فوقي تمامًا، وأنا في أسفل السّلّم، أقرفص مختبئًا، لفت انتباهي صوت كعب نسائي، يدقّ الأرض الصلبة دقًّا كمسمار، سحب السكون من البناية التي بدت مهجورة، عزّزتها ضحكة منفلتة بفحش واضح، وبالقرب منّي أشعل أحدهم ضوءًا، تحفّز فضولي، فألقيتُ نظرة عليهما، الضوء المنبعث من الهاتف النّقّال في يد رجل، يرتدي ثوبًا، وامرأة آسيوية على كتفَيْها النحيلَيْن تدلّت عباءة مفتوحة وكاشفة لما كانت ترتديه من ملابس مبهرجة، وتُبرز مفاتن جسدها، كانت لصيق الرجل وهو يقرّب وجهه من وجهها غير أنها همهمت ببعض عبارات، لم أسمعها، ثمّ انفلتت منها ضحكة عالية، وهي تقوده إلى أعلى السلالم، في هذه اللحظة، عزمتُ

أن أهرب قبل أن يكتشف أحدهم وجودي، على أن أعود في وقت لاحق، لأكتشف ما تخبّئه الشّقّة السّرّيّة التي ولجها خالي "منغستو" وربّما المرأة والرجل الذي صادفتُهما هناك.

أطلقتُ ساقَيّ، وكأنما شيء ما يشدّني إلى الدرب وسط ظلام يبتلعني، كلّما تقدّمتُ، وصلتُ إلى نقطة اختبائي خلف الحاوية متقطّع الأنفاس، تأكّدتُ أن خالي "منغستو" لم يعد، فغرفته معتمة كما غادرها، ولكنْ، ذُعرتُ حين رأيتُ غرفتنا مضاءة.. هل لاحظتا غيابي؟ خرج هذا السؤال من حَنْجَرَتي الناشفة!

بقيتُ مترقّبًا خلف حاوية القمامة الصدئة، فلعلّ أنين أمّي هو ما استدعى استيقاظ أختي "عائشة"، وفي قلبي، حمدتُ الله على الحشيّة التي وضعتُها كتمويه في فراشي على وجودي. في الوقت نفسه، سمعتُ صوتًا يضحك، ثمّ يغنّي، فإذا به خالي "منغستو" كان كعادته يترنّح وهو يغنّي بكلمات هندية هذه المرّة، أدهشني أداؤه المتقن لها رغم أن الكلمات كانت تهتزّ مع الحازوقة التي يطلقها بين حين وحين، كان وحده هذه المرّة، خشيتُ أن تخرج أختي من الغرفة حين تسمع صوته المتعثّر غير أن ضوء الغرفة في اللحظة عينها انطفأ، ممّا أشعرني بالراحة، بقيتُ حيث أنا أراقب خطوات خالي المترنّحة وصوت حازوقته منغمسة بالغناء. أخرج مفاتيحه، ظلّ يولجها في القفل العنيد حتّى سمعت صوت انفتاحه، ثمّ صوت الباب وهو يسدّه بحدّة، كان عليّ أن أتريّث قليلاً حتّى أتأكّد من نوم أمّي وأختي. شعرتُ أن عظامي تؤلمني، وما تزال تلك الضربة التي تلقّيتُها إثر اصطدام رأسي بالحائط تنبض بوجع، جفوني مرهقة، نهضتُ بمشقّة، سرتُ صوب النافذة، فتحتُها على مهل. كان من الجيّد أن النافذة لا تُصدِر صوتًا عند تحريكها، ولجتُ منها بخفّة إلى فراشي، هناك ألقيتُ بجثّتي المتعبة من ليل طويل، ونمتُ كقتيل.

في يوم دلف "قاسم" إلى الفصل، وإحدى عينَيْه متورّمة، وبرز انتفاخ مزرقّ تحت جفنه. هال منظره الجميع. دخل الفصل يومها مُنَكَّس الرأس، ومُحدِّقًا إلى الأرض، لم يجرؤ أحد على سؤال "قاسم" عن ما ألمّ به، فهو عادة منعزل، ولا يتدخّل في شؤون الآخرين، ويتجنّب المشاجرات التي تقع في الفصل أو في الحافلة أو خارج المدرسة حين يتعارك بعض الطلاب بعد خسارة فريقهم في كرة القدم، أو حين يختلفون على نتائج المباراة، وكل منهم يتّهم الآخر بالخداع لإحراز فوز فريقه.

كان "قاسم" يرتدي لباسًا أفغانيًا "كَبْري" - كما يسمّونه - جيوبه فضفاضة "تكفي أن تحشو فيها سلّة فواكه، إن أردتَ" هكذا كنتُ أمازحه أحيانًا حين كان يخرج من جيبه الواسع موزتَيْن معًا أو تفّاحة وبرتقالة أو ثمرة مانغا ناضجة.

هذا الفتى الأفغاني مثل أمّي؛ من النوع الذي يخزّن حزنه في أعمق مخبأ في داخله؛ لم أسمعه يومًا في السنوات التي جمعتْنا معًا كرفيقَيْن في فصل واحد، يتحدّث عن عائلته، على عكس "عبد الصمد" الذي كانت أحاديثه تندلق بعفوية عن موطنه، وعن محلّ الخياطة الخاصّ بأبيه في كراتشي وعصابات اللصوص، رغم أن معرفتي بـ "قاسم" سبقت معرفتي بـ "عبد الصمد" الذي جاء منذ عامَيْن فحسب، بينما "قاسم" كان معي منذ الصّفّ الأوّل، الطفل السمين الذي اعتاد النوم في معظم الحصص الدراسية، وشخيره يعلو في الفصل، لا سيّما في الشتاء حين

تكون أجهزة التكييف مُطفأة، وهذا كان يعرّضه للتقريع من المعلّمين. معلّم اللغة العربية يأمره بالوقوف طوال الحصّة، بينما معلّم الرياضيات يُخرجه خارج الفصل، أمّا معلّم العلوم، فكان يعاقبه بتنظيف أدوات المختبر بعد انتهاء الحصّة.

مذ التقيتُه في يومنا المدرسي الأوّل وهو يجلس بقربي، يومها جئتُ متأخّرًا إلى الفصل، لأنني لم أجد اسمي في أي قائمة من قوائم الطلاب المستجدّين، ممّا سبّب هلعًا لأختي "عائشة" التي رافقتني، لتؤكّد تسجيلي والتحاقي بالمدرسة لأوّل مرّة في حياتي، وحين وجدوا اسمي في السجلات، أدخلني المشرف إلى الفصل، وجدتُ مقعدًا فارغًا في المقدّمة بمحاذاة السّبّورة، فقد وقع اختيار أغلب الطَّلَبَة على المقاعد الخلفية، بعيدًا عن نظرات المعلّم وانتباهه.

في الصّفّ الرابع، عرفتُ أنه أكبر منّا بعامَيْن، في تلك المرحلة، بدأت علاقتنا، فقد طفق يسألني بنبرة يشوبها الخجل عن مسائل مستعصية في مادّة الرياضيات أو عن معاني كلمات غير مفهومة في منهج اللغة العربية، لكنه سرعان ما أتقن قراءتها، وزاد انتباهه في أثناء شرح المعلّمين بعد أن تعرّفت عليه، وتغلّب على عادة النوم في الدرس.

وفي العام التالي انضمّ إلينا "عبد الصمد" الذي كان شفّافًا كالماء؛ ما في قلبه يجري على لسانه رغم لغته المكسّرة إلا أنه يحب الثرثرة، ربّما لأنه أحبّ اللغة العربية، وأراد أن يعوّد لسانه عليها.

اعتاد "عبد الصمد" مرافقتنا بلا خوف أو تردّد، ليلعب الكرة معنا؛ لأن والدَيْه كانا يسمحان له باللعب شريطة ألا يتأخّر في الرجوع إلى البيت. كنّا نخرج للّعب في أثناء الدوام المدرسي حين يغيب أحد

الأساتذة متسلّلين، لئلا يلمحنا حارس المدرسة العمّ "ميرزا" الباكستاني الذي يكون قابعًا في غرفته عادة، يتابع المباريات، فتكون فرصة جيّدة لنا، كي نتسلّل منحنين أسفل نافذته، نُنكِّس رؤوسنا، ونحبو على أربع بحذر، ثمّ نفرّ هاربين مع كتم ضحكاتنا، ينفجر ضحكنا، بمجرّد خروجنا من باب المدرسة، نتدحرج خلف الكرة حتّى انتهاء الحصّة التي فررنا منها، ثمّ نعود أدراجنا حذرين بالطريقة عينها أو نرتقي حائط المدرسة، ونقفز كالقرود، ونحن على خوف أن يلمحنا أحد؛ المدير أو المشرفون أو حتّى العمّ "ميرزا"، "قاسم" كان يتردّد في الخروج معنا، يتحجّج بالظلام حينًا أو أن والده يعرف بدقّة موعد خروجه من المدرسة حينًا آخر، وتأخيره يعرّضه للتقريع، صار يكتفي باللعب داخل المدرسة في أثناء الفسحة وبعض الحصص التي يتغيّب فيها أحد المعلّمين.

ولكنْ، بعد عام من حضور "عبد الصمد" وانضمامه إلينا، أصبح "قاسم" واثقًا من نفسه، وأكثر انطلاقًا، ولم يكن يذهب إلى البيت سوى للأكل أو النوم.

وفي يوم جاءنا وانضمّ إلينا في جلستنا أنا و"عبد الصمد" بعد أن تعبنا من مطاردة الكرة مع بعض الرفاق، قال دون أن يحدِّق في وجوهنا:

- بابا واحد خربان، بابا حرامي.

قذف "قاسم" عبارته تلك؛ فبصق "عبد الصمد" "البان" الذي كان يلوكه على الأرض، ثمّ حدّق في وجهي والصدمة على ملامحه. كنتُ أشعر أن ثمّة مشاكل عائلية وراء صمته وتوتّره الدائم؛ فحين نمرّ بمحاذاة سكنه في المسجد الذي أبوه إمامه؛ يصرفنا مباشرة عن الوقوف قربه، بل لم يكن يشجّعنا لننضمّ إلى حلقات حفظ القرآن الكريم التي يعقدها والده للصغار في الحيّ والأحياء القريبة من المسجد في بعض أيّام الأسبوع.

فتح "قاسم" لنا قلبه، وهتف بتحدٍّ: "أنا يكره بابا، بابا في مجرم".

بعد أن باح ببغضه لأبيه، طرح سؤالًا فاجَأنا:

- ليش احنا لما يجي دنيا ما يشيل اسم ماما؟ ماما جيب أنا دنيا، ماما تتعب، ماما يحمل أنا تسع شهور، ماما يعطي حليب، ماما تغسل أنا. ماما يسوّي كل شي؟!

أُفزعت تساؤلاته "عبد الصمد"، وراح يطلق عليه لفظة "باكل" وهو يستغفر الله مرارًا وتكرارًا على كل ما يلفظه "قاسم"، بل طفق يبصق عن يساره مستعيذًا من الشيطان الذي وسوس في صدره بمثل هذه التساؤلات المخالفة لشرع الله وحكمته، وكاد أن ينعته بالكافر ..

لكن "قاسم" لم يلقِ بالًا لـ"عبد الصمد"، بل ظلّ يردّد:

"أنا "قاسم" ابن ليلما، ليلما ماما، أنا حبّ ماما وماما حبّ أنا، أنا ما يحبّ بابا، بابا ظالم، بابا مجرم. ليش أنا لازم يشيل اسم هو؟!"

بعد أعوامٍ من الصمت، أخذ "قاسم" يُغدق علينا أسراره، مشاعره تهطل كأنه يريد أن يتخلّص ممّا نغّص عليه أروع أيّام طفولته، أخذ يُفرغ ذاكرته كَمَنْ يتقيّأ، ليريح معدته المتخمة:

أمّ "قاسم" تُدعى "ليلما" الابنة الوحيدة لأب يعمل حارسًا لمصنع أحذية، لمّا أفلس المصنع، صار يعمل أجيرًا يوميًّا لأعمال متفاوتة، حمّالًا للأثاث المستعمل، حمّال قمامة من البيوت، يقف مكان أجير القهوة حين يغيب أو يبيع الحليب في الطُّرُقات، وكان يكسب من تلك الأعمال أجرًا ضئيلًا. من ضمن الأعمال التي واظب على القيام بها تنظيف مكتبة صغيرة، يملكها أستاذ جامعي؛ يمسح الغبار عن الكُتُب المتراكمة مرّتَيْن أسبوعيًّا، كما كان يعاونه في حمل صناديق الكُتُب.

كانت ابنته "ليلما" في الثامنة، وأصبح الطريق إلى المكتبة مألوفًا لها، فهي مَنْ تحمل وجبات الطعام له حين تُشغِله أعماله عن تناولها في البيت، ويحدث أنها تُعاونه أحيانًا على تنظيف رفوف الكُتُب من الأغبرة، وتمسح الأرضية. في أثناء قيامها بذلك، كان يُبهرها منظر الكُتُب، تشعر وكأنها في عالمٍ سِحْرِيٍّ منعزل عن العالم الخارجي بصخبه وخوفه، لطالما تساءلت عن أهمّيّة الكُتُب، فقد كانت في عقلها الغضّ متماثلة في أحجامها، وتحوي في داخلها لطخات سوداء مصفوفة بعناية، ولا تعرف ماذا تعني أو ماذا يمكن أن تقول ومن الذين يقومون بصناعتها على هذه الهيئة، ولماذا لا تكون دائرية أو مثلّثة مثلًا؟

كانت الكُتُب المصوَّرة التي هُيِّئت للصغار في سنّها تجذبها عن سواها من كُتُب، وفي يوم، جلست تُقلّب صفحات كتاب صغير، يحوي صورًا ملوّنة، في أثناء ذلك، دخل صاحب المكتبة الأستاذ الجامعي؛ فدنا منها مبتسمًا: "هلاّ عجبك الكتاب؟"

تنبّهتْ إلى ظلّ رجلٍ طويلٍ واقفٍ أمامها بينما هي ملفوفة بحجمها الضئيل على الأرض في شادور يخفي كامل ملامحها، هرع الأب من الجانب الآخر من المكتبة، وطلب السماح من الأستاذ الجامعي، لأن ابنته الفضولية تتفرّج على الكُتُب فحسب، فهي لا تعرف القراءة، لكنه تفاجأ بصوت الأستاذ الجامعي يسأله بجدّيّة: "ولماذا لا تجعلها تتعلّم؟"

مسح والدها العَرَق من جبينه، مُجيبًا بنبرة مَنْ لا حول له ولا قوّة: "ذلك مستحيل، يا سيّدي، أنتَ أعلم بالظروف والأوضاع".

تمعّن الأستاذ الجامعي في وجهه، ثمّ قال بهدوء: "لا تخشَ من شيء، هل تأمن السّرّ؟"

تلفّت والدها حوله بقلب مرتجف:

- ماذا تعني، يا سيّدي؟

- أعني أن زوجتي درست في الجامعة قبل حضور "طالبان"، وكانت تعمل معلّمة، ولكنْ، حين أقفلوا مدارس الفتيات، أصرّت على مواظبة عملها كمعلّمة في البيوت لتعليم الفتيات بسرّيّة تامّة، ودون مقابل.

- لكنّه أمر خطير، يا سيّدي، ماذا يحدث لو اكتشفها "طالبان"؟! .. أنتَ تعلم ماذا يفعلون؟

- لا بدّ لنا من المخاطرة، إن أردنا حياة أفضل لأبنائنا ووطننا، شعور الخوف سيظلّ مرافقًا لنا، سيُثبط أحلامنا، ويُجهض آمالنا بمستقبل مغاير، ولكنْ، حين تكون الخشية ملفوفة بالأمل، فإن بصيص هذا الأمل، وإن كان ضئيلًا، سيمنحنا القوّة.

- لكنْ ...

- كما قلتُ لكَ لا بدّ من الخشية في مثل هذ الظروف المعتمة، ولا بدّ من الحذر أيضًا؛ نحاول كي نهتدي إلى طُرُق نجاتنا من هذا الظلام. ماذا لو حصل شيء لكَ؟ ماذا ستفعل ابنتكَ وحدها حينها؟ هل فكّرتَ كم ستجني ابنتكَ لو تعلّمت القراءة والكتابة؟ الخفافيش حتمًا ستفرّ من نور المعرفة، حينها ستجد ابنتكَ ما يجعلها قادرة على أن تعيل نفسها في هذه الحياة، ما الفرق بينكَ كأب وأولئك الآباء الذين بعثوا بناتهم إلى زوجتي للتّعلّم؟ ها هو مشروعها أكمل عامه الثالث، وسيستمرّ بالسّرّيّة نفسها حتّى تتحسّن الظروف.

- إذنْ، لنتوكّل على سبحانه، سأبعث ابنتي إلى عنوان حرمكم المصون بدءًا من الغد بعون الله. قالها وهو يرفع يَدَيْه فوق كأنه يدعو بخشوع.

لم يكن منزل المعلّمة، زوجة صاحب المكتبة، بعيدًا عن الحيّ الذي كانت تقطنه "ليلما" . لم تسعها فرحة دخولها إلى عالم جديد، ومليء بالمغامرة والأسرار، وقد حرص والدها بنفسه على إيصالها يوميًّا، كما دأب بحرص شديد على تذكيرها بأن تحتفظ بسرّ تعليمها عن أي كان، ولو سألتها إحدى الجارات الفضوليات عن مشوارها اليومي هذا، فإن عليها أن تُوهِمها بأنها تعمل خادمة. في الساعات الثلاث التي تقضيها في منزل المعلّمة، كانت " ليلما " تتعلّم لأوّل مرّة في حياتها القرآن الكريم والبشتو والداري، وهما لغتان منتشرتان في أفغانستان، كما كانت تتعلّم مبادئ الحساب والرياضيات. ظلّت لعامَيْن وقد بلغت العاشرة من عمرها، وهي تسلك طريقها إلى البيت الذي غيّر حياتها كليًّا، فلم تعد "ليلما" تكتفي بنفض الغبار عن الكُتُب وشطف الأرضية مع والدها ولا بمشاهدة صور الملصقات والقصص المصوّرة، بل كانت تفتح الكتاب الذي يلفت عنوانه عقلها حتّى تضيع في خيال الحروف السوداء، وما عادت تجد مشقّة في فكّ طلاسمها. تقرأ وتطالع كل ما يقع تحت يدها، سمح لها صاحب المكتبة باستعارة الكُتُب لقراءتها في المنزل.

صارت القراءة غذاءها اليومي، وشغلت لبّها. بعد ثلاثة أعوام من التّعلّم ومن القراءة، وجدت "ليلما" نفسها تفيض بمشاعر، تريد ترجمتها على ورق كالكلمات التي تُطالعها في الكُتُب. ليلتها كتبت ما أسمته المعلّمة زوجة صاحب المكتبة شِعْرًا.

كانت في الثالثة عشرة حين تيقّنتْ أن في داخلها شاعرة، فعكفت وبكتمان على الذهاب إلى منزل المعلّمة، ليس للتّعلّم فحسب، بل لتعليم فتيات صغيرات، كُنّ في مثل سنّها، في الوقت نفسه، حفّزت زوجة الأستاذ الجامعي "ليلما" على كتابة الشّعْر، واقترحت عليها من باب تحفيز موهبتها

على نشر ما كانت تكتبه في إحدى المجلات الثقافية التي كانت تصدر في باكستان، ولكن "ليلما" خشيت على نفسها ووالدها من أهل القرية، لو علموا أنها تدرس وتكتب الشِّعْر؛ لذا اقترحتْ أن تخطو خطوة النشر، ولكنْ، باسم مستعار.

ظلّت طوال عامَيْن تكتب شِعْرًا، وتبعثه عن طريق المعلّمة وزوجها إلى المجلّة الثقافية. كان الفرح يملأ قلبها حين تُعيد قراءة نصّها الشِّعْري من صفحة المجلّة، وكانت تقوم باصطحاب نُسختها من المجلّة إلى البيت. مع مرور الوقت، طفق القرّاء والشعراء من المجلّة نفسها يتواصلون مع اسمها المستعار، ويبعثون لها رسائل، تُظهِر إعجابهم بتجربتها التي تتبرعم بإبداع، ما جعل المعلّمة تقترح على "ليلما" نشر نصوصها باسمها الحقيقي مع صورتها الشخصية، فموهبتها تُظلِم بكتمان حقيقتها؛ وضّحت لها أيضًا أن المجلّة لا تدخل القرية، ولم تصلهم طوال تلك الأعوام سوى بطُرُق سرّيّة وآمنة، ومعظم أهل القرية لا يعرفون القراءة، بل إنهم لا يعرفون مَنْ تكون حتّى لو حدّقوا إلى صورتها، فلا أحد يعرف وجهها المخفي خلف شادور مشبّك سوى والدَيْها!

كان كلام المعلّمة المنطقي كفيلًا بإقناعها، فلا أحد يعرف وجهها سوى والدَيْها وفتيات ونساء أمّيّات، لا تصل لهنّ المجلات والصحف، بل حتّى لو وقعت بين أيديهنّ مجلّة أو صحيفة، فإن أقصى استخداماتها تكون لتغطية الخبز، ليحتفظ بحرارته وليونته، أو وضعها في خزائن الأطباق، لتفادي الغبار، فتتآكل مع الزمن، ويصفرّ لونها من رطوبة الأواني المبلّلة حين يضعونها عليها.

بالكاد فرحتْ بأوّل نسخة من المجلة مُذيّلة باسمها وصورتها حتّى هرع إليها والدها في ذلك النهار قبل موعد ذهابها إلى الدرس، ووقف بقلب

مُنقبض وأنفاسه تلهث مُوضحًا بشَفَتَين مرتجفَتَين ما فعله طالبان بمكتبة الأستاذ الجامعي، والذي لحسن الحظّ لم يكن موجودًا لحظة مداهمتهم لمكتبته وإحراقها بكامل محتوياتها؛ لأنها كُتُب تُفشي الرذيلة، وتلوّث عقل المسلم بأفكارها الملحدة والكافرة.

الحادثة أقعدتْها حبيسة البيت، واضطرّ الأستاذ الجامعي وزوجته المعلّمة إلى الفرار.

توقّف "قاسم" الذي بدا حزينًا وهو ينظر إلى وجهي ووجه "عبد الصمد" قبل أن يتمّ بقية الحكاية، لقد ظلّت أمّه "ليلما" تحكي عن تلك المرحلة من حياتها، وكلّما سألها "قاسم" عن كيفية زواجها من رجل كوالده، كانت تصمت وتتنهّد.

فقد كان يُقرّعها ويضربها ضربًا مبرِّحًا .. كان "قاسم" صغيرًا، فتكوّن لديه اعتقاد بأن الرجال جميعهم يمدّون أيديهم على زوجاتهم؛ ولطالما ردّد والده على مسامعه:

- نحن الرجال خلقنا الله أقوياء، لنؤدّب النساء، شرور هذا العالم كلها تقبع في دواخلهنّ.

لكنه لم يرَ أيّ شرّ قطّ من أمّه "ليلما"، بل كانت دائمًا تحنو عليه، وتُطعمه، تحكي له الحكايات قبل النوم، وتغنّي له إذا مرض بصوتها الشافي.

في نهار يومٍ ما، خرج والده إلى الدعوة في سبيل الله؛ فقادتْه أمّه نحو باحة البيت، وأسرّت له بالحقيقة المطويّة في قلبها منذ زواجها.

بنفسها غرست شجرة البرتقال في باحة البيت، واعتنت بها كابنتها، وما إن كبرت حتّى بدأت تبوح لها بأوجاعها كلّما صفعها زوجها أو ركلها.

تحت ظلالها الوارفة أجلست "قاسم"، ثمّ شمّرت عن ساعدَيها، وطفقت تحفر، إلى أن أخرجت من قاع الحفرة شيئًا مغطًى بقماش داكن، وحين فتحتْه تبيّن بداخله شيء مستطيل، بدا ككتاب مدرسي، طلبت منه أن يدنو منها، فتحت صفحة مطوية من الكتاب، وأشارت بإصبعها إلى صورة فتاة صغيرة، ابتسم وجهها الحلو وهي تقول له بحنان:

- هذا سرّي، يا بنيّ .. هذا سرّي الصغير الذي حفرتُه في قلبي، وكتمتُه طوال أعوام.

بدت صورة أمّه مذهلة في تكوينها الأنثوي لطفلة لم تبلغ الرابعة عشرة. كانت المرّة الأولى التي يعرف فيها أن أمّه تصنع من الكلمات ما يسمّى شِعْرًا، دون أن يلمّ تمامًا بمعنى الشِّعْر غير أنه أدرك بأنه سمعها في روح الأغاني التي كانت تنغّمها له بصوتها المرهف قبل النوم. أزاحت المجلّة، ثمّ أرتْه قصاصات أشعار، كانت قد كتبتْها بعد زواجها من والده، كتبتها بسرّيّة تامّة في موعد خروجه من البيت إلى الصلاة، تكتب، ثمّ تُخفي جلّ ما كانت تكتبه في تلك الحُفرة تحت شجرة البرتقال التي كان شذاها يعطّر باحة البيت.

يومها شعر "قاسم" بغبطة كبيرة؛ لأن أمّه أسرّتْ له بحقيقتها، بسرّها الصغير كما أسمتْه، وطفقت تكتب شِعْرًا أمامه عند غياب والده عن البيت، كان، في بعض الأحيان، يلعب دور الحارس المراقب من ثقب الباب حين كانت أمّه تُخبّئ سرّها الصغير في المكان الذي يعرفه كلاهما فقط.

في ظهيرة من نهار الجمعة، خرج والده قبل موعد الصلاة بساعة، ليناقش موضوع الخطبة مع إمام زائر، وجدها "قاسم" تنبش حُفرة السّرّ

كما اتّفقا على تسميتها، خبّأتْ فيها قصاصة شِعْرية، هرول صوبها وهي تنفض يَدَيْها من التراب الملتصق بهما، ثمّ قبّلتْه وهي تخاطبه بنبرة عطف:

- يا روح قلبي .. يا كاتم سرّي .. ما رأيكَ أن أقرأ لكَ آخر ما كتبتُه لعينَيْكَ البديعتَيْنِ؟

حرّك رأسه موافقًا بغبطة، واسترخى لسكينة صوتها وهي تتلو تراتيلها عليه، كان صوتها روحانيًّا، غمرتْه سكينة صوتها، حلّق معها كجوادٍ أبيض، يُباري السهول الخضراء حوله زهور من الياسمين والفُلّ والريحان تتناثر، لكنْ، سرعان ما هبّت ريح عاصفة، حاول أن يستوقف اندفاعها نحوه، لكن الريح غلبتْه .. ظلّ يقاوم .. يقاوم .. يقاوم، لكن الريح هوت به ساقطًا إلى قُعر الهاوية، لقد سقط يومها فعلاً سقوطًا جهنميًّا. سقط، ولكنْ، ليس وحده.

صحا "قاسم" على صراخٍ حادّ، فتح عينَيْه على ركلات أبيه لأمّه، يركلها على ظهرها وبطنها، وفي يده نسخة المجلّة التي خبّأتها طوال أعوام، وحين نظر "قاسم" من النافذة إلى الحفرة، أدرك أن لعنة الهلاك حلّت على أمّه.

كان والده يلوّح بالقصاصات في وجه أمّه وهو يسألها بنبرة صارخة عن اسم الرجل الذي كتبت له الكلام البذيء، وحين رأى صورتها المكشوفة على صفحة المجلّة، أخذ بخناقها وهو يصرخ بهمجيّة:

- سأفضحكِ، يا فاجرة .. أقسم بالله بأني سأفضحكِ، ثمّ أقتلكِ .. لكنْ، قبل أن أزهق روحكِ، أخبريني بالخائن الذي كتبتِ له هذه النجاسات، يا فاجرة .. هيّا، انطقي ..

من هول الصدمة، وقف "قاسم" على قَدَمَيْه، وتوجّه صوب أبيه متشبّثًا

بقَدَمه، كي يكفّ عن أذاها، لكنّه ركله بدوره، وحدّق به شَزْرًا، نافثًا غضبه في وجهها:

- وما يدريني أن "قاسم" ابني، ها؟ ربّما كان ابن أحد الفاجرين الذين كنتِ تقابلينهم في غيابي، وتكتبين لهم هذه القصاصات الآثمة ..

صعقه كلام أبيه الذي توجّه رأسًا إلى حجرته، عاد وفي يده مصحف:

- أقسمي بهذا المصحف أنه من صُلبي، وأنتِ تعرفين عاقبة القَسَم بالقرآن إن كذبتِ، إنّ ولدكِ هو مَنْ سيدفع ثمن فجوركِ وكذبكِ.

وضعت يدها على المصحف، ثمّ ضمّتْه إلى قلبها وهي تُقسم بصوتها الواهن:

- أقسم بالله أنّ "قاسم" ابنكَ .. أقسم بالله أنّ رجلًا غيركَ لم يمسسْني .. أقسم بالله أنني بريئة ممّا ترميني ..

لكنه لم يسمع بقية كلماتها الحارقة، وخطف المصحف من يدها، ثمّ بصق عليها، كبّل جسدها المنهار - تحت ضربات قبضته الوحشية - على جذع شجرة البرتقال التي كانت تحتفظ بسرّها؛ سرّهما الصغير الذي استحال إلى فضيحة كبيرة. كبّلها، ربط رجلَيْها ويدَيْها. أبقاها على تلك الحال لمدّة يومَيْن، وكانت في كل مرّة تعيد عليه حكاية المعلّمة زوجة الأستاذ الجامعي التي اقترحت عليها منذ عشرة أعوام قبل زواجها الكتابة في المجلّة موضحةً له أنها النسخة الوحيدة التي تحمل صورتها وهي في الثالثة عشرة من عمرها، غير أنه كلّما سمع اعترافها كان يبصق عليها، ويصفعها.

رأى "قاسم" المحبوس في غرفته من فتحة النافذة كلّ ما تتعرّض له أمّه،

ظلّ حبيسًا يشاهد كيف استحالت إلى جثّة تئنّ. بعد يومَين استيقظ على صوت حشد كبير من الرجال يحيطون بأمّه وهي مقيّدة، وعلى جسدها شادور، يلفّ جسدها المتكسّر، ووجهها غابت ملامحه بسبب الكدمات.

حرص على إبقائها حيّة؛ ليشهد أهل "كابول" كلهم عارها، يخطب في الناس عن خيانتها ونجاستها، وهو يشير إلى القصاصات التي تفاجأ بها مدفونة في فناء داره، وضع الرجال أكفّهم على رؤوسهم من عار الصدمة، وحين انتهى من تجييش صدور الحشد تجاه المرأة النجسة، أخذوا يرجمونها بالحجارة، وينعتونها بالفاسقة، سكب والده عليها شيئًا، ثمّ وسط لغط الأصوات، تحوّلت أمّه إلى لهيب من النار، وتحوّل "قاسم" إلى صرخة هائجة. تعالت صيحات التكبير على الخائنة: لقد استحقّت عقاب الله وجزاءه العادل على جرمها الذي لا يُغتفَر.

انفضّت الحشود إلى سبيلها، وقد وجدوا فضيحة يلوكونها في مقاهيهم، ويقذفون بها الرعب في أفئدة زوجاتهم، للحصول على مزيد من الطاعة منهنّ، لقد تفحّمت أمّه أمامه، وأدرك حينها أن حياته قد انهارت تمامًا.

حين فتح والده باب حبسه، فاجأه "قاسم" بحجر قذفه على وجهه، شجّ منتصف جبهته، وأثرها ما يزال واضحًا، يذكّره بمدى وحشية أبيه .. ووسط لعناته، فرّ ذلك اليوم إلى حيث لا يعلم أين.

كان وحيدًا، وحيدًا تمامًا بلا أمّه تلاحقه لعنات والده الغاضب:

- يا ابن الرذيلة .. يا ابن العاهرة، أيّها العاق .. الجبان .. كنْ رجلًا، وعُدْ لتواجهني .. أيّ رحم قذر آواكَ! .. إلى الجحيم أنتَ وأمّكَ النجسة .. عليكَ اللعنة ...

يعلم أن أمّه امرأة شريفة، وأن والده حمّلها جرمًا هي بريئة منه، كان هو ابن السابعة شاهدًا، ولكنْ لم يستطع أن يقول شيئًا؛ لأنه على يقين أن أحدًا لن يسمعه، وأنه سيظلّ ملحقًا بعار أمّه حتّى مماته.

كان لوالده مريدون، وبالقَدْر نفسه كان له خصوم في مدينة مثل كابول، لا تخلو من العداوات، ولكي ينجو بجريمته من تحقيقات السلطات؛ فرّ إلى الريف، وانتقى لنفسه من هناك زوجة صغيرة في السّنّ، لترافقه إلى الغربة مع ابنه "قاسم" الذي لم يكلّم والده مذ حادثة حرق أمّه. لم يكن له مكان يذهب إليه وسط " كابول " الخطرة. كان يوّد أن ينضمّ للقاعدة، لو أن والده لم يُجبره بالقوّة لمغادرتها.

"قاسم" وضع هدفًا لحياته، أراد أن ينتقم من أبيه، ولكنْ يجب أن يكون قويًا كفاية، ليعتمد على نفسه، ويجد له كفيلاً، يُخلّصه من وصاية أبيه، حينها سيقدّمه لقمة لأفواه أعدائه في كابول بعد أن يُكشَف للسلطات هنا عن أفعاله وشعوذاته، وقتها سيُصدرون في حقّه حُكمًا عادلًا.

كنتُ أرى التّحدّي العنيف في عينَيْه، العينَيْن اللّتَين طمس بريقَهما حزنُهُ طوال تلك الأعوام. وحين بثّه لنا، صفّى روحه، وكأنه خرج للتّوّ من عملية تطهير، أُجريت لصدره المثقل.

تغيّر بعدها "قاسم" حتّى نبرة صوته غدت أكثر ثقة، وصار ينظر في عينَيّ وعينَي "عبد الصمد" وهو يحدّثنا.

طالما أنكَ مهتمّ بالتفاصيل؛ سأسرد عليكَ، يا كارل، حادثة مرّة حدثت لي في مخيّم "بوصاصو"، إذ خرجتُ من المخيّم باحثًا عن صديقي "أدُّو" لنجلب ماء للاستحمام من البئر الذي حفرتْه إحدى هيئات الإغاثة، وحين لم أجد أثرًا لـ أدُّو "توجّهتُ إلى البئر، وهناك صادفتُ صغارًا في مثل طولي تقريبًا مصطفِّين مع حاوياتهم ذات الأحجام المتفاوتة لتعبئتها بالماء. وقفتُ في آخر الصّفّ الطويل، أحدهم جسّ كتفي، التفتُّ، فاجأني ظلّ طويل لرجل، شفتاه متيبّستان، وعيناه محفورتان في تعاريج وجهه النحيل، وبدت كلّ من يَدَيه وقَدَمَيه متشقّقة بوضوح، كل شيء فيه غدا طويلًا حتّى لسانه الذي ظلّ يُخرجه ليُرطّب شَفَتَيه.

أثنى رُكبَتَيه النحيفَتَين العارِيَتَين إلى أسفل كمسمارَين صدئَين، ليصل لمستوى قامتي الضيئلة، ثمّ سألني بابتسامة شرهة:

هل تحب muuska[*]

أخافني سؤاله لوهلة، وأدهشني، حين طال صمتي، فغر فمه ضاحكًا:

- عندي لك muns[**] لذيذ، ما رأيكَ أن تتذوّقه؟

أطرقتُ حائرًا وأنا أفكّر بآخر مرّة تذوّقتُ فيها الموز. كان ذلك قبل

---

*) موز بالصومالية

**) موز بالصومالية أيضا

عام تقريبًا، حين بادلتْ أمّي حليب البقرة الذي تبيعه بالموز من إحدى البائعات في السوق، يومها عرضتْ أمّي شيّئًا لونه أصفر، ثمّ قشّرتْه أمامي وهي تقول عبارتها بضحكة:

-هذه الفاكهة اسمها الموز، وقبل تناوُلها يجب أن نخلع ثيابها .. ثمّ ضحكتْ، ولم أنسَ ضحكتها، ولا طعم الموز اللذيذ.

كم كان شاقًّا على الذاكرة أن تستعيد طعم ما ذاقتْه في زمن الرغد وسط مخيّم قاحل! حين رأى حَيْرتي أضاف قائلًا بتحفّز:

- هيا، اتبعني، كي أعطيكَ موزًا تتذوّقه، هيا قبل أن يعلم الآخرون، فيسلبون حصّتكَ منها.

ولأني مذ استطالت قامتي قليلًا، تعلّمتُ أن في بلدي بعد أن زحف عليها الجوع والحروب، لا أحد يمنحكَ دون مقابل، لذا سألتُه بنبرة مساومة:

- لا أملك شيّئًا أعطيكَ له مقابل ما تعطيني إيّاه!

حين سمع عبارتي ضحك عاليًا، وبدا فمه الفارغ من الأسنان كمغارة، ثمّ قال بسرعة:

- ومَنْ قال لكَ بأني أنتظر شيئًا في المقابل أنا lug(*) أحبّ أن أعطي الأطفال ما أملكه برحابة صدر.

لم أفهم ما الذي كان يعنيه وقتئذ، يا كارل، بل إنه لم يُمهلني وقتًا، لأستوضح مغزى عبارته، فقد تحرّك خطوات أمامي، ونظراته تحفّزني على اتّباعه، وقبل أن أتبعه، التفتُّ نحو الصّفّ الطويل مفكّرًا "سأحضر ما يقدّمه لي من موز، ثمّ أعود لأجلب الماء لأمّي".

---

*) رجل بالصومالية

كانت خطواته توسّعها ساقاه الطويلتان، يخطو ويتلفّتُ خلفه، ليتأكّد من أني أتبعه، وحين ابتعدنا عن البئر، ودنونا من شجرةٍ حولها أخشاب، صُفّت لتبدو كغرفة صغيرة؛ أسند ظهره على الشجرة وابتسامته القبيحة تقول لي:

- هيّا، اقتربْ أكثر، ليُتاح لكَ قضم الموز، هيّا، ياwill[*] ..

حينئذ أزال ما يغطّي أسفله، ومدّ شيأه الشبيه بخرطوم صغير ووجهه صوبي وفمه الفاغر يردّد:

- Kharashka mozata oh will[**]..

حاول أن يقبض على كتفي، ليرخي من قامتي غير أنني ضربتُ وجهه بالإناء الذي كنتُ أحمله معي .. لا أدري من أين واتتني القوّة كي أضربه به؟ اختلّت مع الضربة حركته قبل أن أُطلق ساقيّ للريح، وقلبي ينبض كما لو أنّ كلابًا تطاردني.

تنامى مع الوقت شعوري بالقرف الذي صار ينتابني كلّما رأيتُ فاكهة الموز أو قدّمه لي أحدهم، هل تصدّق، يا كارل، أنني لم أذق طعم الموز منذ تلك الحادثة!

---

*) ولد بالصومالية

**) التهم موزتي يا ولد

كنتُ على أتمّ الحذر هذه المرّة بعد التعنيف الذي تعرّضتُ له على ترك تلك المرأة المجنونة، لكن هؤلاء لا يبالون بجنونها ولا باضطراب أحوالها النفسية، لا يهمّهم، ويجب ألا يهمّني أيضًا بعد الآن، إن أردتُ أن أُنهي مهمّتي معهم، وأستعيد ذاتي، عليّ ألا أبالي، وأن أنفّذ ما يطلب منّي، لأنه السبيل الوحيد لأنجو ومَنْ أحبّها.

لم يخطر ببالي اسم ما أو بلد بعينه حين أصادف الضّحيّة القادمة؛ فقد أصبحتُ بارعًا في اختيار اسمي وبلدي وهويّتي، وفي أي فصل دراسي أكون، وما أفضّله من طعام، وما أكره من حيوانات وسيرة أمّي وأبي، ومَنْ سأُميت منهما في حكايتي المزعومة ... أصبحتُ بارعًا في الكذب!

كنتُ قد حضّرتُ نفسي للاحتمالات كلها هذه المرّة، وعزمتُ على بلوغ مرامي، مهما بدت الصعوبات أمامي. أشدّ ما أريده هو أن أُنهي صلاتي نهائيًّا مع الذين أتعامل معهم. لقد سئمتُ مَنْ تحكمهم بي. يجب أن أعدّ نفسي جيّدًا؛ فالأعمال السّيئة تحتاج إلى الإتقان أضعاف ما تتطلّبه الأعمال الصالحة.

كانوا يتعمّدون وضعي في أماكن مقطوعة، طُرُق غير مأهولة، دروب لا يمرّها سوى ثلّة من البشر تجنّبًا لأي شبهة. يتركونني هناك في مواجهة مصيري كجندي وحيد، يرحلون عنّي، لأتمّ ما طُلب منّي بدقّة تامّة،

بينما ينتظرونني ومَنْ سأصحبه معي إلى مكان اتّفقوا عليه مُسبقًا، مكان يحرصون على تغييره بعد كل مهمّة تجنّبًا للأعين.

بعد عدّة مهمّات، صاروا يختارون أماكن، يؤمّها جمع من الناس بدل تلك المهجورة. أماكن فيها البشر غائبون طوال النهار، الرجال في وظائفهم، أمّا النساء، فيخرجنَ لتزجية الوقت، للفرار من الفراغ الهائل الذي يخنق أرواحهنّ، يذهبنَ للتّسوّق أو لزيارة صديقاتهنّ أو حتّى للعمل ... وغير المتزوّجة، ولا تعمل، يصلها مصروفها الشهري من الحكومة. وحدهنّ الخادمات من أصول أفريقية وآسيوية، يبقين في البيت للاعتناء به، والقيام بأعماله؛ لذا مثل هذه الأماكن عادة لا تُثير الشبهات، أماكن تقطنها عائلات رصينة، تتّصف باحترام خصوصية الآخرين، وعدم التّدخّل في شؤونهم إلا حين يرون ما يُثير الشبهات كضجّة مبالغة، أو سلوك يخرج عن باب الأدب، عدا ذلك، جلّ أمور الحياة تمضي بهدوء ورتابة، كما أن هذه الأماكن الراقية تُجنّبهم بالتأكيد دوريات رجال الشرطة والبلدية وتفتيش الإقامات التي تلاحق العمّال والمشبوهين، وتقتحم أماكن سَكَنهم في حال الشبهة وتلقّي شكوى.

كنتُ أنقاد كما ينبغي لطُعم إلى مكان المهمّة، تبقى بقية التفاصيل طَيّ الكتمان، فلم يحدث أن دخلتُ سراديبهم. كانت مهمّتي تنتهي بمجرّد أن أقود الشخص الذي معي إلى حيث ينتظرونه عند مدخل الباب، ثمّ يصرفونني كذبابة. يقومون بكل شيء دون أن يكون لوجودي حاجة أو أهمّيّة، بل يبرّرون بأن مهمّتي هو تسليم الطريدة فحسب، وبقيّة المهمّات هي من اختصاص أصحاب الخبرة والتجربة، أُذعن لهم؛ فليس لي من خيار سوى ذلك. لقد سُقتُ لهم حتّى الآن طريدة واحدة، وعليّ أن أثابر هذه المرّة، عليّ أن أنجح عسى أن أصل إلى مرادي، وأُخلّف هذا العالم ورائي إلى الأبد.

كان المكان هذه المرّة مختلفًا عن المكان الأوّل الذي كان مهجورًا، وعن المكان الثاني الذي بدا نائيًا، لا يحوي سوى ثلاثة أو أربعة مشاغل لخياطة عباءات النساء، ومعظمها فارغة، حيث قابلتُ المرأة المجنونة، وأبكتني بحنانها.

هذه المرّة أملوا عليّ طريقة أخرى عن المرّات السابقات؛ فالشرطة كثّفت دورياتها في الشوارع بعد الشكاوى التي استقبلتْها عن اختفاء عديد من الأشخاص. أتوجد عصابات أخرى؟ أم أنهم يستغلّون غيري؟!

بعد أن ترجّلتُ من السّيّارة، أشاروا إلى مكان المهمّة، بيت يقع في زقاق داخلي لحيّ، بدا عريقًا .. دُهشتُ من هذه الطريقة الجديدة، ونمّت نظرتي عن مخاطرة محتملة، لكنهم طمأنوني، ووضعوني في التفاصيل.

بمجرّد أن وقفتُ أمام الباب، تركوني وحيدًا كما هي العادة، ولكنْ، هذه المرّة وقفوا عند أقرب نقطة من مخرج الشارع بعد أن أعدّوني كما يعتقدون لتنفيذ المهمّة.

تملّكني ضيق هائل رغم أنهم أخبروني بالتفاصيل كلها عن الرجل الذي سيفتح الباب، ويقف أمامي، ويدعوني إلى الدخول، بمجرّد أن أضغط على الجرس، لكن الشعور بالضيق المشوب بالقلق بقي ملازمًا لي، كان يكفيني أن أصغي إلى دقّات قلبي، كي أجري بعيدًا بعيدًا عن هذا الباب، عن الزقاق، عن الحيّ، عن الشارع، عن كل مكان، أن أستمرّ في الجري، ولا أتوقف حتّى تتهالك قَدَمَاي من التعب، لكني لم أكن أُنصتُ، لأن أوان السمع لم يحنْ بعد، لأن أمامي قبل أن أفرّ مهمّة يجب عليّ تنفيذها. أنا لا أملك قرار الفرار، لا أملكه، أعي هذا، أعيه بكامل انفعالاتي خصوصًا في هذه المهمّة.

لا أعرف كيف كبستُ بإبهامي على الجرس؟

لكن ما أعرفه وما يهّم أن أعرفه هي أن مهمّتي الثالثة قد بدأت بمجرّد ما امتدّت إصبعي، ها هي خطوات تدنو، ها هو الباب يُفتَح، تلعثمتُ بمجرّد فتحه، وكدتُ أن أتراجع، لكن الصوت المطمئِن أعادني:

- حيّا الله، ولِدي، أكيد إنت ربِيع فهد في المدرسة، صح؟ بس ولدي فهد محد لحين راح مع أمّه لبيت يدّته ..

وقفتُ مبهوتًا أمام الرجل الذي بدا في عقده السادس مرتكزًا على عصا. كانوا قد راقبوه عن بعد، وتأكّدوا أنه مصاب بالخرف، ويعيش وحيدًا، ولا يتردّد عليه أحد منذ شهور، ولا يخرج سوى إلى الصلاة، ويعرّج بعدها إلى أقرب مطعم هندي، يجلس وحيدًا لاحتساء الشاي وسط حشد من الهنود، يتأمّلهم وهم يتناولون بجلبة وجباتهم، وكان غالبًا يحمل غداءه معه راجعًا إلى بيته، كانوا قد تعرّفوا عليه هناك، خسر زوجته وابنه الوحيد في حادث سيّارة، يومها عُطبت ذاكرته، ولم يعد يذكر سوى ابنه حين كان في العاشرة من عمره، وكل مَنْ يطرق بابه يعتقد أنه صديق ابنه، ويُلقي عليه العبارة ذاتها .

كانوا قد انتهجوا أسلوبًا آخر في اختيار طرائدهم، صاروا ينتقونهم بعناية ودراية كافيتَين، وكان لهم في كل منطقة عين، تتقصّى الأخبار لمعرفة طبيعة كل مكان يتواجدون فيه، كان يهمّهم أن يكون الشخص وحيدًا ومقطوعًا عن العالم الخارجي، ولا يخالط الجيران من حوله، واختفاؤه لا يشكّل مشكلة لأحد. لقد أدركتُ مبعث اختيارهم لهذا الرجل، ليس لأنه وحيد فحسب، بل لأن ذاكرته معطوبة، لقد اعتقدوا أن مهمّتي ميسورة، وأن تنفيذها لن يستغرق سوى دقائق، بمجرّد ما يفتح

الرجل باب بيته، لكن الباب كان العتبة الأولى، فها هو يقودني من يدي، يسحبني إلى داخل البيت وصوته يلحّ بلطف بالغ:

- دش .. دش أنت ربيع ولدي فهد، تعال، خلّيني أوريك غرفته ..

لم يُبقِ لي مجالًا كي أتراجع أو أنطق بكلمة، يبدو أنه وجد أخيرًا مَنْ يرتاح له ويحدّثه عن ابنه، فكلّما حاولتُ أن أقول شيئًا كان يُسكتني بلفيف ذكرياته الشجيّة، يُريني بلهفة تفاصيل الغرفة والصور المعلّقة على الجدران، والملابس المصفوفة بعناية في الخزانة، والأحذية النظيفة من الغبار في الدولاب، زجاجات عطره والمفضّل منها، وصندوق يفيض بالأجهزة الإلكترونية التي كان يحلو له شراءها.

كان الرجل لا يكفّ عن فتح الخزائن ونَثْر الأشياء في أرجاء الغرفة، هذه الأمور كلها كانت خارج توقّعاتي وتوقّعاتهم أيضًا، لا بدّ وأنهم الآن يتساءلون عن سرّ تأخّري، بل من المحتمل أن يكونوا قد غادروا خشية كشف المهمّة، وتركوني هنا متورّطًا أمام رجل غريب يُصارع ذاكرته.

عليّ أن أُوقِف هذا كله كي أسحبه من بيته بأسرع ما يمكن، فتّشتُ عن حيلة طارئة، نزلت على عقلي المضطرب حينئذ جعلتني أقول دون رويّة عبارة فاجأتني شخصيًا قبل أن تهمد حواسّ الرجل من المفاجأة:

- تريد تشوف فهد، هو بعثني لك حتّى أوديك له؟

تكسّرت آخر كلماتي، وارتطمت بالسكون، ظلّ كل شيء مُنصتًا لوهلة، كأن كل ما في هذا البيت يريد أن يُصدّق العبارة التي أطلقتُها لتوّي.

انصاع الرجل تمامًا، وارتخت قبضته على ذراعي الصغيرة متشبّثًا بها، سلّم نفسه لي منقادًا، لم يكن عليّ أن أحمل معي شيئًا أو ألمس شيئًا،

كان عليّ فحسب أن أقوده، كما لو أني أقود رجلًا آليًا، وحين فتحتُ الباب، تفاجأتُ بأحدهم أمامي، وكان على وشك أن يخلع الباب. تراجع مُجفلًا حين رآنا قبالته.

تلفّتَ حوله، وطلب بإشارة من عينَيْه أن أتبعه، سبقنا إلى السّيّارة التي تترقّب وصولنا بشغف كبير .تردّد الرجل في ركوب السّيّارة، فتشاوروا في تكميمه وعصب عينَيْه، طلبتُ منهم بلغتهم ألّا يفعلوا، وسأطمئنه بلغتي العربية التي لا يجيدونها هم بأنه في طريقه إلى حيث سيقابل ابنه، وحين سمع الرجل ذلك، ركب معنا.

توقّفت السّيّارة فجأة في شارع أعرفه جيّدًا، طلبوا منّي أن أخبر الرجل أني سأترجّل وأذهب إلى بيتي، فأهلي ينتظروني، وسآتي لاحقًا، لأطمئنّ على فهد، لم يعارض، وكأنه مسحور، أخبروني أن ما أترقّبه سيصلني إلى حيث أكون، إن تمّت المهمّة حسب المطلوب.

دائمًا يكرّرون عليّ الجملة نفسها، لكني لا حيلة لي في المقابل، ترجّلتُ من السّيّارة، توقّعتُ أن يُبعدوني عن طريقهم حين أتمّ المهمّة، كما في كل مرّة، ثمّ يعودون، ليخبروني بأن المواصفات لم تنطبقْ، وعليّ أن أُعيد الكرّة مرّة أخرى، لعلّها تصيب في النهاية.

لكني كنتُ أتساءل بحنق في نفسي كم عليّ أن أجلب من طرائد، كي أفيَ بالمواصفات المطلوبة، كي أفرَّ من هذه المهمّات التي بدأت تُثقلني ككوابيس فظيعة؟!

لذا عزمتُ أن أتبعهم، وألا أكتفي بالانتظار بينما روح مَنْ أحبّها تصارع المرض، أوقفتُ سيّارة أجرة عابرة، وطلبتُ من سائقها أن يتبعهم، بحجّة

أن السّيّارة التي أتبعها ركّابها أقربائي، ولم يتّسع المكان لي فيها، فطلبوا منّي أن أستقلّ سيّارة أجرة، لأتبعهم.

فكّرتُ في نفسي بينما سائق الأجرة يحثّ طريقه في شارع مزدحم بأنهم لو انتبهوا عليّ وأنا أتبعهم، فسأخبرهم حينها بأني حصلتُ على طريدة جيّدة لهم، لا أدري لماذا لم يخطر ببالهم سائقو سيّارات الأجرة من قبل؟!

ربّما لأن سيّارات الأجرة هي المشكلة، فهي تابعة لشركات معيّنة، ولربّما يورّطهم اختفاؤها، وتكثّف من أعين رجال الشرطة، بل ربّما مع الزمن تلجأ الشركة إلى وضع كاميرات سرّيّة، تخفيها في طيّات المقاعد الخلفية، فيقعون في فخّ كبير، لا منفذ منه، أعلم أن من أهم شروط مهمّاتنا الحذر، كم ظلّوا يردّدون عليّ هذه الكلمة، كلّما ألقوا عليّ مواعظهم!

ظللتُ أقلّب تفكيري بسؤال أكثر حَيْرة حول الذين أضطرّ أن أتعاطى معهم، حول الذين يستحقّون تسمية العصابة، ولا أدري لماذا كانت هذه الكلمة تبثّ في داخلي الرعب؟

حتّى إن عقلي كان يتجنّب استخدامها أو التفكير بها كلفظة واردة؛ كأني باعترافي بها وترديدها حتّى بيني وبين نفسي أعترف على ذاتي بتهمة التواطؤ معها، والاعتراف بوجودي بين أفرادها؟!

كانوا دائمًا يصرّون علي أن أنتقيهم من أهل البلد، وكانت حجتهم في ذلك على حد قولهم أنهم أثرياء نهبوا حصة الفقراء وسلبوهم كل شيء، وبمغادرة أحدهم لن ينهار شيء في حياتهم، لن يحدث شيء لأسرته ولا لصغاره ولا لأي فرد من أفراد أسرته، فهذه البلاد ليست كبلدانهم هم، هنا تتكفّل الحكومة بتفاصيل عيشهم بل سيجزلون لهم العطاء لكونه

من عائلة الفقيد، لم يكن متأكّدًا بأن ما دلقه خاله أمامه محاولًا إقناعه به حقيقة أم أنها مجرّد أعذار لتبرير أفعالهم؟!

- هازا في واجد مكان هلو، إنت كيف في يسكن هنا..؟

ارتبكت أفكاري بصوت سائق الأجرة، كان باكستانيًا، ويبدو عليه الفضول، ولا ألومه في فضوله، فالحيّ الذي ولجتْه سيّارة العصابة كان فاخرًا، بيوته أنيقة أشبه بقصور صغيرة، وفي واجهة كل بيت حديقة مُشذّبة معتنى بها، بالرغم من حرارة الجوّ، أفهم لماذا اختاروا هذا الحيّ الفخم، عليّ أن أُعطي سائق الأجرة إجابة مقنعة لسؤاله؛ كي أُبدّد عن نفسي الشُبهات، قلتُ:

- بابا يشتغل طبّاخ منّيه، وفي عزيمة كبير اليوم.

أطلقتُ عبارتي المكسّرة، كي يفهم عليّ السائق.

كان يمعن في تعداد محاسن أهل البلد عليه وعلى كل مَنْ هاجر وهرب من جهندم بلده كما وصفه. حين انعطفت سيّارتهم إلى خلف بيت كبير، أدركتُ أنهم وصلوا.

طلبتُ من السائق أن يتوقّف، علت الحَيْرة وجهه، كأنه مذيع نشرة إخبارية، انقطع عنه البثّ قبل أن يُكمل الهراء الذي كان يوّد الثرثرة به، حاسبتُه سريعًا، دفعتُ باب السّيّارة، ثمّ جريتُ إلى حيث انعطفت السّيّارة المصفّحة، كما توّقعتُ، كان ثمّة باب خلفي لعبور السّيّارات داخل الفيلا.

لم أذهب إلى ذاك البناء الخشبي المتداعي مذ رأيتُ عبر ثقوبه أختي "عائشة"، لم تعد علاقتي بها كما كانت في السابق، لا أعني من حيث المعاملة، ففي ذلك الوقت، لم أكن أدرك ما كانت تفعله، هل الجميع يفعل ذلك؟

عشتُ في عالم من التّخيّلات التي لم تطرأ ببالي قطّ.

صارت جولاتي حول المخيّم لها طابع التّلصّص، في البدء، كنتُ أكتفي بالتّلصّص على النساء، وهذا متاح في كل وقت، فأختلس النظر على الأثداء التي تغدو مكشوفة أغلب الأوقات بينهنّ؛ بعضها يكون مترهّلًا كحبّات بابايا لدى العجائز، وبعضها منتفخة، كأنها على وشك الانفجار. المرأة تملك الكثير ممّا يمكن التحديق إليه!

وفي أثناء الليل، كنتُ أدّعي المرض أو الخوف من كوابيس الليل، كانت أختي تقترب منّي، وكنتُ أخشى اقترابها، تلتصق بي وهي تضمّني إلى صدرها النافر، تلك القُبّة الداكنة كنتُ أشعر بصلابتها حين تشدّني إلى حضنها، اندفاع أختي "عائشة" جعلني أحبّ النوم بجانبها، والالتصاق بجسدها المكتنز بمؤخّرة كبيرة، كانت أمّي تقول لها على سبيل المزاح:

- مَنْ يرى مؤخّرتكِ الممتلئة لن يتيه عن أصولكِ الأثيوبية!

في ذلك اليوم، اخترقت حبّات المطر الأرض بجموح بعد قحط طال أمده، انطلقنا من جفاف مخيّماتنا الرّثّة كسرب من الجراد نحو حفل الارتواء، لنبتلَّ بالمطر الذي طال احتباسه عنّا في السماء، جرينا نحن الصغار، لنلهو في أماكن متفرّقة، وكانت أمّهاتنا في أشغالهنّ اليومية، كنتُ برفقة ثلّة من صغار المخيّم، ثمّ تفرّقنا كل اثنَيْن أو ثلاثة معًا، لنملأ قدرونا بماء المطر، فقد قيل إن لمائه بركة؛ لأنها تهطل بقوّة الله من أعلى السماوات، وهي رحمة للعباد، أردتُ أن أغترف منها لأمّي، لتتبارك به.

اختار "أدّو" رفيقًا غيري، فذهبتُ مع "جون" وهو طفل في مثل طولي، لا أب له من أمّ عازبة، ملأنا قدورنا، ورقصنا تحت رذاذ المطر، فجأة هبّت ريح عاتية، وأومضت الغيوم الكثيفة، ولج الخوف إلى عظامنا، فما كان من "جون" سوى أن التصق جسده الضئيل بي، متصلّبًا كلّما أرعدت السماء برهبة.

جرينا خلف شجرة، واحتمينا بها، لكن "جون" جرّني عنها، وهو يحذّرني بأنه سبق وأن رأى عددًا من الأشجار تتّقد لهبًا بصعقة رعدية، لهذا خشي أن نتفحّم مع الشجرة، إن احتمينا تحتها، بأسمالنا المبلّلة لهثنا نحو البناء الخشبي المتهالك حين أفزعتْنا الصاعقة بوميضها الناري، البناء نفسه الذي رأيتُ فيه أختي "عائشة". تردّدتُ لوهلة في دخوله، وقفتُ مرتعشًا قبالة بابه المتداعي، لكن "جون" سحب تخبّطي، فاندفعنا شاردَيْن من المطر. صدمتْنا رائحة عطنه تأتي من فرشة بالية، رطّبتْها قطرات المطر المندفعة من السقف المثقوب، شممْنا رائحة غائط، بقع ناشفة وذباب متزاحم حول بقعة طريّة، بالقرب منها زجاجات من المشروبات الغازية بنكهة البرتقال.

كنتُ أتفحّص المكان الذي صادفتُ فيه أختي "عائشة"، أتخيّل

جسدها على الفرشة القذرة، وهي تكرع مشروبها الغازي مع رفيقها، ولكن الزجاجات الفارغة كانت خمسًا والملصق الخارجي لإحداها بدا مُقشّرًا ومَرميًّا على الأرض في نتف صغيرة، هل كان معهم أشخاص آخرون؟ كم مرّة حضرتْ إلى هنا، يا ترى؟.. هل هو مكانهما السّرّيّ؟ أم هو ملجأ لكل عابر؟!

أسْكَتَ "جون"، وهو يندفع صوبي، صوت أسئلتي المتدفّقة كالمطر، تشبّث بي والظلمة تحجب كل بقعة ضوء تعبرنا، وأجّجت البرودة المنبعثة من ألواح البناء الخشبي التصاقنا.

كان جسد "جون" ينتفض في أسماله البالية الرطبة بينما كانت أسناني تصطكّ، غمرتْنا غفوة لم نقاومها، سرعان ما أفقتُ على حسّ زخّات المطر الخفيفة وهي ترتطم بتداعٍ موسيقيّ .. توك تاك تيك .. توك تاك تيك، كان الصوت يعبّر عن مَلمس القطرة في ارتطامها الحنون بالأشياء، خشبًا، حديدًا، برميلاً بلاستيكيًّا. أرضًا وحلة .. زلقة. حين تحرّكتُ رأيتُ بأن بنطالي القصير بأطرافه المهلهلة مبلّل، وخلتُ أن البلل زحف نحونا دون أن نشعر به من فتحات السقف المتداعي ونحن نيام، ولكنْ، حين وقفتُ شاهدتُ بقعة البلل نفسها تنساب من تحت "جون" الذي كان غارقًا في النوم، أيقظتُه، وحين فتح عينَيْه، شعر بأنني أحدّق في وجهه باستغراب، ثمّ تحسّس بلله، نكّس رأسه خجلاً من عاره، وهو يتمتم:

- آسف .. الجوّ بارد جدًّا .. فعلتُها وأنا نائم ..

لا أدري أيّ جرأة واتتْني حينها وأنا أمدّ يدي نحو عورته! كنتُ أتذكّر ما تفعله أختي هنا، استقرّ الذهول على وجه "جون" دفعني عنه، فجفلْنا معًا!

كلٌّ ذهب إلى حيث قادته قَدَمَاه، وجدتُني أمام أمّي التي عانقتْني رغم ملابسي الملطّخة بالوحل بعد غيابي عنها طوال النهار. أختي "عائشة"

لم تكن في فرشتها، برّرت أمّي أسباب غيابها: "لعلّها عند إحدى الرفيقات .. فبعدما فاجأنا المطر وومضات برقه ورعده رصّ كلّ منّا نفسه في زاويته .. الرعد، يا ابني، حين يقتل لا يرحم .. صعقته تذبح.

لا حاجة لي، يا كارل، أن أحكي لكَ ما جرى تمامًا، فضائحي كلها في الدفاتر، وفضيحة أختي كذلك.هل سيتكفّل المونتاج بحذف غير اللائق لبرنامجكم العالمي، أو ربّما ناسبتكم الفضائح، وصوّرتُم لها مشاهد تمثيلية مثيرة، تجذب لكم ملايين المشاهدات؟ أنا أفهم، يا كارل، صدِّقني أن بعض كلامي لا شأن له بموضوع الفيلم، ولكنْ، بما أنني اخترتُ البوح، فعليّ أن أكون أمينًا في نقل ذاكرتي، توجّستُ سابقًا من أن تأخذ دفاتري وتتصرّف بها وفق ما تراه لفيلمكَ الوثائقي، لكني الآن مقتنع، من واجبي أن أضعكم أمام المسبّبات جميعها التي يمكن أن تصلوا من خلالها إلى نتيجة معقولة لأوضاع اللاجئين في المخيّمات. فما سترونه في تجربتي جزء من المرآة التي تعكس حالنا لكم، وما نحن اللاجئين إلا شظايا متناثرة في هذا العالم، كنّا جميعًا نظهر في تلك المرآة، بما فيها من بؤس وشقاء بعد أن هشّمتْنا الحرب.

وحتّى تستطيع أن ترى المرآة واضحة قبل تشظّيها، لا بدّ لي من إنهاء الحديث في هذا الأمر، الدفاتر ليست حياتي فقط، أو معاناة أمّي وأختي؛ الدفاتر هي تلخيص لأحوال اللاجئين..

بعد مرور عدّة شهور على صدفة البناء الخشبي المتهالك التي قلبت كياني كلّيًا، عادت أمّي من عملها أبكر عن المعتاد، ولجت خيمتنا منتفضة، وأمارات الهلع بادية على تقاسيمها، وكأن زلزالًا قد وقع. جفلْنا من نحيبها، وصراخ يتداعى من مخيّمات الأثيوبيات.

اعتقدتُ لبرهة أن وباءً سيجتاح المخيّم، غير أن أختي أخبرتْني أنها سمعتْ أن القاعدة بقيادة أيمن الظواهري أذاعت في أنحاء البلاد كلها عبر شريط فيديو مرسَل على قناة الجزيرة بأنها ستطارد المسيحيّيْن الأثيوبيّيْن المقيمين في الصومال تصفية لأرضها الطاهرة من دنسهم.

ظلّت أمّي طوال ذلك اليوم مرعوبة، تُتمتم مع رفيقاتها الأثيوبيات بصلوات للرّبّ، لم يكنّ يعرفنَ ما المصير الذي ينتظرهنّ وأطفالهنّ، حائرات .. هل ينتظرنَ الموت، كي يقضي عليهنّ دفعة واحدة، ويضع نهاية لمآسيهنّ؟ أم ثمّة كوّة ستنجيهنّ من خيباتهنّ؟

كانت أمّي تردّد من بين دموعها على مسمع صديقاتها:

- لو كنتُ وحدي، لسلّمتُ نفسي للموت منذ دهر طويل، لتركتُه يأتي منهيًا حياتي ومآسيّ وآلامي، ولكنْ، لديّ اثنان ويتيمان، كيف ستكون حياتهما من دوني. قارب بلا مجذافين يغرق في القاع؟!

كانت الأصوات تتداعى من الحناجر الضامرة جوعًا وذعرًا:

أيّها الرّبّ، ارحمنا .. يا يسوع، ألطافكَ ..

أمّي مذعورة؛ فقد استنزفت المال القليل الذي خبّأتْهُ من بيع الحليب بعد مرور ستّة أشهرٍ على نفوق البقرة، مصدر رزقنا الوحيد. حالتي الصّحّيّة تتداعى، آثار سوء التغذية بدأت تغزو جسدي الواهن.

في اليوم نفسه، أخبرتْها أختي عائشة عن مصيبتها. عن مبعث توعّكها الدائم والخمول الذي استوطن جسدها خلال الشهور الماضية. فضحتْ سرّها قبل أن يغدو في مقام الفضيحة، فدلقت حكايتها بكامل تفاصيلها لأمي:

"كنتُ أترقّب قدوم قافلة محمّلة بمعونة غذائية، لأحصل منها على حصّتنا. كنتُ حصيفة في هذه الأمور كما تعلمين، ولا يمكن لأحد أن يزحزحني عن مكاني، حيث أنتظر، لكن يومها أصابني ألم حادّ في بطني، وجع لم أقدر على تحمّله دعاني إلى التزحزح قليلًا إلى إحدى الأحراش حتّى موعد قدوم القافلة، تواريتُ لأتبوّل، وهناك فاجأتْني نقاط حمراء من الدم على الأرض من تحتي، حيث أنا مقرفصة، شعرتُ بإعياء أكبر حين رؤيتها، كنتُ على دراية كافية بهذا الأمر من صديقاتي اللاتي بلغنَ. مزّقتُ قطعة من أسفل ثوبي، راكمتُها كحشوة لامتصاص الدم بعيدًا عن الأنظار، ثمّ سابقتُ الخطى إلى موضع وصول القافلة. كان الازدحام جنونيًّا، لم أستطع أن أتقدّم حتّى خطوة واحدة وسط الحشد الفوضوي. تذمّرتُ بشدّة، ولعنتُ لحظة بلوغي. قرفصتُ في زاوية بعيدة عن الحشد، أبكي وحدي على حظّي العاثر، وعلى هذه الحياة الملعونة. حين تفرّق الحشد، نهضتُ والحَيْرة تمزّقني، كيف سأقف أمامكِ، يا أمّي، فارغة اليَدَيْن، أنتِ التي اتّكأتِ عليّ، ولم أخيّب ثقتكِ يومًا؟

ما كدتُ أنهض من مكاني حتّى استوقفني أحدهم، ويبدو أنه أدرك مبعث بكائي. عرض ابتسامته الصفراء أمامي، ثمّ سألني بنبرة غريبة، إن كنتُ أريد موادًّا غذائية، خبّؤوها احتياطًا لمَنْ يفوته الدور، ولكل عاجز، لا يمكنه الوقوف في التزاحم الشديد، ثمّ وضّح بنبرة ذات مغزى بأن هذا الامتياز لا يُمنَح سوى للأشخاص الطيّبين أمثالي. واستحسن أن يتمّ الأمر بعيدًا عن الأنظار، ثمّ أخبرني عن موعد الاستلام في منتصف الليل، حيث الناس نيام.

لم أملك سوى أن أنتظر بصبر مشوب بالقلق الليل حتّى ينتصف. لم أجرؤ على الذهاب إلى البيت، حيث أنتِ تنتظرينني هناك، وكي لا تقلقي عليّ، بعثتُ خبراً مع إحدى الصديقات، لتُبلّغكِ عن تطوّعي لتوزيع الموادّ الغذائية مع القافلة، وكثيراً ما كنتُ أفعل ذلك فيما مضى، كما تعلمين، لذا لم يكن الأمر ليجلب الشكوك إطلاقًا لكِ أو لأيّ كان.

كانت ليلة ساكنة، ظللتُ جالسة أنتظر الرجل الغريب في المكان نفسه خشية أن يأتي ولا يجدني، مرّ النصف الأوّل من الليل دون أن يمرّ أيّ آدمي، الناس غارقون في النوم، لم تمرّ ساعة من الوقت حتّى سمعتُ صوتًا، ثمّ استطال ظلّ أمامي. في يده مصباح يدوي، ينبعث منه ضوء شاحب، قال لي بلا أيّ مقدّمات:

- هيّا، اتبعيني ..

نهضتُ من مكاني سريعًا، وتبعتُ الظلّ الذي يتبع ضوء المصباح اليدوي، مشينا بهدوء قرابة عشر دقائق، ثمّ وقف أمام شيء ما، لم أعرف كنهه في عتمة الليل. دفع شيئًا أمامه، بدا كباب خشبيّ، لمستُه بيدي، دلفْنا معًا، سار أمامي بكتفَيْه المشبعَتَيْن باللحم، وأنا خلفه تمامًا

بجسدي الضئيل، كان البناء الخشبي خاليًا إلا من صندوق كرتوني بحجم متوسّط، أشار نحوها قائلًا لي:هنا تجدين كما وعدتُكِ، شِوال طحين ورزّ وزيتًا للطهي، سكّرًا وملحًا، وبعض الأطعمة المعلبّة .. ستكفيكم لشهر حتّى موعد القافلة القادمة.

غمرني فرح هائل. كان الأمر شبيهًا بحلم ..

سرعان ما دنا منّي، ثمّ قال لي بصوت لاهث:

- الآن جاء دورك، لتعطيني مقابل ما جلبتُه لكِ.

لم أفهم ما كان يعنيه، لكنه وضع يده على وجهي، وقال كَمَنْ يهذي:

- ما أطرى لحمكِ!

ثمّ بيد عنيفة، شدّني إلى صدره العريض حتّى خلتُ أن عظامي الضامرة ستتفتّتُ بينما يده الأخرى وجدت طريقها إلى أسفل، تحاول خلع ما تحتي، سرعان ما ألقاني أرضًا، تحسّسني، شعر بشيء ما حارّ ولزج، أزاح يده وهو يقول بانفعال:

- كم أنتِ رطبة؟

وحين سلّط فم الضوء على يده، وثب من فوقي مصعوقًا:

- دم ..؟ من أين أتى هذا الدم؟

لم أعرف بماذا أجيب؟ ويبدو أنه فهم الأمر حين لعن بحنق:

- سحقا! يا لسوء الحظّ!

ثمّ تابع مهدّدًا، وكادت سبّابته أن تخترق وجهي:

- اسمعي، سيتجدّد موعدنا بعد أسبوع من الآن، إن لم تحضري، فلن تحصلي على شيء من القافلة القادمة، لن نسمح لكِ بأخذ معونة .. ستموتين وأسرتكِ من الجوع .. هل فهمتِ ما أعنيه؟!

كاد أن يحمل الموادّ التي جلبها معه، لكنني رجوتُه أن يبقيها لي، تشبّثتُ بقَدَمه وأنا أفكّر بخيبتكِ، يا أمّي، وبأخي المريض من سوء التغذية، رجوتُه بكل ما أملك، قدّمتُ مواثيق حضوري للموعد الذي حدّده بعد أسبوع في البناء الخشبي، هدأ، ثمّ وضع الأغذية في عربة خشبية، وعاونني في إيصالها إلى المنزل، صرتُ أنا هذه المرّة مَنْ يتبع ضوء المصباح اليدوي.

بمجرّد وصولي غرقتُ في النوم، كان بطني يعصرني وكلّ عظامي متكسّرة، أمّا روحي، فكانت مشتّتة، نمتُ دون أن أتأمّل البهجة التي استقرّت على وجهكِ، يا أمي، بما جلبتُه من مؤونة غذائية، الغبطة التي تكلّلت في إعداد خبز "اللحوح" لي ولأخي "فارح" قبل ذهابكِ إلى العمل، الخبز الذي ظللتِ تحكين كيف أنه يُبرز مدى انقسام البلاد الذي نعيش فيها، فأهل الشمال كانوا يسمّونه " اللحوح" وأهل الجنوب كانوا يدعونه " عنجيرو "،" حتّى في تسمية أطعمتنا نحن متفرّقون فيها، يا صغيرتي!" كما كنتِ تردّدينها على مسمعي كلّما خبزتِ.

لم تعلمي، يا أمّي، أن أنوثتي اكتملتْ، لم أجد الوقت كي أخبركِ، كنتِ تغادريننا في الصباح الباكر، تعدّين لنا الفطور، وتقومين بتغطيته بقطعة قماش نظيفة حتّى وقت استيقاظنا، وكان عليّ أن أهتمّ بوجبة الغداء.

لحسن الحظّ، لم يستمرّ نزول الدم لأكثر من ثلاث ليال، تدبّرتُ فوطَتَيْن قابلَتَيْن للغسيل من صديقاتي، لم أجد وقتًا ملائمًا لأخبركِ، يا أمّي، ولمّا اغتسلتُ أجلّتُ الأمر حتّى موعد الحيض القادم، لم أكن أريد أن أخبّئ عنكِ، ولم أتعمّد ذلك، لكنْ، أليس الأمّهات هنّ مَنْ يكتشفنَ الأمر من تلقاء أنفسهنّ؟! ألا تردّدنَ بأن الأمّهات يعرفنَ كل شيء؟! لعلّي كنتُ أريد ذلك وبشدّة! ليتكِ كشفتِ الأمر بنفسكِ! كم هي قاسية عليّ لحظة المكاشفة هذه! أعلم، يا أمّي، كان لديكِ من الأوجاع ما يكفيكِ، لم تكن حالكِ أو حظّكِ في الحياة أفضل من حال أمّكِ التي هجرها زوجها إلى أخرى، وكحال معظم نساء المخيّم اللاتي هجرهنّ أزواجهنّ إلى أخريات هروبًا من الفقر المدقع.

مرّ الأسبوع بثقل، وكما هو متّفق، كان عليّ أن أنتظر في البناء الخشبي، كي لا نموت جوعًا، أنا حارسة روحكِ، أمّي، وروح أخي، كما كنتُ أقرأ ذلك في عينَيْكِ الحزينَتَيْن، كنتُ أعرف تمامًا ما الذي ينتظرني.

إنها مقايضة اعتدناها نحن النساء، مقايضة لا بدّ لنا منها في هذا العالم الذكوري، لا لستُ مهتمّة إن كنتُ ضمن هؤلاء النسوة المقايضات، ما الذي ينتظرني خارج هذا المخيّم سوى حياة كحياة جَدّتي وحياتكِ، يا أمّي، وحياة كل امرأة هنا؟ لهذا المقايضة لم تكن لتهزّ روحي التي ألفت شتّى أنواع المقايضات.

حين دلفتُ إلى البناء الخشبي من أجل المقايضة، بدا البناء متداعيًا أكثر ممّا ظننتُ، لعلّ نور قمر تلك الليلة، ليلة بلوغي، كان خجولًا، لكن نور قمر هذه الليلة يتجلّى كشعاع، يفضح حتّى الوجوه المظلمة التي تمرّ، كان وهجًا كفيلًا لأرى تقاطيع المكان الذي بالكاد يتّسع لشخصَيْن،

مكان مهجور، جدرانه الخشبية معطوبة، الثقوب تحيط بها من كل جانب، كأنها فجوات، أحدثتْها رصاصات عنيفة، ترى إلى أين هجرها أهلها إلى حياة أفضل أم أسوأ أم إلى حفرة القدر المحتوم؟

ما كدتُ أبحر في تخيّلاتي حتّى سمعتُ صوتًا من خلفي، التفتُّ، كان ظلّه هذه المرّة واضحًا، بدت تقاطيعه وسيمة، لم أنتظر مبادرة منه، بل عزمتُ أن أُظهر جرأتي، كي لا يعتقد بأني فتاة ضعيفة، خلعتُ ثوبي، ونمتُ على ظهري على الأرض الباردة، وأطبقتُ على جفنَيّ، لم تلتقط أذناي سوى ضحكة إعجاب، ندت عنه، تركتُه فوقي يفعل ما يريد، كان كل شيء مثلما تخيّلتُه، مثلما سمعتُه من نسوة هذا المخيّم وهنّ يحكينَ تجاربهنّ الأولى مع أزواجهنّ، وكيف كنّ يبكينَ من الخوف، كانت ليلتي الأولى، يا أمّي، ورغم ذلك لم أبكِ، فلا شيء يستحقّ البكاء، أنا هنا وفق مقايضة، وقد قبلتُ بها: الجسد مقابل الطعام، الكرامة أو الحياة.

لم تمضِ سوى عشر دقائق، لم أفعل في أثنائها شيئًا، لم أبكِ، لم أصرخ، كنتُ فقط أتحمّل هزّاته حتّى إنني لم أتأوّه، لا تتأوّه المرأة سوى لرجل تحبّه، التقطتُ هذه العبارة الحميمة من فم صديقتكِ، يا أمّي، كانت تصف بلذّة مفرطة ليلتها مع زوجها، يومها عزمتُ أن أخزّن تأوّهاتي لرجل أحبّه. كنتُ أريد إنهاء الأمر سريعًا بلا ذكرى منّي، وبلا تفاخر منه، قام أسرع ممّا توقّعتُ، ظلّت في حلقي صرخة حبيسة: ألأجل هذه الدقائق العشر يرتكب الرجال أفعالًا شنيعة تجاه النساء؟!

حين نهض من فوقي ظللتُ في مكاني بلا حراك، شعرتُ بلزوجة في الجزء الأسفل من جسمي، أبقيتُ عينَي مطبقَتَين، وقبل رحيله، ألقى عليّ ثلاث كلمات بدت كتعويذة:

- موعدنا القافلة القادمة ..

كنّا على موعد مع كل قافلة تجيء، جالبًا معه الموادّ الغذائية التي قايضني من أجلها، كان ملتزمًا بكلمته، وكنت ملتزمة بكلمتي، ومواعيدنا تمضي وفق الاتّفاق،لم أعرف عنه شيئًا، ولا حتّى اسمه، كنّا غريبَيْن تمامًا عن بعضنا رغم تواصل جسدَيْنا، أكثر ما كان يميّزه هو صمته الراسخ، يأتي بالشغف نفسه، يغادرني بالكلمات الثلاث نفسها، وعشر دقائق تتلاشى كحلم. لا أُنكر أني تعلّقتُ به.

في موعد الشهر الثالث، توجّهتُ حيث الاتّفاق إلى البناء الخشبي المتداعي، حين ولجتُه وجدتُني متلبّسة بضوء مشعّ من مصباح يدوي، حجبتُه بوضع يدي على وجهي حتّى وصلتُ إلى حيث كان جسده واقفًا، وكما في كل مرّة، جعلتُ ثوبي يسقط تحت قَدَمَي، استلقيتُ أرضًا بالوضعية المعتادة بعينَي المغلَقَتَيْن وأنفاسي الهادئة في حين انفلتت منه ضحكة، تسرّب تهكّمها إلى أذني، ثمّ أحسستُ ثقلًا على جسدي، وكأن صهريجًا على صدري، كانت حركاته عنيفة وصدره يتصاعد بشدّة، لم أعتد منه هذا التّصرّف، حاولتُ التّملّص منه، كي يحسبها مقاومة من جسدي الهزيل غير أن اندفاعه اشتدّ، يبدو أن المقاومة في مثل هذه الأوضاع لا تُجدي مع الرجال، بل تضاعف تفلّتهم، لَكمَ أحشائي بضربات متتابعة على إثر اندفاعها الوحشي، أطلقت صرخة خالطتْ زئيره الخشن، وحين نهض، قال لي عبارة صعقتْني:

- كما قال عنكِ صديقي، أنتِ ...

أطلق ضحكة مُدوّية، ثمّ اختفى مع صوته ..

لملمتُ نفسي فزعة، العتمة وحدها احتوتْني من كل صوب، ارتديتُ

ثيابي على عجل رغم الألم الذي وخزني، جررتُ ورائي الصندوق الكرتوني الذي احتوى الموادّ الغذائية.

بعدها بشهور، انقطع مرور القافلات بسبب سوء أوضاع البلد، واستيلاء القراصنة على معظم السفن".

انقطعت زيارات عائشة للبناء الخشبي المتهالك أيضًا، وانقطع حيضها، أمّي التي لم تعلم ببلوغ أختي، علمت بانقطاع حيضها؛ بينما كانت "عائشة" تفكّر بطريقة ما لإخبارها، كانت أمّي تلاحظ أمارات الخمول والدوار والغثيان عليها، وصدمة أنها حامل في سنّ الثانية عشرة حطّمت قواها كليًّا!

خرجت من هدوئها، صفعتها وسط الجيران وهي تصرخ بعصبية:

- نحن في مجاعة، لا ندري هل ننجو منها أو نهلك؟ وأنتِ، يا سافلة، تحبلين، ومن أب مجهول!

وسط نحيبها تناهى صوتها وهي تحدّث إحداهنّ، امرأة ضامرة على صدرها الممسوح صليب خشبي، كانت واقفة كأنها جزء من خيمتنا، جزء بقي طوال عمره مغروسًا كمسمار في المكان نفسه، لم يتزعزع، ولو قليلاً، يتشبّث بحضنها طفل رأسه كجوزة هند، وأمّي تخاطبها بصوت هزيل:

- لا أفكّر في الطفل البائس لهذه السافلة، ففي مثل هذه الظروف، لن يكتمل هذا الطفل، ليعيش .. سيموت .. أو تموت هي .. يا لها من سافلة!

وصوت المرأة الواقفة كعمود صامد قرب رأسي تقول بحسرة مَنْ يؤمن بالقَدَر:

- كلنا سنموت آجلاً أم عاجلاً .. إذا لم تنهش الطيور الكاسرة جثثنا المتفسّخة من الجوع، فلن ترحمنا القاعدة، سيظلّون يلاحقوننا، والمساعدات لن تأتي هنا بعد تهديداتهم، وإن وجدتْ طريقًا، فسيستولي عليها المقاتلون، لن يصل إلينا شيء، سنموت .. كلنا سنموت ..

وأصوات قرب المخيّم تتعالى:

- لا أريد أن أموت هنا أو يموت أطفالي، يجب أن نجد مخرجًا للهرب، نعم، يجب أن نفرّ من أرض الجحيم هذه، لنذهب إلى بلدنا، لنهرب وإلا غدونا وليمة لوحوش بشرية ...

قالت إحداهنّ بصوت أشبه بالنحيب:

- ليتني ذبابة، ليتي لم أكن قطّ.

وأصوات خشوع تنساب من كل صوب:

- أبانا الذي في السماوات ارحمنا.

لم يكن رحم عائشة الصغير مستعدًّا بعد لنُمُوّ الجنين، سقطت منها مُضغة اللحم، كما تنبّأت أمّي تمامًا ... يا لنبوءة الأمّهات!

بيَّتُّ عزمًا للذهاب إلى المكان الذي كان فيه خالي "منغستو" المرة الماضية، ويبدو أن الفرصة سانحة في هذه الليلة، فقد اضطرّت أختي "عائشة" لتفاقم آلام أمّي المسكينة أن تناولها حبوبًا منوّمة، لتحظى بالنوم الذي عاند أجفانها طوال الليالي الماضية.

تسلّلتُ على رؤوس أصابعي بعد أن تأكّدتُ من نومهما، لم أجد خالي "منغستو" في غرفته، رحتُ أقطع الطريق بحذر، وظلّي يحرسني من ورائي حينًا، ومن أمامي حينًا آخر، تمدّني انعكاسات الأضواء من بعض بيوتٍ، تُبقي أنوارها مضاءة حتّى أوّل ساعات الصباح، بيوت تسكنها عائلات على الأغلب، أمّا العزّاب العاملون، يقضون نهارهم بطوله في أعمالهم الشّاقّة، وتظلّ بيوتهم غارقة في العتمة حتّى في أثناء الليل، فحين يُقفلون راجعين من أعمالهم يقتعدون الطُّرُقات على أرائك بالية، التقطوها من هنا وهناك، تتعالى ضحكاتهم على نكات تذكروها أو تراهم مأخوذون بمشاهدة أغانٍ راقصة تعرضها هواتفهم أو يزجون الوقت بتدخين السجائر الرخيصة.

الآخرون يجتمعون ليُرفّهوا عن أنفسهم كل مساء بلعب كريكت أو كرة الطائرة أو يتعاونون معًا في إعداد وجبة العشاء، فيقوم أحدهم بجَمْع الحطب أو عيدان الأشجار القريبة، وغيرهم يشرفون على مَطّ العجين، ودعكه، تجهيزه في رقائق مدوّرة، وتطويحه في الهواء بمهارة، فيبدو مستديرًا، ثمّ يقذفونه بخفّة على سطح برميل مشتعل من الداخل، اتّخذوه فرنًا،

يذهبون إلى أعمالهم نهارًا كرجال، ويقومون بما تقوم به النساء من أعمال حين يُقفلون راجعين مساء إلى بيوتهم التي لم تشمّ رائحة امرأة منذ أمد.

صارت نفسيات البيوت وساكنيها وعاداتها تتبدّى من خلال الأضواء التي يشعلونها أو يُطفئونها تبعًا لمستوى معيشتهم، تتمدّد الظلمة كلّما تقدّمت إلى البيوت المتواضعة، في المرّة الماضية، لم أنتبه للظلام ولا لفجوات الأبنية المهدّمة التي بدت كأفواه تنتحب، كنتُ أمشي بخطوات حذرة وسريعة بمحاذاة الجدران التي أصادفها أو براميل المياه العتيقة التي يستغني عنها مالكوها بعد أن تكون عليلة بالصدأ أو حاويات القمامة، لأتوارى خلفها عن أي عين متلصّصة أو ظلّ متشكّك.

بينما كنتُ أمضي إلى وجهتي بحذر، تناهى إلى أذنيّ صوت درّاجة نارية وأضواء تدنو من ورائي على طول الشارع الترابي، ارتأيتُ أن أحجب نفسي خلف جدران بيوت مهجورة، عتباتها مهدّمة، لم أتبيّن وجه راكبها حبيس الخوذة، وهو يقودها بسرعة جنونية حتّى إن أضواءها الأمامية تُومِض كظلال، تلاحق لصًّا، بدا ضوؤها ساطعًا في الظلام المتعاظم، ذكّرتْني أضواؤها بكاميرات الصحفيّيْن حين كانوا يزورون المخيّم، يسلطّون كاميراتهم على الوجوه الكالحة والجلود السوداء وهي تبتسم ببلاهة، كانت فلاشات كاميراتهم تخترق جوعنا وعريَنا، ونحن نلتمّ حولهم، كي يمدّونا بحياة أفضل، لكنهم كانوا ينبشون بحثًا عن الصورة الأسوأ، أشدّها بشاعة وقرفًا، أكثرها جوعًا وعُريًّا وحرمانًا، ليستعرضوا بؤسنا أمام العالم، هكذا يساعدوننا.

كان بعضهم يبكي، يتناهى إلينا صوت بكائهم، فيُدهشنا، فهم يرتدون أنظف الثياب، شعورهم مُسدَلَة، وهيئاتهم مرتّبة، ووجوههم تفيض بالصّحّة، وأجسادهم مشدودة، فلماذا كانوا يبكون؟ ظلّ هذا السؤال يؤرّق بالي أعوامًا، كلّما حوّلونا إلى صور.

بقيتُ أتقدّم بحذر حتّى وجدتُني أمام البناية التي دخلها خالي "منغستو" سابقًا، تفاجأتُ بالدّرّاجة النارية، ركنها صاحبها في الداخل، بالقرب من الحائط، وحين مشيتُ بمحاذاتها، علا صريخ قطّة، دستُ على ذيلها في الظلام، كانت تُرضع صغارها، هرولتُ مذعورًا نحو أسفل السلالم، وقبعتُ تحتها، كما في المرّة السابقة، بقيتُ حيث أنا كاتمًا أنفاسي، جاثيًا على ركبتَي، وصدري يعلو ويهبط، أصيخ، تنفّستُ الصعداء، ثمّ فكّرتُ أن أدور في المكان، علّني أجد حيّزًا سرِّيًّا، يفضي بي إلى الداخل أو حتّى كوّة تكون منفذًا لي.

وحين عدتُ أدراجي خائبًا، صدمني ضوء مصباح قوي، التصق على وجهي، جمد الدم في عروقي، لم أجد منفذًا للهرب، من أمامي مصباح باهر، ومن خلفي حائط مظلم، بدا الضوء تنّينًا يسلّط أواره على وجهي، وكنتُ أتّقيه بوضع كفّي على منتصف جبهتي، كي أتبيّن شيئًا، ولم أشعر سوى بكفَّيْن ضخمَيْن تحملاني عاليًا على كتفه الصلبة، كما لو أني كيس طحين.

طفقتُ أُوسوس بذعر: لا بدّ وأنني في كابوس كما تلك الليلة التي سقطتُ فيها في بئر النوم، حملتْني اليدان إلى مكان مضيء بفعل الشموع المتناثرة في كل مكان، شموع بمختلف الأنواع، صاحب الكتفَيْن العريضَتَيْن، أخذني إلى ممرّ على جانبَيْه غرف، يأتي منها أصوات وضحكات، ميّزت حديث بعض الأصوات بالأثيوبية والبنغالية.

وحين وصلنا إلى آخر الممرّ، دفع الباب بإحدى قَدَمَيْه، أسقطَني على سرير بلا فراش دون أن ينطق بحرف، ثمّ سمعتُ صوت قفل يُدار، وحينئذ تأكّدتُ أنني لستُ في حلم، بل في ورطة كبيرة.

بدت رائحة المكان عفنة، عَرَق وسجائر، وطعام فاسد، روائح ورد حادّة، وأصوات مختلطة. نمَتْ إلى أذني أصوات منبعثة من الجدران ما بين ضحكات وأحاديث، لم أتبيّن موضوعها بدقّة، منها صوت امرأة تتحدّث بلغة لم أفهمها، ومعها رجل يتحدّث بكلمات إنجليزية وعربية، لم تكن واضحة عبر الضّجّة المنبعثة من بقية الجدران، وضعت خَدّي على الحائط المقابل، سمعتُ امرأتَين تتحدّثان، إحداهما تبكي، والأخرى تواسيها، تركتُهما وألصقتُ أذني بالكامل جسدي إلى الحائط كسحلية، بدت الأصوات مشوّشة، نساء ورجال، أصوات متناقضة ما بين ضحك هستيري وبكاء، يتخلّلها صوت أُغنيّة، لم تكن عربية.

حاولتُ أن أجد لنفسي مهربًا من هذه الجدران، كانت الغرفة صغيرة، يضيئها مصباح فلوريسنت، يحاصر ضوءه طبقة كثيفة من الغبار وسط سقف متقشّر، جدران باهتة، عليها رسوم على هيئة قلوب مكسورة، ووجوه حزينة خربشت بقلم تلوين أسود، ولا توجد نافذة، في أحد جوانبها سرير لشخصَيْن وأريكة فاقعة اللون، قماشها متآكل، من أطرافها تتدلّى أحشاؤها الإسفنجية كأنها تستجدي.

طال مكوثي، واعتراني الخوف من ألا أعود إلى أمّي وأختي، اختلج شعور الخوف بالندم، وفكّرتُ لو أن وجودي طال هنا، فسأذكر عليهم اسم خالي "منغستو" أو "منصور" لكنْ، ماذا لو أن له اسمًا آخر؟ هذا الخاطر كاد أن يبدّدني من الهلع.

لم تطلْ هواجسي حتّى سمعتُ صوت المفتاح يُدار في القفل، دخل ثلاثة رجال، ميّزت من بينهم واحدًا، كان خالي "منغستو". سرت في أحشائي راحة مَنْ نجا من حبل المشنقة لمرآه، ولكنه حين رآني امتقع

وجهه، وسارع بخطواته نحوي، وقبل أن ينطق بأي كلمة رفع يده، وصفعني على وجهي، ثمّ خاطبني بعدها بهياج:

- ما الذي تفعله هنا، أيّها الأحمق؟!

أخرست الصفعةُ لساني، ثمّ تكلّم أحد الرجلَين، كان أفريقيًّا طويلاً، بنيته دسمة، ثمّة وشم مرسوم على هيئة خريطة مصغّرة على جانب وجهه الأيسر، قال بالأثيوبية:

- هل تعرفه؟

نحا به خالي "منغستو" إلى إحدى زوايا الغرفة، وطفقا يتحدّثان بصوت خافت بينما ظلّ الرجل الثالث يراقبني بوجه، تتكاثر فيه بثور داكنة، وحين فرغا من حديثهما الهامس مرّة والمحتدّ مرّات، تقدّم خالي نحوي، وخلتُ لوهلة أنه سيضربني مرّة أخرى، ليُفرغ غضبه عليّ، فوضعتُ يدي على رأسي، أحتمي بهما من الصفعات التي سأتلقّاها غير أنه جرّني من يدي إلى خارج المكان بعصبية.

وفي أثناء خروجنا من الباب، اصطدمنا بعدد من النساء الأفريقيات والآسيويات بتنانير قصيرة إلى ما فوق الركبة ووجوه ملطّخة بالأصباغ مع شعور مسدلة بألوان صاخبة، وكان خلفهنّ بعض الرجال بدو كحرّاس.

ظلّ خالي "منغستو" يدفعني طوال الطريق أمامه متوعّدًا:

- لا تعتقد بأنكَ نفذتَ منها .. لا تعتقد ذلك أبدًا .. ستدفع ثمن فعلتكَ، صدّقني.

كان يعرف بأنني لن أفتح فمي عن ما شاهدتُه وسمعتُه لأمّي أو لأختي،

ولعلهماّ كانتا تعرفان أيّ نوع من الأعمال يمارسها، ربمّا لهذا السبب، ظلّت أختي "عائشة" تُبقيني بعيدة عنه وعن عوالمه المشبوهة، لكنْ، ما الذي يعنيه بأنني لم أنفذ من قبضتهم .. من قبضة ذاك الأفريقي الضخم؟!

تغيّب "قاسم" عن اللعب معنا بالكرة لعدّة أيّام دون أن نعرف أسباب تغيّبه عنّا طوال تلك الفترة، حتّى نقل لنا "عبد الصمد" أن والده هدّده بفصله من المدرسة، إن لم يحضر حلقات دروسه مع أطفال آخرين، فقد استنكر أهل الحارة بأن يجري ابن المطوّع وراء كرة شيطانية بينما والده إمام المسجد يُقرئ كلام الله لصِبية آخرين.

بعد مرور أسبوع، وقف "قاسم" أمامنا بصحبة صبيّ، يرتدي ثياب أهل البلد "كندورة" ناصعة البياض ومَكوِيّة، وعلى رأسه شماغ أبيض وأحمر. لفت نظري نعله الجلدي اللامع .. ذكّرني بقَدَمي وبأقدام أطفال المخيّم، القَدَم المحظوظة تجد حذاء يغطّيها، وإن كان مثقوبًا أو مشقّقًا.

تنحنح "قاسم" بزهو وهو يقدّم لنا رفيقه الجديد:

- هادا "سيف" معي يهفز قران في مسجد بابا ..

صافحنا "سيف" وعلى وجهه الشاحب ابتسامة مطمئنّة، لم نكد نتعرّف إليه حتّى نادانا الرفاق، لنلعب الكرة، وانقسمْنا إلى فريقَيْن، كان "سيف" ضمن الفريق الآخر، تحمّس "عبد الصمد" والفريق الذي انضمّ لهو حين كانت الكرة مع "سيف" حاول "عبد الصمد" الاستيلاء عليها، واشتبكت أقدامهما بقوّة حتّى إن الغبار ثار من حولنا.

لم يتمكّن "عبد الصمد" من جلب الكرة إلا بعد أن دفع "سيف" بإحدى قَدَمَيْه، فتعثّر وسقط، حينها جرى "قاسم" عابس الوجه إلى موضع سقوط "سيف" صارخًا في وجه "عبد الصمد":

- انته شو يسوّي ..؟ هادا بيمار .. فيه عفريت، هرام ..!

خاف "عبد الصمد"، وتراجع بضع خطوات إلى الوراء، تفاجأ الرفاق بما تفوّه به "قاسم"، وبدا "سيف" محرجًا، ظلّ الصِّبية يتحدّثون منفعلين بلهجتهم، كي لا يفهمهم "سيف"، وهم يلومون "قاسم" على إحضار شخص مريض، وبه عفريت!

لم يقل "قاسم" شيئًا سوى أنه طلب من "سيف" وهو مطأطئ الرأس، وبصوت هامس أن يغادرا المكان سريعًا.

وفي اليوم التالي في المدرسة جاء "قاسم"، وجلس حيث كنتُ أجلس - وأنا أنتظر "عبد الصمد" الذي يزاحم عند المقصف المكتظّ، ليشتري لنفسه ماء ورقائق البطاطا - كان في فمه كلامًا يريد أن يقوله وقد كبر الفضول بداخلي عن الولد المَدعوّ "سيف" منذ البارحة، تُرى ما حكاية العفريت الذي يسكنه؟ لم أرغب في سؤال "قاسم"، لأنني أعرفه، ليس من النوع المكاشف لمشاعره، لذا أبقيتُ فمي مطبقًا والفضول يغلي في داخلي.

رآنا "عبد الصمد"، وكان يأكل من كيس الشيبس المفتوح، ويحمل قارورة الماء في اليد نفسها "كاد أن يغيّر وجهته غير أن "قاسمًا" نهض وتبعه وهو يقول له بنغمة رجاء:

- بليز "عبد الصمد" خلّي أنا يخبر شو سالفه .. بليز هبيبي "عبد الصمد" بس يسمع أنا شوية.

لكن "عبد الصمد" قال له بنبرة حازمة، ولأوّل مرّة أراه بهذا الحزم مذ عرفتُه:

- ما في كلام أنا وإنته روه. وأكّد على اللفظة بتصحيحها نزقًا: سير!

بدا "عبد الصمد" غاضبًا غير أن "قاسم" أكّد له بالأوردو بأنه سيوضح لنا الأمر في نهاية الدوام المدرسي في الحافلة، في أثناء رجوعنا إلى المنزل .. كنتُ قد بدأتُ أفهم بعض الجمل بلغتهم.

في الحافلة، اصطفّ ثلاثتنا جلوسًا في المقعد الأخير، توسّطنا "قاسم"، ليحدّثنا عن الولد المواطن "سيف"، تجاهلنا الضجيج، وتعارك الأولاد بالأيدي، وتقاذفهم بالعلب الفارغة .. أخبرنا أنه جاء أوّل مرّة مع والدته إلى بيتهم في المسجد، فقد سمعوا أن إمام المسجد الأفغاني يستطيع شفاء المرضى بالقرآن.

أخبرنا "قاسم" عن جشع والده، وسعيه لجمع المال، من خلال دروس تحفيظ القرآن، وادّعائه المعرفة بالطّبّ النبوي، وعلاج الناس بالقرآن. أخبرنا بلغة متشفّية وساخرة وقد عزم أكثر من مرّة أن ينتقم منه، ويبلغ الشرطة عن شعوذاته، لولا زوجة أبيه المسكينة، سألنا:

- أنا ما في يفهم هادا هرمة، كيف يسمع كلام بابا هرامي!

جاءت أمّ "سيف" تبكي، وترجوه أن يشفي ابنها المريض المسكون بالجنّ، علّق "قاسم" بسخرية:

- هادا أوّل يعالج شيتان مال هو أهسن!

بدأ يقرأ عليه بعض آيات من كتاب الله، وبعد كل قراءة ينفث على وجهه وكامل جسده كما يفعل معظم المطاوعة، وحين انتهى من ذلك

قدّم لأمّ "سيف" ماءً مقروءًا عليه، ليشرب منه "سيف" كل يوم، ويمسح به وجهه. وضعتْ في يده رزمة من المال.

تكاثر على منزل "قاسم" الملتصق بحائط المسجد أرتال من الناس لا سيّما النساء: واحدة تريد أن يحبّها زوجها، وأخرى تعتقد أنها مصابة بالعين، وثالثة ترغب في الزواج، ورابعة تريد ماءً مقروءًا عليه بآيات الله، لتغسل به كامل جسدها، فتتخلّص من وساوسها.

أصبح منزلهم أشبه بمزار، كل زائرة مسكونة بالعفاريت، تُغدق عليه المال، لم يكن أبو "قاسم" يحدّد مبلغًا معيّنًا، بل يترك لهنّ بذل ما يرينه مناسبًا، وكان بهذه الحيلة يكسب أضعاف ما كان يتوقّع.

وفي إحدى الزيارات، نقدتْه إحداهنّ ثلاثة آلاف، لأنه تمتم ببعض آيات على زجاجة زيت زيتون، تدهن به كامل جسمها قبل النوم، ليُبعد عنها العيون الحاسدة لها، فضلاً عن صناديق الزيت والمعلّبات وأشولة أرزّ وطحين والفواكه واللحوم الطازجة.

من هنا أدركتُ الحرّيّة المنفلتة التي تمتّع بها "قاسم" بعد ذاك السجن الذي حبسه فيه والده في الأعوام الأولى من قدومهم إلى هنا.

صارت مشاهد الثراء التي أشهدها منذ بدأت علاقتي بـ "سيف" تعذّبني، يا كارل، تعيدني إلى بلدي متذكّرًا؛ فأحصي الخيرات التي أتنعّم بها في ظلّ هذا البلد. "سيف" أكثر مَنْ كان يُشعرني بالفارق بين أوطاننا.

بمجرّد رؤيتي لحذائه اللامع، باهظ الثمن: تركض في رأسي أقدام مجهولة، أقدام حافية، قذرة، متشقّقة، مدمّاة ... كنتُ في المخيّم حافيًا كمعظم الصغار، أمّا الكبار، فكانت حاجتهم لما يقي أقدامهم أكثر منّا نحن الصغار الذين كنّا نادرًا ما نغادر المخيّم. الكبار كانوا يخترعون أحذيتهم من علب المياه البلاستيكية الكبيرة، ثمّ يُحدثون بها ثقوبًا ثلاث، ثقبَيْن في الأسفل متجاورَيْن، وثقب في المقدّمة عند الحافّة، ليعقدوها بحبل من المطّاط السميك أو قطعة قماش لا تنقطع بسهولة، ويمشون عليها .. تغدو محظوظًا، يا كارل، وأنتَ حافي القَدَمَيْن حين تتجنّب مسمارًا صدئًا أو قطعة زجاج تستهدف إحدى قَدَمَيْكَ. أمّا هنا، فقد لبستُ أنواعًا مختلفةً من الأحذية التي جلبتْها أمّي لي من بيوت مخدوميها. أحيانًا أحنّ إلى المشي حافيًا، في أحد الصباحات الصيفية، سرتُ مع أصدقائي إلى الرمال بلا نعال، طبعْنا أقدامنا بالغبار، نبتهج، لأنه يخفي جلدنا الداكن، كنّا أحيانًا نسكب الرمل على وجوهنا وسواعدنا وظهورنا وبطوننا وسيقاننا العظمية، كي نبتهج بلون أفتح، كانت تلك البهجة تتقهقر تدريجيًا، ففي فترة الظهيرة حين تكون الشمس شرسة، نضطرّ أن نقفز كالضفادع؛ لأن

الرمال تحت أقدامنا بدأت تحرقنا بلهيبها، كأننا نقف على موقد مشتعل، فنرقص ملسوعَين، ونستجير بكلّ ظلّ نصادفه، لنُريح أقدامنا، تعلّمنا من الظلال فضائل الدُّكنة.

وكلّما خلعتُ نفسي عن ذاكرتي الثقيلة، كنتُ أسألني عن معنى الوطن ..؟

ربّما لم أذق طعم الغربة التي يتحدّث عنها الناس المنفيون والهاربون والمشرّدون عن أوطانهم، ربّما لم أعِ حتّى في السنوات الأخيرة بأني شخص غريب في بلد غريب، بأني، كما ينعتونني، وافد أو أجنبي، كنتُ أستسيغ كلمة وافد، فنحن وافدون حقًّا على هذا البلد، ولسنا من سكّانه الأصليّين، من مواطنيه، من أهل بلده؛ لكن كلمة أجنبي كانت ثقيلة على روحي، سمعتُها لأوّل مرّة من خالي حين باغتَنا على حقيقة وضعنا هنا بأننا جاليات أجنبية، وعلينا ألا ننسى ذلك أو ننحرف عن هذا المعنى في كل فعل نمارسه أو خطوة نُقدِم عليها.

لقد ضايقتني هذه الكلمة، وأصبحتُ أسأل كل مَنْ حولي، بل صرتُ أؤكّد لهم بأنني لستُ أجنبيًا، أنا لستُ أمريكيًا أو فرنسيًا أو إيطاليًا، أنا عربي، ودمي عربي، وأتحدّث اللغة العربية، فكيف يمكن أن أكون أجنبيًا إذنْ؟!

مع مرور الزمن، أدركتُ معنى أنني غريب، معنى أن أنني أجنبي، معنى أنني وافد، معنى أن تكون في وطن، ليس وطنكَ.

لماذا يبدو الوافدون متوتّرين عند إنجاز أي معاملة رسمية؟!

"وافدون" أكثر لفظة كان خالي "منغستو" يطلقها في وجوهنا، كلّما

طلبت منه أمّي شيئًا أو حتّى أختي "عائشة"، ويظلّ يذكّرنا مرارًا بأننا مجرّد غرباء في هذا البلد، ولا يحقّ لنا أن نبدي ضيقًا من طريقة عيشنا، وعلينا أن نستغلّ بقاءنا هنا بالوسائل كافّة، كي نكسب أموالًا، لا أن نضيّع أوقاتنا في التّذمّر الفارغ.

كان يكرّرها بقسوة، ليفتح مداركنا على حقيقة وضعنا؛ فما تتعرّض له أو مهما تعرّضنا له، فهو في النهاية مجرّد تفريغ عابر، فنحن في أوطاننا كنّا نعاني أضعاف ما نعانيه كوافدين هنا. في أوطاننا، لم تكن حكوماتنا تبالي بنا أو تولي أدنى أهمّيّة لحقوقنا كمواطنين، فكيف لنا أن نطالب بحقوقنا كبشر هنا في دولة غريبة، لسنا من أهلها؟

نحن مجرّد وافدين، لا يحقّ لنا سوى أن نرضخ مهما بدت الأمور مستبدّة أو حتّى مُغرضة.كان معظمنا منصاعًا، صارت هذه اللفظة مع الزمن جزءًا من هويّتنا التي نُعرَف بها في هذا البلد مهما تباينت الدول التي تركْناها وراءنا، أو تركَتْنا وراءها.

حتّى المدرسة التي التحقتُ بها كانت كفيلة بتذكيرنا بأننا وافدون، فهي مدرسة خيرية للوافدين، لأمثالنا الذين تكون ظروفهم المعيشية صعبة، فلا يستطيع آباؤهم إلحاقهم بالمدارس الخاصّة التي تكلّف مبالغ باهظة، المبلغ يتضاعف، كلّما ارتقى في مقاعد الدراسة، أمّا المدارس الحكومية المجّانيّة، فقد كانت مخصّصة لأبناء البلد، هذا ما عرفتُه في سنوات التحاقي الأولى بالمدرسة الخيرية، غير أنها فتحت أبواب التسجيل لأبناء الوافدين وأبناء جزر القمر مقابل مبلغ سنوي ثابت على مدار سنوات الدراسة، فالتحق كثير من أصدقائي القمريّيْن بالمدارس الحكومية، لتكون دراستهم في الصباح لا في المساء. ما جعل بعض الأساتذة في مدرستنا يتخوّفون من فكرة إغلاق هذه المدارس الخيرية، إذا ما قلّ عدد القمريّين،

غير أن أعداد فصولنا ظلّت على حالها مكتظّة، بطلاب من جنسيات متعددة كانوا يتضاعفون على مدار العام، وأكثرهم من السوريّين .

كان معظم الأساتذة الوافدين مثلنا يذكّروننا دائمًا بفضل هذه المدرسة الخيرية علينا، ولولاها لبقينا أمّيّين، لا نعرف كيف نكتب أسماءنا أو نقرؤها، كلامهم رغم قسوته يلامس واقعنا بالفعل، لكنها لم تكن تجد صداها عند المشاغبين، بل على العكس ظلّوا يردّون باندفاع، بأن لولا وجودهم كوافدين هنا لما وُجِدت هذه المدارس، ولما حصل أولئك المعلّمون المتغطرسون على وظائف فيها، رغم ذلك لم يستطع بعضنا أن يُنكر الحقيقة التي وضعوها نصب أعيننا: أنتم غرباء.

في الأعوام الأخيرة اكتظّت الفصول بالطَّلَبة السوريّين بعد تفاقم أزمتهم حتّى اعتدْنا أن يلتحق كل ثلاثة أو خمسة منهم أسبوعيًا بالمدرسة على مدار العام الدراسي، وحين يستفسر أحد المعلّمين عن مكان قدومهم، يردّدون ببحّة حزن من الشام، وعلى الرغم ممّا فاتهم من دروس إلا أنهم يبلون جيّدًا، ويحصلون على علامات، تفوق أولئك الذين حضروا دروس الفصل بأكمله، وكان هذا الأمر يُدهش أغلب المعلّمين ويُسعدهم في آن.

كان ينتابهم القلق الذي انتابنا حين ولجنا المدرسة لأوّل مرّة، كنّا خائفين ومرتبكين، فالتزم كلّ منّا الجلوس بهدوء على مقعده خشية أن يسرق أحدهم مكانه أو لا يجد مقعدًا، فتفوته فرصة الدراسة، ولم نكن نعلم أن لكل منّا مهما تضاعف عددنا مقعدًا وطاولة، تقوم المدرسة بتوفيرهما مجّانًا مع الكُتُب المدرسية، لقد كان هذا البلد كريمًا معنا، على الرغم من كل شيء.

لقد كبرتُ مع كلمات الحلال والحرام، كبرتُ مع ما يجوز، وما لا يجوز،

مع المباح والممنوع، المباح الذي كان حلمًا، والممنوع الذي كان واقعًا، كبرتُ معها، وكبر معها كل أصدقائي في المدرسة الخيرية، وأساتذتي أيضًا، فكلنا وافدون، أجانب، كلنا نعيش في أرض ليست لنا، بل هي أرض مؤقّتة لإقامة متنقّلة نحن الممسوسون بلعنة الرحيل الأزليّ..

نحن الجوعى، نحن المُعدمون، نحن البدون، نعم، البدون، بدون أوطان حقيقية فأوطاننا تبرّأت منّا.

كثيرون كانوا بلا أوراق ثبوتيّة، وبعد مرور الزمن، حمّلتهم هذه البلاد وثائق دول أفريقية، لأنهم وجدوا أنفسهم أمام أزمة بشر بلا هويات، بلا انتماء، بلا وثائق رسمية، وهذا وضعهم أمام ضغط هائل من أمريكا وحقوق الإنسان، وفي بلاد أخرى، حُرموا حتّى من إنسانيّتهم، ومن ممارسة بعض حقوقهم الأساسية، ماتت الإنسانية، يا كارل، في بلاد المسلمين، وصرنا نسمع في فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية التي تغنّي بحقوق الإنسان عن مطاردة المساكين الهاربين من جحيم أوطانهم، ومن شراك المتطرّفين في بلادهم إلى بلاد اعتقدوا أنها أكثر أمانًا لهم، وأقلّ تطرّفًا، لكنها طاردتهم بدورها، بل اغتالت العشرات منهم، رغم ذلك، فالشعب الفرنسي أصيل وواعٍ، وكثيرون منهم انطلقوا للانضمام في تظاهرات مزّقوا فيها وثائقهم الرسمية احتجاجًا على اغتيال البدون ومطاردتهم، لمجرّد أنهم بلا وثائق رسمية.

نحن المعدمون، إذا وجدنا وجهة تكفل لنا الأمان مهما كانت صفتنا وافدين أو أجانب، فإنها ستكون كالجنّة التي لا نريد مغادرتها مطلقًا. نعم، لقد وجدتُ في ذاك البلد، يا كارل، الجنّة مقابل الجحيم الذي وجدتُه في بلدي، لديّ منزل جدرانه من طوب، لا من شرشف مهترئ، لديّ ملابس نظيفة، وفي قَدَمَيّ حذاء نظيف، وعلى ظهري حقيبة مدرسية

مليئة بالكُتب، وكان لي مقعد وكرسيّ وفصل دراسي يحتويني، ومعلّمون، وحافلة تقلّني إلى بيتي، كان لي ولي ولي .. كان لي جلّ ما أتمنّاه، وما كنتُ تمنّيتُه في وطني، كل ما تمنّاه أبناء وطني، لقد غادرنا أوطاننا، لأنها كانت تخلو من هذه الحاجات كلها.

لقد تركنا أوطاننا، لأنها خالية من الأمان رغم أنها فائضة بالأسلحة، في صغرنا، كنّا نعتقد أن السلاح وُجد لحمايتنا، ليحميَ الإنسان من الأشرار، لكنْ، عندما كبرنا قليلًا، كبرنا بمرور الأوغاد، بمرور المصائب والكوارث والمجاعات، لا بمرور الزمن، تكاثر السلاح، وصار بأيدينا، بأيدي الكبار منّا، صار يجلب لنا الشرور، يجلب لنا الجوع، ويهدم بيوتنا، ويبيد مَنْ نحبّهم، هذا السلاح هو مَنْ دمّر وطني، ووراء خراب الأوطان كلها.

فكما ترون، فإن أمامي طلاب عليّ أن أعطيهم دروسًا تعليمية في اللغة والرياضيات وبقية العلوم الأساسية. لعلّكَ ترى تلك اللوحة المعلّقة، يا كارل، هناك أعلى مدخل الخيمة؟ انظروا جميعكم، ستقرؤون بخطّ يدي عبارة (قاعة المحاضرات)، وهي خيمة، غرضها الأساسي إلقاء الدروس على التلاميذ. قبل حوالي عشرة أعوام، كنتُ أقف وراء السّبّورة والتلاميذ جالسون في صفوف على حصر مفروشة من تلك التي نتلقّاها من تبرّعات تصلنا من بعض المنظمات الخيرية. الأمور لا تمضي بالضبط كما نريد في البداية، لم تكن هناك من خيمة حتّى، كنتُ أُلقي الدروس في العراء، باستخدام سبورة اشتري طباشيرها من جيبي الخاص . إن الأمور تجري مجرى الفوضى هنا، وإن لم تزرع النظام زرعًا، فلن يحترمكَ أحد، وستأتي الأجيال من بعدنا، لتُكمل مسيرة دحر الجهل التي عايشناها وعاشها آباؤنا من قبل، لقد قاومتُ الدعوات المحبطة كلها ممّا أفعله، الناس هنا لا يريدون الاستمرار في الحياة إلا بالسرقة والاغتصاب واستغلال الضعاف،

لأنهم لم يروا شيئًا في حياتهم غير ما يشاهدونه في محيطهم، حتّى هذه الملابس التي نستتر بها الآن كانت في الماضي شيئًا غريبًا علينا، كنّا بالكاد نلتزم بستر عوراتنا، وصدقًا كنتُ لأكون مكان هؤلاء الناس، لولا أنني هاجرتُ قسرًا، أنا محاط بالخطايا، الخطايا التي أجرّها خلفي منذ كنتُ طفلًا، أحاول أن أحمي الصغار هنا من هذا التحطيم النفسي الذي يحيط بهم منذ طفولتهم، أحاول أن أحميهم من الوقوع ضحايا لأفكار متزمّتة، ضحايا أفكار تجّار الدِّين وتجّار السلاح وضحايا الصورة المسبَّقة للإعلام الأمريكي أيضًا.

ها أنا اليوم، ومنذ أكثر من خمس عشرة سنة، أعمل على نزع السلاح من أيدي الصغار هنا، نزعتُه منهم بتعليمهم، ودفعهم نحو أعمال، تنهض بهذه البلاد التي في طريقها إلى المعافاة يا كارل، نحن نشهد ما لم نشهده منذ عشرات السنين، لقد تراجعت تجارة الأسلحة، لقد تعلّم أبناء شعبي أن السلاح لم يكن يومًا طريق نجاتهم، ها هي مقاعد الدراسة متكدّسة بالرؤوس الصغيرة، بالعقول الناصعة، قريبًا سأبلغ الرابعة والأربعين، لقد تاهت طفولتي في طُرُقات منعرجة، لكن بعض ما بقي منّي يشهد نهوض هذا الوطن كشاهد على تاريخ قميء مضى ولن يعود، تاريخ صرنا نتحدّث عنه في هذا الفيلم الوثائقي كسيرة مَطويّة.

بسط "سيف" أمامنا قطعًا صغيرة ملوّنة بألوان فسفورية على هيئة كائنات مطّاطيّة بوجوه بشعة، وطفق يشرح لنا قواعد اللعبة التي قال إن اسمها "تراش باك" "The Trash Pack" أو "حاوية القمامة" . اللعبة عبارة عن حاويات قمامة بأشكال متباينة على هيئة دمى ملوّنة، تجسّد وحوشًا صغيرة كالتّنّين والطيور، الدجاج والديدان . قطع طريّة يمكن إلصاقها على الحائط أو الطاولة أو بواسطة القلم . مصنوعة من سائل مخاطي، يتطاير حوله الذباب . أخبرنا بحماس أن هذه اللعبة هي صرعة في الوقت الحالي في المدارس الصباحية.

"سيف" أصبح رفيقنا الرابع، فبعد أن حكى لنا "قاسم" حكايته تأثّر "عبد الصمد" وخجل من نفسه؛ لأنه تصرّف معه بفظاظة، ما جعله يلحّ على "قاسم" أن يصحبه معه، لنتعرّف عليه عن قرب.

طفق بصوته المهذّب، يحكي لنا أصول اللعبة حين لكزني "عبد الصمد"، ثمّ همس بأذني لأسأل "سيف" عن أصدقائه، فقد كانت لهجة "عبد الصمد" مكسّرة، وتخرج الحروف من لسانه ثقيلة، ما جعلني أنوب عنه، لأسأله .. تردّدتُ لوهلة، ولكنْ، حين أوقف "سيف" ما كان يوضّحه لنا، التفتَ نحوي، وسأل بتهذيب:

- هل ثمّة شيء، يا "فارح"؟ .. هل أُعيد شرح أصول اللعبة؟

حدّقتُ بدوري إلى وجه "عبد الصمد" بينما "قاسم" كان ينظر ناحيتنا، وبتردّد رميتُ سؤالي:

- هل لكَ أصدقاء، يا "سيف"؟

كأن السؤال أدهشه لوهلة، فتوقّف عن ما كان فيه، ثمّ نظر إلى وجهي مباشرة وهو يقول:

- كان لي أصدقاء في المدرسة، وفي الحيّ الذي أسكنه، لكنْ، كلهم تخلّوا عنّي .. صمت، ثمّ أضاف:

- لأنهم يخافون منّي .. قالها بنبرة حزينة، ورعشة تخلّلت صوته.

أُخرِستْ أصواتنا في حلوقنا، ونحن نسمعه بتأثّر بالغ، فحاول "قاسم" أن يُغيّر دفّة الحديث قائلاً بمرح:

- أنا في واجد يحبّ هادا لعبة مال هيوانات، انتو يحبّ هادا لعبة؟

ابتسم "عبد الصمد"، وهَمّ أن يقول شيئًا قبل أن يقاطعه "سيف" بصوت يريد أن يقرّ بكل شيء:

- أنا مريض، تحدث لي أمور، لا أفهمها، لكنْ، حين تأتيني الحالة، لا أتعرّف فيها على نفسي، وأغدو مخيفًا هكذا، قالت لي خادمتي حين كنتُ أسألها عن ما يحصل لي.

كنّا نُنصت له، ونحن ندرك أنه يتوجّع.

بعد مرور يومَيْن، جاءنا "قاسم"، وطلب منّا أن ننتظره، و"سيف" حين ينتهيان من حلقة الدرس في مسجد أبيه، كي نرافقه إلى مشاهدة مباراة،

تُقام في استاد النادي الرياضي القريب، وكان "سيف" يحبّ مشاهدة المباريات وحضورها للتشجيع.

ذهبتُ مع "عبد الصمد" إلى حيث كان كلّ من "قاسم" و"سيف" بانتظارنا، توجّهنا صوب الشارع، لنُوقِف سيّارة أجرة، وحين وصلنا، نقد "سيف" السائق، وما هي سوى دقائق حتّى بهتنا على صوت صرخة غريبة من "سيف"، امتقع وجه "قاسم"، وأدرك أن الحالة المرضية قد أتته، تبدّلت تقاطيع "سيف"، وظل يرتعش بطريقة مخيفة للغاية وهو يشّد نفسه وثمّة زبد يحيط بفمه، تحلّق حولنا الناس، وكان "عبد الصمد" خائفًا يبكي، جاءت سيّارة الإسعاف سريعًا، حيث كانت ترابط قرب الملعب، اقترب المسعف من "سيف"، أرجع رأسه إلى الخلف، فكّ أزرار القميص الرياضي الذي كان يرتديه، رأينا رغوة من اللعاب تسيل من فمه المرتعش، استمرّت النوبة لدقائق، ثمّ فجأة همد جسده، عرفنا حينها أن "سيف" قد أُغمي عليه، ممّا سهّل على رجال الإسعاف حمله إلى عربتهم التي ظلّت تومض بصوتها المزعج، وبقينا نحن مذهولين وسط الشارع، لا نعرف ماذا جرى بالضبط؟!

لا أعرف يومها كيف وصلتُ إلى البيت مع رجفة تهزّ جسدي كله؟ صدمت حالتي أختي "عائشة"، فأخذت تسألني بوجل:

- ما به وجهكَ شاحب هكذا، وكأنكَ رأيت ميتًا؟

كنتُ مستغرقًا في حَيْرتي، ولم أسمعها حتّى دنت منّي، وهزّت كتفي:

- ما بكَ؟

أجلستني قبالتها، فحكيتُ لها بصوت راعش ما رأيتُه، لم تندهش،

وأخبرتْني أن هذه الحالة اسمها الصَّرَع، سبق وصادفتْها، فقد مرّت بها فتاة في الحافلة التي تعمل بها كمشرفة، ويومها لم تعرف كيف تتصرّف .. كانت خائفة ممّا جعلها تطلب من السائق أن يسارع صوب أقرب مشفى، وحين علمت مديرة المدرسة وأهل الفتاة بالحالة، طلبوا منها أن تتّسم بالشجاعة أوّلًا، فهي حالة مَرَضية، لا تستدعي الفزع، بقدر ما تستدعي حسن التصرّف في أثناء وقوعها، ثمّ أملوا عليها الخطوات اللازمة التي عليها اتّباعها في حال وقوع الحالة.

كانت أمّي تسمع حديثنا، فشاركتْنا بقولها:

- حين كنتُ في المخيّم، صادفتُ في صغري الحالة نفسها، رأيتُ عجوزًا تُدني من فم المصاب قطعة قماش في أثناء النوبة، كي لا يقوم بعضّ لسانه أو يضعون له في فمه مفتاحًا لتتلقّى الشحنات عن المصاب.

ثمّ تابعت قولها بعد أن تنهّدت من التعب:

- هناك مَنْ كان يطعمهم البرقوق أفريكانا.

حين قابلتُ "سيف" لأوّل مرّة، كنتُ أعتقد أنه طفل متعالٍ وثريّ، طفل محظوظ يملك كل شيء، وطنًا آمنًا وأسرة متكاملة، طفل لم يفهم معنى الحرمان يومًا، جيوبه فائضة بالمال يقتني كل ما يتمنّاه، ما يفيض عن الحاجة أيضًا، طفل لا يعلم ما هي الحاجة؟ ما معنى أن تكون جائعًا؟ أن تكون بلا مأوى؟ كل ما حوله مجّانيّ في وطنه، المدرسة والبيت والوظيفة.

ولكنْ، حين تعرّفتُ عليه عن قرب، رأيتُه مثلنا، رأيتُ أن تلك الوجوه الباسمة تخفي وراءها أرطالًا من الوجع، أدركتُ جيّدًا أنهم يتألّمون مثلنا،

وإن اختلفت الأسباب، إن غدت آلامهم أحيانًا ترفًا لأمثالنا نحن الذين كأنما وجدت أوجاع العالم كلها، كي تتكالب علينا.

هل الله عادل، يا كارل؟

سلب منّي الوطن والأمان والأب مع أمّ مريضة، ولكنني أتمتّع بصحّة جيّدة، بينما "سيف" لديه كل شيء، لكنه عليل، وسيظلّ هذا المرض يعكّر صفو حياته.

كان بناءً كبيراً في حيّ فاره، لقد اختاروا هذا المكان بعناية، ليبدّدوا عنهم الشبهات، فأصحاب هذه الأماكن يعرفون كيف يُحصّنون أنفسهم وبيوتهم من الآخرين.

معظم تلك البيوت كانت تضع كاميرات مراقبة، الأحياء والشوارع المحيطة بها صارت محاطة بكاميرات لمراقبة الأرجاء في حال وقوع أي أمر سيّئ. البيوت الفخمة لا يوجد بداخلها سوى خادمات، إنها ملك للخادمات طوال فترة الصباح، يفعلنَ فيها ما يحلو لهنّ، يُدخلنَ مَنْ يرغبنَ، ويستطعنَ بمهارةٍ الاحتيال على عين الكاميرا المثبّتة أمام الباب الرئيس. كانوا يعرفون ذلك، لهذا انتقوا هذا البيت بعينه دون البيوت الأخرى، هذا البيت يقع في أقصى الحيّ، حيث الشارع مسدود، يطلّ على علو شاهق، يُظهِر مدى ارتفاع الحيّ عن مساحة الأرض، البيت له بابان، باب كبير رئيس، تدخل السّيّارات إلى مرآبها دون أن يراها الآخرون، دون أن يعرفوا ما بها.

لحظة دخول السّيّارة يقفل الباب الكبير من تلقاء نفسه بكبسة زرّ، فيعود كل شيء إلى حاله، يدخلون بشكل رسمي، ويخرجون بالطريقة نفسها مبدّدين الشكوك كلها عن أنفسهم، بارتداء ملابس، تماثل ملابس أهل البلد، ويخفون أعينهم خلف نظّارات سوداء، ذلك كفيل بإخفاء شخصياتهم، بقاؤهم هنا لأعوام طويلة، واختلاطهم بالناس من أهلها

جعلهم يعرفون كل شيء عنهم، ويجيدون تقليد عاداتهم اليومية، لقد صرتُ أمام تحدٍّ كبير، وأعي أن عليّ أن أخوضه، فتلك البيوت لها عدّة مخارج، لم يكن لديّ خيار للولوج إلى البيت سوى الباب الخلفي، حيث لا يوجد أحد هناك، لكنه كان مقفلاً، لم يبقَ أمامي سوى أن أتسلّق الجدار، وقد اعتدتُ تسلّق الجدران مذ جئتُ إلى هنا، وجود البيوت ذات الجدران معجزة بالنسبة إليّ ولمَنْ جاء من أرض بيوتها من أقمشة مهترئة، تخمشها الريح بسطوتها، الجدران أشعرتْني منذ جسّها بالحماية والأمان الذي افتقدتُه لوقت طويل، لو أن بيوتنا هناك من جدران!

كان عليّ أن أضع قَدَمي على أكرة الباب الحديدي، لم يكن الحائط عاليًا، وغدا الهبوط من عليه يسيراً، لقد اعتليتُ من قبل جدرانًا شاهقة، كرجل عنكبوت متمرّس، تقدّمتُ بحذر، أمامي ردهة ضيّقة، عليّ أن أقطعها قبل أن أبلغ النوافذ التي تطلّ على الداخل، حيث مكبّ الأسرار.

النافذة الأولى تُظهِر غرفة واسعة، يبدو أنها صالة البيت، توزّعت مقاعد قصيرة الأرجل على حوافّها الدائرية، بدت جديدة، يتوسّطها طاولة مستطيلة، عليها بقايا طعام مع أكواب بلاستيكية للشاي، لم يكن هناك إضاءة، لكن أشعّة الشمس تسلّلت بكرم من النافذة، لم يكن ثمّة أحد، لا بدّ وأنهم في إحدى الغرف المجاورة.

زحفتُ بحذر على أنامل قَدَمَيّ حتّى وصلتُ النافذة الأخرى، رأيتُ غرفة فسيحة، تعمّها فوضى، كانت بطّانيّات النوم مَرمية هنا وهناك، قدّرتُ عددهم في حدود عشرة أنفار، ملابس مَرمية على الأرض، وبعضها يتدلّى من حوافّ صندوق كرتوني، كان لثلاجة ربّما أو غسّالة، قوارير فارغة من الماء، وبعضها مملوءة حتّى منتصفها، علب سجائر ومنفضة فائضة بالأعقاب وعلب بيرة بجانب أحد الأكياس البلاستيكية، بدا كل

شيء واضحًا أمام النافذة، حيث أقف، ولكنْ، لا أثر لآدمي، هل ذهبوا إلى مكان آخر؟ هل أدخل لأتيقّن من وجودهم؟ لكن السّيّارة مصفوفة في المَرْأَب، لقد تبعتُهم، ورأيتُهم يلجون المكان بأمّ عيني.

علي أن أواصل تقدّمي، لعلّهم في مكان ما، في مكان سرّيّ. طالما احتوت هذه الفلل على أماكن مَخفية، على دهاليز، وعلى أبواب تفضي لأبواب، وعليّ أن أدخل من الباب الذي يفضي إلى الغرف، ها هو، سأدفعه بيدي بحذر، لكن الدفع استعصى عليّ، يبدو أنه مقفل، لم أيأس، تعلّمتُ ألا أيأس، حين ضاعفتُ من قوّة الدفع، انفتح، تسلّلتُ بهدوء إلى الصالة التي شاهدتُها من النافذة، يوجد حمّام ومطبخ بجانبها، وباب يفضي إلى الغرف الأخرى، وهناك سلّم يقود إلى الطابق الثاني، وقفتُ لدقائق، أمسح المكان بعيني، لمحتُ في الأسفل على البلاط الجديد آثار تراب، إنها آثار أحذيتهم، هكذا قدّرتُ، فتبعتُها. كانت تقود إلى الممرّ المفضي إلى الغرف.

خشيتُ أن يُصدِر الباب صريرًا، يفضح وجودي، فكرّتُ للحظة أن الباب لو أصدر صوتًا، فلن يسمعه أحد، لأن أصوات المكيّفات ستغطّي على الأصوات المنبعثة كلها من الخارج، لذا تقدّمتُ بخطوات خفيفة، في آخر الممرّ الطويل سُلّم يقود إلى أعلى، حاولتُ أن ألقي نظرة على كل غرفة، الأبواب مشرعة، وكانت الغرف فارغة إلا من أثاث بسيط، لأشخاص انتقلوا للمكان حديثًا، سمعتُ همهمات أصوات في الأعلى، زحف الخوف إلى قلبي، ماذا سيفعلون بي، لو وقعتُ في قبضتهم؟

لقد قُدّر لي أن أكون شريكًا في مؤامرة رغمًا عنّي، لأنتشل روحًا أحبّها من عذاباتها، لقد أدركتُ أنني في عالم، ما عادت الصلوات فيها تكفي، ما عادت تمنح السلام لأرواح سلخت حتّى العظم من الألم، لقد دعوتُ

ربيّ كثيراً، تضعضعتْ ضلوعي من انتحابات التّبتّل، رغم ذلك كله، لم تبرأ روحها المرهقة، إنها تكاد تتلاشى من الوجع، وأنا عاجز أمامها.

متفصّدًا بالعَرَق أرتقي السّلالم، وخوفي يرشح مع كل خطوة أخطوها نحوهم، لم تُخطئ أذناي ما ألتقطه من خشخشة أصوات، تتّضح معالمها كلّما دنوتُ من نهايات السّلّم. وجدتُ نفسي أمام صالة مربّعة، يحيط بها ثلاثة أبواب، ويصدر من أحدها أصوات لاهثة وقرقعة أدوات.

بدا الباب الذي يُصدِر أصواتًا من خلفي مواربًا، كل ما أحتاجه نافذة، ولا توجد أي واحدة، أطلّ منها، لا مدخل أمامي سوى الباب الشاخص قبالتي. حين أطللتُ منه شاهدتُ ثلاجة كبيرة لحفظ اللحوم، وسرير يحيط به خمسة أشخاص، تعرّفتُ على أحدهم، فلا يمكن أن أخطئ تدويرة رأسه المشعثة.

كانوا مشغولين بأمر ما، لا أعرف بالضبط ما هو؟

الرؤية تكاد تكون محجوبة، ما عليّ سوى أن أزحف إلى داخل الغرفة، وأحجب جسدي الهزيل خلف الثلاجة أو خلف أي شيء أراه هناك، إنها فرصتي الوحيدة، لأحيط بالتفاصيل التي أقصوني عنها.

زحفتُ على أربع نحو غرفة صغيرة أشبه بمستودع، امتلأتُ بالغبطة لمرآها. مكان مثالي للاختباء وفق حاجتي تمامًا، إنهم منهمكون في عمل ما، الغرفة مستطيلة، بها ثلاجتان كبيرتان ونافذة في الأعلى، نافذة تطلّ على الغرفة المجاورة التي تسلّلتُ منها، الظروف كلها تقف إلى جانبي، تأكدت من هذا أكثر حين رأيتُ منضدة صغيرة أمامي تصلح، لأصعد عليها، فأشاهدهم عن بُعد.

بحذر، سحبتُ المنضدة، صعدتُ عليها حتّى تكون الرؤية أكثر وضوحًا، هالني منظر جسد مسجّى، ينزف بغزارة، ورجل في هيئة طبيب بمريوله الأبيض، يضع مباضعه على الجسد، يبدو أنهم يُجرون عملية، وحين أبصرتُ وجه الجسد المسجّى صُعقتُ، لقد كان هذا الوجه يكلّمني قبل دقائق، يخاطبني بأبوّة حانية عن ابنه فهد، لا أعرف كيف خرجتُ من ذلك المكان، لا أعرف سوى أنني صرتُ أعرف كل شيء.



استيقظتُ على صوت أختي "عائشة"، وقد بسطت الجريدة أمامها، تقرأ لأمّي خبر مداهمة الشرطة لوكر الخادمات الهاربات، كنّ من جنسيات مختلفة، من أثيوبيا وتنزانيا وأندونيسيا، ومن البنغلاديش والفليبين، داهمتهنّ الشرطة بعد أن اكتشفت مقرّ تواجدهنّ، عمارة اختبأنَ فيها طمعًا في ثراء شخصي بعيدًا عن قيود البيوت المرفّهة، بناء مهجور في حيّ مَنسي.

حين سمعت أختي "عائشة" تقرأ تفاصيل الخبر اجتاحني خوف مفاجئ، وتسارعت معه دقّات قلبي بشدّة، ولا أدري ما السبب؟ شاهدتُ الصور المعروضة التي رافقت الخبر، كانت أعينهم مظلّلة بالسواد، واقفين في المكان الذي أطلقت عليه الشرطة وكر الدعارة، لوهلة لم أفهم معنى "دعارة"، تردّدتُ في سؤال أختي "عائشة" عنها، وخشيتُ أن تكون كلمة غير لائقة، تأكّدتْ شكوكي حين رأيتُ في الصورة الجدران والنوافذ، إنّه الوكر نفسه الذي احتُجزتُ في غرفة من غرفه الضّيّقة ذات الرائحة الكريهة والأصوات البذيئة التي تردّد صداها بين الجدران، الوكر نفسه يتردّد عليه خالي "منغستو".

قرّبتُ الجريدة من ناظري، تمليّتُ بتركيز الصور المظلّلة، علنّي أتبيّن ملامح خالي من بينها غير أني لم أجده بينهم، أكثرها صور نساء، ظُلّلت أعينهنّ، كما ظُلّلت أجزاء من أجسادهنّ المكشوفة، فالصحف هنا تغطّي عورات النساء مراعاة للمجتمع المحافظ.

خالي "منغستو" ظلّ مختفيًا طوال تلك المدّة، خيّل إليّ أنه كان متخفّيًا أو هاربًا من الشرطة، لكنْ، بعد أسبوعَيْن، جاءنا وكأن شيئًا لم يكن، بدت ملامحه باردة وخالية من أي تعبير، يفضح المصيبة التي ألمّت به أو برفاقه.

بل على العكس من ذلك، جاءنا وفي طيّاته أخبار، فاجأت توقّعاتي تمامًا، تقرّب جالسًا من أمّي طريحة الفراش، ليُخبرها بصوت منكّه بالوعود الضخمة بأن وضعنا سيتغيّر، وهناك خيرات في طريقها إلينا، ووعود للإقامة بقية حياتنا في هذا البلد، وكأننا من أبنائه، بل إن صحّة أمّي وحياتها ستتحسّن، ويمكن إدخالها أفضل المستشفيات أو حتّى إرسالها عبر طائرة خاصّة إلى الخارج للعلاج، ظلّت أمّي مبهوتة، وهي تستمع إلى خالي "منغستو"، بينما أختي "عائشة" بقيت صامتة، ترمقه بازدراء، فهي تعرف أن تلك الحزم من الوعود وقناعه المبتسم يخفي وراءها مصلحة ما أو غاية يريد بلوغها من خلالنا.

ولم يخب ظنّ أختي "عائشة"، فبعد استعراض الوعود والأحلام التي جرّنا خلفها، والتي أفلحت نوعًا ما في التأثير على أمّي، قال عبارة فاجأتنا جميعًا:

- ثمّة رجل ثري من أهل البلد يريد الزواج منكِ، يا "عائشة"..

بقيت أختي مشدوهة، كما لو أنها تمثال حجري، بينما تحرّكت أمّي في فرشتها، وحاولت أن تجلس مسندة ظهرها للجدار، لتتأكّد ممّا قاله خالي "منغستو" بينما بدوتُ أنا وكأني غير موجود، كأنهم كانوا جميعًا داخل لوحة، وأنا خارجها.

قطعت أمّي حالة السكون التي سادت في أجواء الغرفة بصوتها المتعب:

- مَنْ هو، يا "منغستو"، تكلّمْ، هل هو رجل جيّد؟

ردّ عليها بلهجة فيها كثير من الإغراء:

- أختي، ستكونون أثرياء، حياتكم كلها ستتبدّل، لن تضطرّ "عائشة" بعد الآن للعمل، ولن تخشي على مستقبل "فارح" في هذا البلد، سيكون من أهلها، سيكون فردًا من أفرادها، له حقوقه المكفولة، سيكون لديه عمل مضمون، وإقامة أبدية، وأموال كثيرة، وأنتِ أيضًا، ستُزرع لكِ كلية، وستعيشين بقية أيّامكِ في دعة.

حدّثنا خالي متحمّسًا عن الرجل الثري الذي عناه، لم يكن سوى ذاك الرجل السمين صاحب النّظّارات السوداء وصاحب بيوت المستأجرين، الرجل كما أخبرنا خالي طلّق إحدى زوجاته الأربع، ليتمكّن من الزواج من "عائشة" التي وقعت في قلبه منذ رآها أوّل مرّة حين جاء لقبض الإيجارات.

اعتاد الرجل السمين أن يمرّ كل آخر شهر لقبض الإيجارات من العمّال المقيمين، كان المجمّع كما يفضّل خالي تسميته يضمّ حوالي مئتَي عامل، أكثرهم من البنغاليّيْن وبعض الأفارقة من تنزانيا وأثيوبيا والباكستانيّيْن، وكنّا وحدنا من الصومال.

صُعقت أختي "عائشة" من الخبر الذي سمعتْه، فالزواج هو آخر ما كانت تفكّر فيه في ظلّ تفاقم حالة أمّي المرضية، تذكّرت اليوم الذي قابلت فيه الرجل السمين صاحب النّظّارات السوداء حين دلف محلّ إقامتنا دون أن يقرع الباب، يومئذ، كانت أمّي نائمة بينما ظلت هي تغسل الثياب، واعتادت حين تقوم بذلك أن ترتدي لباسًا قصيرًا، كي لا يتبلّل بالماء، فلم نكن نملك غسّالة، بل تقوم بدَعْك الثياب بيَدَيْها، وحين تنتهي، تضع على نفسها عباءتها، لتقوم بنشرها في الخارج على حبل قمْنا بتثبيته بعمودَيْن من الخشب.

في نهارها ذاك، فوجئتْ برجل يحدِّق بوقاحة إليها، فصرخت فيه بحنق:

- اخرجْ من هنا .. مَنْ أنتَ ..؟ مَنْ سمح لكَ بالدخول هنا؟

أفاقت أمّي على صوتها الحادّ، وولج خالي "منغستو" الغرفة مسرعًا، وقف الرجل الغريب يكرّر بأنه صاحب المجمّع، وجاء ليُلقي نظرة على المكان والمستأجرين، مبرّرًا دخوله بدون استئذان بأنه كان يعتقد بأنها مسكن أحد العمّال، غير أنها ظلّت حانقة من طريقة اقتحامه لحرمة البيوت، على الرغم من محاولات خالي "منغستو" كلها لتبرير دخوله.

تغيّرت أختي "عائشة" مذ تركنا مخيّم "بوصاصو"، وكأنها مسحت ذاكرتها، وارتدت طباعًا غير طباعها التي اعتدناها هناك، هنا لا تجد نساء في الشارع يمشينَ على أقدامهنّ إلا نادرًا، والسّيّارات في كل بقعة، لا توجد نساء يجمعنَ القمامة أو يغسلنَ الملابس في البيوت المتفرّقة، ففي كل بيت خادمتان أو ثلاث، حتّى الخدمة في البيوت ليست بتلك السهولة، بل يجب أن تملك الخادمة وثائق للخدمة، لمدّة لا تقلّ عن عامَيْن، والشرطة تمنع أي امرأة تجلس في الشارع تستجدي المال.

أمّا في مخيّم "بوصاصو"، فالنساء لا يعدنَ لبيوتهنّ أو لمخيّماتهنّ إلا حين تغيب الشمس، وتضطرّ إحداهنّ إلى العمل طوال الليل لإطعام الأفواه الجائعة، ولا تهمّ هويّتكَ في العمل ولا اسمكَ، لا عمركَ، ولا دينكَ، حين تنجز عملكَ، تستلم أجركَ، وهكذا تسير الأمور، تغدو الحياة مطاردة شرسة وراء لقمة العيش، فهي امتداد لحيوات أخرى، تتبرعم بفضل وجودكَ!

أدركت أختي "عائشة" بعد أن فقدت جنينها أن الطفلة التي كانتها كبرت وتبدّدت أحلامها كلها، فتلك الطعنة خرقت براءتها، وجعلتها تبغض الرجال، الرجال الذين يتركون كل شيء خلفهم مثل أبي لاهثين وراء أمجادهم

الخاصّة، والرجال أمثال الرجل الذي أجبرها على أن تمنحه نفسها، كي لا نموت جوعًا.

ألزمها هنا خالي على ارتداء العباءة السوداء، لتكون شبيهة ببنات البلد أو بأولئك العاهرات اللاتي غدونَ يرتدينَ الخرقة السوداء لإرضاء الرجال هنا، ولإضفاء مزيد من الغنج والإغراء، ولدرء الشبهة عنهنّ كأجنبيات حين يكنّ برفقة رجال من أهل البلد، لكن تلك العباءة أضفت عليها سِحْرًا، وجدت فيها ملاذًا، لتخفي في اتّساعها فواكه جسدها.

تلك العباءة قلبت كيانها كلّيًا، كأنها كانت أداة صلة ما بينها وربّها، حتّى في أوقات الصلاة تلفّ نفسها بها، أحيانًا تجلس بالقرب من أمّي، ثمّ تضع راحة يدها على رأسها، وتبدأ ترتّل بروح مشبعة بالإيمان، وبأجفان مسدلة آية الكرسي أو تردّد الفاتحة سبع مرّات، وأحيانًا تجعل أمّي هي الأخرى ترتّل ما حفظتْه من الإنجيل، أمّي بدورها كانت تطلب منها أن تقرأ لها آيات قرآنية بصوتها العذب، وتقول إنّ ذلك يُريحها.

استيقظت أمّي من نومها على ألم حادّ في كليتها اليمنى، وأختي بالقرب منها تبكي بصوت مكتوم، كنتُ تحت لحافي مشوّشًا، أُقلّب تفكيري فيما عرضه خالي "منغستو"، لم يطرأ ببالي قطّ فكرة زواج أختي، ورحيلها بعيدًا عنّا، ماذا سيحلّ بي وأمّي إذا ما غادرتْ وتركتْنا وحدنا مع خالي؟!

في صباح اليوم التالي، ساءت حالة أمّي كثيرًا، واضطرّت أختي، على الرغم من التكاليف الباهظة إلى إدخالها المشفى دون أن تفكّر في عواقب ذلك، أجمع الأطبّاء أن حالتها الصّحّيّة سيّئة، ولا بدّ من زرع كلية مناسبة للمريضة.

قال يومها الطبيب كلامًا طبيًّا، لم يستوعبه فكري الغضّ، ولكن كل ما عرفتُه أن أمّي بحاجة ملحّة لزراعة كلية، حين فشلتْ حالة تطابق الأنسجة بين أمّي وأختي طلب منها الطبيب إيجاد كلية شخص يقبل بالتّبرّع مقابل مبلغ من المال، لم يكن من السهل الحصول على متبرّع، وكان السعي لنشر إعلان في الصحف لا بدّ منه، تبرّعت إحدى الجمعيات الخيرية بنشر الإعلان، والمساعدة بمبلغ من المال، في حال وجود متبرّع، يبدو أن مرض أمّي ودخولها المستشفى جاء في صالح خالي "منغستو"، فقد رجت أمّي أختي "عائشة" أن تقبل بعرض خالي، لأنها لن تستطيع تحمّل التكاليف الباهظة.

كان هذا الخبر معزّزًا لعرض الزواج وإتمامه، فبعد عشرة أيّام، جاء خالي برفقة الرجل السمين صاحب النّظّارات لخطبة أختي بشكل رسمي، واتّفقا على تفاصيل الزواج بعد ستّة أيّام من استلام المهر.

المهر الذي دفعتْه أختي "عائشة" لتكاليف علاج أمّي في المشفى، كانت تعلم أن ما قبضه خالي "منغستو" أضعاف المبلغ الذي قُدِّم لها، ولكنها أصرّت على شروطها لقبول الزواج، من أهمّها أن ننتقل أنا وأمّي للعيش معها في بيت واحد، وأن يسمح لها الرجل بالعمل كي تُعيلني وأمّي، وأن تتحمّل تكاليف زرع كلية لأمّي في حال وجود متبرّع.

لم تكن تعلم أن بمجرّد قرانها على الرجل ستختفي من حياتنا تمامًا، وستقيم في مكان، فرضه عليها الرجل السمين الذي تزوّجتْه، بيت كبير تقتسمه زوجاته السابقات، إحداهنّ كانت من الفلبين والأخرى من أندونيسيا، أمّا زوجته الأولى، والتي هي من أهل البلد، فتقيم في بيت مستقلّ من طابقَين.

مازلتُ أتذكّر تفاصيل المكان، كما لو أنني تركتُه البارحة، يا عزيزي كارل، كان الهنود يشكّلون ظاهرة غريبة، يحتشدون مع بعضهم، وأحيانًا تحوي الغرفة الواحدة أكثر من عشرة أنفار، لم يكن يهمّهم سعة المكان، بل يكفيهم أن يجدوا حيّزًا لنومهم فحسب، يسعون للعمل، ولا يهمّهم نوعيّته، ولا صعوبته، ولا تهمّهم الوسيلة إلى سبيل الكسب، أمّا البنغاليون، فبعضهم يسعى للحيلة لكسب إضافي، وقد رأيتُ ذلك بأمّ عيني، كان صاحب البقالة البنغالي الذي كنتُ أجلب منه ما يطلبه خالي "منغستو" يبدّل أسعار بضاعته المعروضة حسب الأشخاص، فيرفعها على أصحاب السّيّارات التي تزمّر أمام البقالة وهم في عجلة من أمرهم، تتبدّل أسعارهم تبعًا لجنسياتهم، ولأوضاع سيّاراتهم أيضًا، فالذين يرتدون لباس أهل البلد كان البنغالي يضاعف سعر البضاعة عليهم دون أن يشعروا بذلك، لأنهم يشترون بالمجموع، وكذلك حال أصحاب السّيّارات الفارهة، ويتجنّب الاحتيال على مَنْ يبدون حريصين أو محتاجين.

العمّال لم يكونوا يتذمّرون البتّة، بل كانوا موقنين أنّ القدير منحهم هذه الأجساد الصحيحة، كي تكسب لقمة عيشها، لذا حين كان أحدهم يتعرّض لوعكة صحّيّة عابرة يلمّ به الذعر، كانت صحّتهم رأس مالهم، يعيشون هنا بأجسادٍ لم تذقْ طوال إقامتها في هذا البلد سوى العمل المضني حتّى إنني كنتُ أتساءل أحيانًا حين أجدهم عائدين من نهار عمل مكثّف إلى

غرفهم المهدّمة بأسمالهم البالية ووجوههم الشاحبة، وأحداقهم الذابلة وأيديهم اليابسة: هل هم عاجزون لهذه الدرجة عن الاهتمام بأجسادهم المعطوبة ومظهرهم كبشر؟

غير أنهم يتحوّلون في يوم الجمعة، اليوم الوحيد الذي يتهندمون فيه كأنه اليوم الأوّل لهم في هذه الحياة، يمنحون أنفسهم ما حُرموا منه طوال بقية أيّام الأسبوع، وفجأة يغدو كل شيء مباحًا، ثياب نظيفة، ورائحة الحموضة تتراجع عن أجسادهم بعطورهم الرخيصة، إنهم في يومهم المقدّس يخرجون من بيوتهم، لا للعمل كآلات، بل للقاء أصدقائهم، وللذهاب إلى أماكن عامّة، للترويح عن أنفسهم، هناك يفترشون العشب والأرصفة المعبّدة حتّى مغيب الشمس، ومنهم مَنْ يختار الذهاب إلى المجمّعات التجارية، لا لتبديد المال في التّسوّق، بل لتناول وجبة من مطاعم تفوح منها رائحة توابل أوطانهم، ليشاطروا أحبّاءهم وجبة معدّة بنكتهم.

عدا يوم الجمعة كانوا مجرّد أجساد تتحرّك صوب أعمالهم، بينما عقولهم وكامل فكرهم تسرح بعيدًا في بلدانهم مع زوجاتهم وصغارهم الذين تركوهم هناك. هذا الخيال كفيل بأن يُبقيهم أحياء، بأن يُشعرهم بلذّة ما يفعلونه، كفيل بتذويب تلك المرارة كلها التي ترسّبت في أعماقهم، كفيل في مَدّ أطرافهم المتشقّقة بروح الحياة، لذا كانوا يبدون في تمام الرضى، مقتنعين بأنهم نالوا فرصة عمل في بلد نفطي ثريّ، مرتاحون بأنهم سبب في توفير مستقبل أفضل لأبنائهم، وهم على يقين بأن أجسادهم المعطوبة ستجد يومًا ما سعادتها القصوى، من خلال أبنائهم وأحفادهم، حتّى لا تذهب تضحياتهم سدىً.

كارل: يوم الجمعة هو يوم إجازة ويوم عبادة، المساجد تعمّر في هذه الديار أكثر من أي مبان أخرى، ويحدث أن الحيّ الواحد يوجد فيه مسجدان أو ثلاثة، وفي بعض الأحياء القريبة ستّة مساجد!

أغبط كلًا من "قاسم" و"عبد الصمد" ورفقاء المدرسة، لأنهم يملكون ما لا أملك، يملكون آباءً. في كل مرّة حين كانوا ينطقون على مسمعي لفظة: بابا .. أبّا .. أبوي. وفقًا للهجاتهم أو ذاك اللفظ الغريب الذي عكف "عبد الصمد" ينادي به والده "باباجي" كنّا نشعر بعذوبتها رغم أنها، في الوقت نفسه، تُضحكنا جميعًا، وكنتُ في أعماقي أغبطه، أغبطه بشدّة.

لكن المرارة تفتّقت في داخلي حين كتب معلّم اللغة العربية الأستاذ "عطية حسني" على السّبّورة سؤال التعبير الكتابي بخطّ القلم الأسود: اكتبْ في حدود سبعة أسطر عن إيثار الوالدَيْن، ودور كل منهما لتقوية دعائم الأسرة.

عمّ أكتب؟ عن أمّ مكلومة، وعن أب ميت، لم أره قطّ؟ أبي لم يترك لي سوى اسمه "حسنو"، حكايته قصيرة كحياته وحياة والدَيْه .. لم أعرفه سوى عبر حكايات أختي "عائشة". حين كانت تحكي عنه، كنتُ أشعر وكأنه شخصية في كتاب!

كان صيّادًا بسيطًا، لم يعرف في حياته سوى البحر وملوحته حتّى قيل إنه وُلد في البحر حين كانت أمّه على وشك الهروب مع أبيه في قارب متّجه إلى اليمن مع مهاجرين آخرين، غير أن جدالًا نشب بينه وأحد العاملين في القارب، فطعنه الآخر في صدره طعنة، قطعت نبض الحياة

في جسده، ظلّت أمّه وحيدة بلا زوج وبلا هروب، تتخبّط مع آلامها في شواطئ "بوصاصو"، وفي يدها رضيع، سرعان ما فارقتْه أمّه بعد أن صار عمره أربعة أعوام .

"حسنو" عرف كيف يكون صيّادًا ماهرًا في مكان مثل "بوصاصو"، أشدّ ما كان يميّزه طوله الفارع وبشرته القمحية وكدحه، كان يبيع السمك في سوق "بوصاصو"، هناك التقى بفتاة مهمومة، اقترب منها، وعرف أنها كانت تبكي على أمّها التي فارقت الحياة لتوّها، وهي وحيدة، بعد ثلاثة أيّام من دفن الأمّ، عرض عليها الزواج.

ربطهما تشابه الحال، ولم يعيرا اهتمامًا لاختلاف الدِّين، فهي مسيحية وهو مسلم، ولا لاختلاف الجنسية، فهي أثيوبية وهو صومالي. ظروفهما كانت كفيلة بأن تزيح تلك البِدَع الاجتماعية من رأسَيْهما. كانا وحيدَيْن، لدرجة أن فوارق الحياة كلها بينهما طُمست تمامًا، وكانت الحاجة هي هويّتهما الحقيقية في معترك تلك الوحدة.

مضت حياة أبي مع أمّي بسكون، يسوده الدفء والمعاملة الطّيّبة حتّى أكملت أختي "عائشة" عامها السادس، في تلك السنة تحديدًا، ساءت ظروف البحر والصيد، وأصبح عاطلاً عن العمل، بسبب شركات الصيد الأجنبية التي تجرف شباكهم، وتسلب ما فيها، وتطارد قواربهم الصغيرة، ترشّها بالمياه عندما تقترب من المناطق التي ترسو فيها سفنهم العملاقة، انتهكت الشركات الأجنبية حرمة المياه الإقليمية لبلدي، أساطيل فرضت سيطرتها بذريعة حراستها المياه من قراصنة البحر وبعلاقة الشركات بالمتنفّذين.

كان أبي ورفاقه الصّيّادون حانقين على الوضع السّيّئ الذي سلب

رزقهم، ولم تُجد اعتراضاتهم شيئًا، لذا اختار الكثير منهم الرحيل إلى شواطئ اليمن أو التّسلّل إلى الأراضي السعودية، غير أن أبي وحده تردّد عن نداءات رفاقه في هجر بحر وطنه المنتهك، والانسلال مثلهم عن طريق قوارب التهريب، فقد قتلت إحداها منذ أعوام طويلة والده قبل أن يُولَد.

كان يعلم أنه لن يكرّر تلك التجربة القاسية خاصّة أنّ له زوجة وابنته في السادسة من عمرها، غير أن حساباته تبدّلت في ذلك اليوم حين رست على شواطئهم سفينة كبيرة، تجمهر الصّيّادون حولها، كانوا يعتقدون أنها إحدى سفن الشركات الأجنبية، وتوظّف صيّادين للإفادة من خبرتهم، لكنّ وجوهًا سوداء هبطت من السفينة، رجال على هيئة صعاليك، وجوههم متجهّمة، تغطّي أجسادهم النحيفة ملابس بالية، وبحوزتهم بنادق، دنوا منهم بحذر، وعرفوا أنهم قراصنة، جاؤوا يبحثون عن أفراد جدد، للانضمام إليهم، من أجل الاستيلاء على سفينة شحن أمريكية. كان معظم الصّيّادين محبطين، ويعلمون أن أوقات الصيد قد ولّت، ولم يبقَ أمامهم سوى خيارات ضيّقة للغاية، إمّا الفرار عن طريق قوارب النجاة، أو التّذلّل للسفن الأجنبية التي تعرض عليهم الوظائف المؤقّتة في مواسم الصيد. الالتحاق بالقراصنة كان خيارًا للانتقام من الغزو الأجنبي الذي استولى على قواربهم، أبي ممّنْ عزم أن يلتحق بسفينة القراصنة، كانت الصومال في تلك الفترة الأسوأ حالًا، بلاد الجحيم بمعناه الواقعي، وقد تفسّخت جثث الجوعى، ونهشت الطيور بعضها. السمعة السّيّئة لاحقت سواحلها، حيث لم يترك القراصنة سفينة إلا وانقضّوا عليها وعلى بضاعتها، تلك الأمور كلّها ضايقت أبي مع مشقّة العيش، فما كان منه إلا أن استجاب لنداءات القراصنة على أمل أن يجني ثروة، تُعيّشه حياة طالما حلم بها بعيدًا عن الإحباطات المريرة التي ألمّت به.

وفي ليلة جهّز عدّة السفر، وأخبرها بأنه قد آن وقت رحيله، وأنه سيعود حاملاً معه ثروة، يستطيعان بها بناء حياتهما في دولة، يسودها الأمان، ربّما السعودية وربّما إلى كندا. ودّعتْه وفي قلبها شعور بالضيق. مرّت شهور وأمّي لا تصلها أيّ رسالة من أبي، كاد المال الذي أعطاه لها ينفد، وبعد مرور عدّة شهور على غيابه، لم تجد بدًّا من أن تترك الغرفة المبنية من القشّ التي كانت تسكنها مع أبي، وتبحث عن عمل.

ذهبت إلى مخيّم "بوصاصو"، تمسك بيدها "عائشة" ابنة سبعة الأعوام، وبطنها منتفخ بي. ظروف المخيّم سيّئة، معظم النسوة عرضة للاغتصاب، بقيت أمّي حبيسة المخيّم، تعيش على ما يصل من مساعدات، يستولي على معظمها ذوو القوّة، حاملو السلاح.

بعد ولادتي المستعصية في المخيّم، جاء رجل صومالي يفتّش عن أمّي، كانت عائدة من بيع الحليب، جلس صديق أبي قبالتها، كان وجهه يحكي كل شيء، أخرج من الكيس الذي كان يحمله قميصًا ملطّخًا بالدم،وحين وقعت عين أمّي عليه، أطلقت شهقة عالية، والتمّ حولها الناس، يسألون ما بها، تُولول وتمزّق ثيابها، تشدّ شَعْرها بهستيرية، وتعفّر الرمال على نفسها، غدت وحيدة في مكان لم يمتّ لها يومًا بصلة، بل قادها إليه قَدَر غير رحيم، قَدَر حمّلها أوجاعًا، قَدَر لم يكن لها يدٌ في اختياره.

حملت أمّي ذاكرتها الثقيلة معها، ولم تنسَ قطّ ما حدث، كوابيسها في أثناء الليل تحكي عن أبي، عن جثّته التي ألقاها القراصنة مثقوبة بالرصاص حين تعرّضوا لإطلاق نار مباغت من إحدى السفن الأمريكية الضخمة، ألقموها لأسماك القرش.

طفلاً هزيلاً ومهمّشًا كنتُ. طفل مذ ولادته وجد نفسه في يد امرأة

مشبّعة بالحزن، وأخت مليئة بالأسرار تختفي حين تكون أمّي منشغلة بالعمل خارج المخيّم.

الأعوام السّتّة التي خلّفتُها في وطني جعلتْني أدرك وأرى أشياء كثيرة، لعلّ من أهمّها الحاجةِ إلى الأمان، تحتاج إلى مَنْ يحميكَ ويحمي أمّكَ وأختكَ، ويحمي وجودكَ في وطنكَ، ويحمي وطنكَ من أهل الوطن، ويحمي أهل الوطن ممّنْ هم ليسوا من الوطن، ويودّون أن ينهشوا كل قطعة منه ...

ترك أبي قبل رحيله مالًا قليلًا وقُبلَتَيْن، قُبلة لأمّي وقُبلة لأختي "عائشة"، وحرمني حصّتي من القُبل يومها؛ لم يكن يعلم بوجودي، فقد كنتُ أسبح في رحم أمّي كحيوان ضالّ، لا يعرف أيتّجه نحو التكوين أم يبقى تائهًا كأنه لم يكن؟ .. ليتني بقيتُ ضالًا.

بعد ذهاب أبي بسبعة أيّام، اكتشفت أمّي أنها حامل بي، حزنت، لأنها لم تزف الخبر لأبي قبل أن يغادر، وقبل أن تعرف أنه لن يعود أبدًا، وأنها سفرته الأخيرة، أبي لم يعلم بوجودي قطّ، لم يعلم أن له صبيًّا سيُدعى "فارح".

اشترت أمّي بالمال القليل بقرةً حلوبًا، البقرة هي أمّي الأخرى، حين تخرج أمّي فجرًا تدور على البيوت في المدينة لتبيع الحليب. تأبى أن تخلطه بالماء، كما تفعل معظم بائعات الحليب، وحين تتلقّى لومًا من بائعات الحليب، تردّ عليهنّ أن المسيح نهانا عن الغشّ. كانت تحمل إيمانها في قلبها كتعويذة أبدية، وتوقن أنه مبعث بقائها حيّة حتّى اللحظة، على الرغم من لعنات الدهر كلها. إيمانها أصبح مطاردًا في بلاد، لا تريد سوى أن يتشابه الجميع، في بلاد تُرعبها فكرة أن تكون مختلفًا، من الجيّد في هذه البلاد أن صبغة جلودنا واحدة، وإلا لما نجونا.

حين يُوقِظني الجوع، كنتُ أذهب وأستلقي أسفل البقرة التي تنام معنا في الخيمة، خشيتْ أمّي أن تُسرَق أو يُنهَب حليبها، لو أنها قامت بربطها في الخارج، فاللصوص في كل مكان يشمّون رائحة المواشي لسرقتها أو ذبحها وبيعها. أدنو من البقرة وهي واقفة دون أن تعترض، وكأنني ابنها، أرضع من حليبها كما علّمتني أمّي. هذه البقرة هي مصدر الرزق الأجدى في بلد الصراعات والحروب والجوع. غدت الأوضاع صعبة. كنّا نادرًا ما نخرج، بينما أمّي تخرج فجرًا، لتبيع الحليب لأمّهات مرضعات، نضبَ حليبهنّ بفعل القحط والمجاعة، ولمَنْ لا يملكنَ نقودًا، كانت تقايضهن بالحليب أو بأي شيء يُؤكَل، خبز أو سكّر، وترفض الملح، ففي بلاد الجوع مَنْ يبالي بالملح؟ أمّا السّكّر، فقد كانت تخلطه بالماء لنشربه، ويغدو شرابنا المفضّل.

في الأعوام الأخيرة، تفشّى الجوع، خشيت علينا أمي من موت محقّق، فالموتى في كل مكان، وأكثرهم من الأطفال لضعف مقاومتهم، بعد أن ضلّت المساعدات الخيرية طريقها إلينا، فهناك مَنْ يستولي عليها، ويحتكرها لجماعته.

ظهرت عليّ بوادر سوء التغذية، وأختي "عائشة" كانت تشعر بتوعّكات، وتتقيّأ باستمرار، تظلّ طريحة الفراش معظم الأوقات، قلّتْ مشاويرها خارج المخيّم، وما عادت تخرج سوى بعد إلحاح أمّي، لترى إن كان ثمّة قافلة خيرية لإغاثتنا من الجوع.

تعاطفتُ مع "سيف" لظروف مرضه، وفكّرتُ في زيارته، فاقترحتُ على"قاسم" و"عبد الصمد" أن يرافقاني، ولكن "عبد الصمد" اعتذر، لأنه سيسافر في اليوم نفسه مع أهله لقضاء شهور الصيف في "كراتشي" التي غادروها مذ حادثة أمّه بعد استقرار الأوضاع نسبيًّا؛ أمّا "قاسم"، فيشعر بالحرج من أم "سيف"، فبعد كلّ ما بذلته من مال وأُعطيَات لأبيه، لم تُجدِ تمائمه، ولم تنفع زيوته، ولا الماء المقروء عليه، وظلّ الشيطان المزعوم يتخبّط في جسده.

يُشعرني الطريق إلى بيت "سيف" وكأني أعبر قطعة من الجنّة، الشارع مسفلت نظيف ومضاء، الرصيف مرصوص بالإنترلوك، تحفّه أشجار، رائحتها عبقة. بيوت واسعة تلمع من الخارج برخام مصقول، لا أثر للمجاري الطافحة التي تضطرّني لحبس أنفاسي حين أمرّ في الحيّ الذي نسكن فيه، ولا لروائح البهارات الحرّيفة، غير أنّ ما يميّز حَيّنا عن هذا الحيّ الراقي أنّ حَيّنا سخيّ، حَيّنا مصدرٌ لدخل بعض الصغار، ففيه تتناثر علب المشروبات في كلّ مكان.

أمشي وأتأمّل، البيوت من طابق واحد أو طابقَين، تزيّن واجهاتها أشجار كثيفة مُعتنى بها، وأعشاب خضراء مقصوصة بعناية، يقف بستانيّ يرشّها بالماء أو خادمة بيدها مكنسة تزيل الأوراق المتساقطة من الأشجار.

المنطقة يدثرها السكون، ويبدو أن الأطفال هنا لا يلعبون خارج بيوتهم، ربّما لأنها متاحة بكل وسائل الترفيه التي تُغنيهم عن الخروج تحت الشمس، كما نقل لنا "قاسم" حين جاء إلى هذا الحيّ، ليسجّل أسماء مَنْ يريد الانضمام لحلقات أبيه في تحفيظ القرآن الكريم: "لديهم ألعاب سِحْرِيّة"، كان يُخبرنا بصوت مبهور كيف أن كلّ طفل له غرفة فسيحة، غرفة أشبه بمستودع مليء بالألعاب المتنوّعة، ومعظمها إلكتروني، بلايستيشن وآيباد وأجهزة أخذ ينطق أسماءها بزهو، يصفها بنبرة خبير، ويقول: إنكَ بمجرّد ما تلمسها بأصابعكَ، تفقد حضور العالم الخارجي من حولكَ، وجلّ تركيزكَ يكون على الـ (GAME) .

مذ قدمنا هنا، لم أفكّر طوال تلك الأعوام أن أتجوّل في الأحياء التي يسكنها أبناء البلد، فكثيرًا ما حذّرني خالي "منغستو" من مغبّة الاختلاط بهم، ما زلتُ أذكر الجملة التي قالها لي بعد صبيحة اليوم الأوّل لنا في هذه الديار:

- حين تختلط بهم، ويحدث شيء، فإنكَ أنتَ ستكون الخاسر الوحيد!

لم أفهم يومًا دوافع خالي بعدم الاختلاط بهم، ولا أفهمها حتّى يومنا هذا، على الرغم من أنني لا أعرف الكثير من أبناء هذا البلد، ولم أخالطهم كـ "قاسم" الذي يثني دائمًا على طيبتهم، وكرمهم، وتواضعهم، ولم يحدث قطّ أن تعرّض لإهانة منهم، ولكنْ، هو نفسه نقل لي أن رفيقنا في الكرة "حافظ" البنغالي حكى له مرّة أنه لا يحب أبناء هذا البلد، لأنهم متعجرفون ومتكبّرون، وحين سأله "قاسم" عن سبب ذلك، قال له إن ابنة خالته تقدّم لخطبتها شابّ من أهل البلد، لكن أهل الشّابّ رفضوا تزويجه لها، لأنّ أمّ الفتاة بنغالية رغم أن والدها يحمل جنسية البلد!

كذلك "فريد" الصبي الباكستاني الذي فاجأنا يومًا بعكّاز بعد أن كُسرت رجله اليسرى، ظلّ يلعن أهل البلد، لأن صاحب سيّارة متهوّر صدمه وهرب... احتجّ "قاسم" على لعناته: "إنت كيف في معلوم، هادا مواطن؟ بس مواطن سوق سيّارة؟". لم أعرف سوى الرجل السمين صاحب الإيجارات، يجرّ كرشه معه كل نهاية شهر لاستلام الإيجارات وتفقّد بيوت المستأجرين مع خالي "منغستو"، وأحيانًا كان يقتحم بعض تلك البيوت التي تضمّ عمّالًا. عرفتُ فيما بعد أنه هو كفيلنا.

والتقيتُ ببعض النسوة اللطيفات اللاتي قابلتهنّ حين كانت أمّي برفقة أختي "عائشة" تذهب إلى الجمعيات الخيرية لطلب مساعدات أو استلامها أو مواعيد زياراتها إلى المستشفى، كنتُ أراقبهنّ، لا سيّما العجائز وخادماتهنّ يدفعنَ كراسيهنّ المتحرّكة أو يعتنينَ بهنّ، كما لو كنّ قريباتهنّ، كانت وجوه الخادمات تنمّ عن المعاملة الطّيّبة التي يتلقّينَها منهنّ.

لم أعرف من أبناء المواطنين سوى "سيف". ربّما المبعث الحقيقي لعدم اختلاطنا كون مدارسنا مسائية ومدارسهم صباحية، وفي الوقت الذي يعودون فيه إلى بيوتهم نغادر نحن بيوتنا إلى المدرسة، ومعظم صداقات الأطفال – كيفما اختلفت جنسياتهم - تنشأ في المدرسة.

"سيف" أوّل صبيّ أخالطه منهم، تعاملتُ معه بحذر، يبدو متواضعًا حين يأتي برفقة "قاسم". قصّة مرضه جعلتني أتقرّب منه. لقد كنتُ أعتقد أن الأطفال في أفريقيا وحدهم مَنْ يعاني من ويلات الأوبئة، وأن أطفال هذا البلد والبلدان المرفّهة أصحّاء، ويمتلكون فائضًا من المال يجعلهم في غنى عن العالم، يجعلهم منتصرين أبدًا حتّى على المرض نفسه، ولكنْ، حين رأيتُ حالة "سيف" والأعراض التي انتابته، يومها أدركتُ أن المال ليس مناعة أمام العلل التي تلحق الجسد والروح كذلك.

كان بيت "سيف" كبقية البيوت شبيهًا بقصر، له واجهة تزيّنها أشجار وارفة، وما يميّزه عن بقية البيوت تمثالان لأسدَيْن شرسَيْن، حين دنوتُ من البوّابة، شعرتُ أنهما سينقضّان عليّ، عيناهما حادّتان، وفكّاهما فاغران على زئير جامد، حين دنوتُ منهما بحذر، كان في فمّ كلّ منهما مصباح إضاءة دائري، لونه أصفر، جدران المنزل بيضاء مصقولة كالسّبّورة المدرسية، وحوافّها بارزة مصبوغة باللون البنفسجي الفاتح المريح للعين .. والبوّابة الأمامية من الحديد منقوشة بزخرفات غريبة، لكنها متناسقة، كما وصفه "قاسم" تمامًا.

كان الباب مواربًا، فدخلتُ، علنّي أجد أحدًا، ولكنْ، وجدتُني أمام ثلاثة بيوت بأحجام متفاوتة، أحدها على اليمين، والآخر على الشمال، أمّا البيت الأكبر منهما قليلاً، فكان في المنتصف، وقفتُ حائرًا، لا أدري إلى أي الأبواب أمضي، لأسأل عن "سيف"؟ عزمتُ أن أتّجه إلى الأوسط، وتذكّرتُ بطرافة طريقة أستاذ اللغة العربية "عطية حسني" حين كان يختار من قائمة الأسماء اسم التلميذ الذي يقع عليه الدَّوْر، كي يُلقي القصيدة، فيرفع ورقة الأسماء إلى مستوى نظّارته الطّبّيّة السميكة، ثمّ يردّد عبارته المعهودة: "خير الأمور أوسطها"، يتبعها بلفظة "بِسْملة"، ثمّ يذكر اسم التلميذ، وكأنه ينطق الحكم في قاعة المحكمة.

حين ارتقيتُ الدرجات الصغيرة، توقّعتُ أن يكون الباب مواربًا كالبوّابة الكبيرة، ولكنه كان مُحكَم الإغلاق، التفتُّ حولي، لعلّي أصادف بستانيًا أو سائقًا أو خادمة في الساحة مترامية الأطراف، والتي تصلح أن تكون ملعبًا لكرة القدم، لولا أرضيّتها المبلّطة بسيراميك خشن، لم ألمح أحدًا، طرقتُ الباب بيدي، لم يُصدِر الحديد الصلب صوتًا، قرّرتُ أن أبحث عن حجرة أو شيء، لأطرق به الباب الحديدي، ثمّ تذكّرتُ الجرس، أخبرنا عنه أستاذ

التربية الإسلامية، ينبغي فقط أن نضغط ثلاث مرّات عليه، ثمّ نغادر إن لم يفتح أحد، بإصبع متوجّسة، كبستُ على الجرس لأوّل مرّة في حياتي، ضغطة واحدة، فانطلقت زقزقات عصافير. العصافير كائنات متواضعة، لا يهمّها على أيّ سطح تحطّ بجناحَيْها وهي تزقزق، على درفة نافذة عتيقة أو على شرفة مسوّرة بأناقة، شرطها أن تكون طليقة، لتغدق علينا مواهبها بكرم، وأنا غارق في مغازلة العصافير؛ باغتَني صوت بعربية مكسّرة:

- نعم، بي بي .. انت شو يريد؟

توقّعت من سحنتها ولكنتها أنها أثيوبية كأمّي .. فخاطبتُها بلغتها:

- مرحبا .. أنا صديق "سيف" هل هو موجود؟

اندهشت وهي تسمع نبرات الحروف التي نطقتُها على مسامعها، زيّنت وجهها بابتسامة، ثمّ هجمت عليّ بسيل من الأسئلة:

- هل أنتَ أثيوبي ..؟ منذ متى وأنتم هنا ..؟ ما اسم والدكَ؟

خاطبتُها بابتسامة مماثلة:

- أمّي أثيوبية ..

ردّت بحماس:

- آ .. حقًّا .. أين هي؟ .. أين تقيمان؟

لكنّ صوتًا جاء من الداخل قطع حوارنا، صوتًا يستفسر، وحين أدخلتْني الخادمة وجدتُني أمام "سيف" الذي تفاجأ لوجودي في بيته، ولم يتمالك نفسه من الغبطة، فضمّني إليه، كما لو كنتُ صديقًا حميمًا يعرفه منذ أعوام، أمام دهشة الخادمة.

بدا البيت - رغم الأثاث المزدحم - فارغًا من الأشخاص، وكنتُ أتحيّن خروج أمّ "سيف" من أحد الأبواب العديدة، وعيني على مهبط الدرج الطويل، من فرط فرحه لم يعرف "سيف" أين سيُجلسني، وعلى أي مقعد من المقاعد الوثيرة في قاعة الجلوس الفسيحة.

ذهبت الخادمة، ثمّ عادت بطبق به كعكات بأحجام دائرية متناسقة ممسوحة بطبقة كثيفة من الشكولاتة، يتوسّطها نصف فراولة، عرفني "سيف" على اسمها، كانت تُدعى "دوللّي" وعرفتُ أن هذا اسمها المستعار، بدت الصلة بينهما قويّة، حين ذهبت إلى المطبخ، أسرّ "سيف" بأنه يعدّها بمثابة أمّه، فهي تعتني به وبشؤونه منذ كان رضيعًا، أمّه مشغولة دائمًا بعملها ومشاويرها.

أسهبْنا في الحديث، "سيف" يمتلك ثقافة واسعة وقلبًا طيّبًا، على الرغم من مرضه، كان اجتماعيًّا وثرثارًا كذلك، يعرف أمورًا كثيرة، كنتُ أجهلها، حدّثني في اللقاء الأوّل بأريحية عن أمّه التي تعمل لساعات طويلة خارج البيت بعد أن مات والده، وسافر أخوه الكبير إلى أمريكا للدّراسة الجامعية، كما أخبرني عن أسرار المنزل ومفاتيح جهاز الإنذار في حال حدوث حريق أو اقتحام للمنزل، كانت موصلة بنظام أمني مع الشرطة. تذكّرتُ خيمتنا في الصومال، وابتسمتُ.

لم يكن في هذا البيت الفسيح بغرفه المتعدّدة وبأثاثه الكثير سوى "سيف" و"دوللّي" التي حين عرفت بجذوري الأثيوبية، أصبحت تستقبلني في كل زيارة بحفاوة ملحوظة، تحضّر لي بعض الوجبات الأثيوبية التي لم أتذوّقها من قبل، وتلحّ عليّ في مرّات لا تُحصى أن أُحضر أمّي معي في أوقات معيّنة حين لا تكون "ماما" موجودة في البيت، تعني صاحبة البيت أمّ "سيف" التي لم يسبق أن التقيتُ بها، ربمّا لأنني كنتُ أعرّج عليه

في أوقات تكون هي في عملها اليومي، في فترات الظهيرة، حين يعود "سيف" من مدرسته الصباحية، وقبل أن أتوجّه أنا بدوري إلى مدرستي المسائية، كنتُ و"سيف" نحيا حياتَيْن متعاكسَتَيْن. حين علمت "دوّللي" بمرض أمّي، دأبت على معاملتي بلطف أكبر، وكانت في كل مرّة تُحمّلني أكياسًا، تحوي ملابس نظيفة، سبق وارتداها "سيف"، وبعضًا من ألعابه حين كانت أمّه تستغني عنها، وتضعها عند الباب للمحتاجين أو عند سلّة قمامة قريبة، وكانت قبل ذلك تضعها في صناديق مخصّصة للتّبرّعات، ولكنْ، حين شاع خبر بأن تلك الصناديق تعود لبعض الشركات التي تقوم بإعادة تصنيعها وبيعها جعلها هذا لا تثق بها، وأصبحت تفضّل أن تقدّم الملابس، وما تستغني عنه من أشياء مفيدة وصالحة للاستخدام ليد الفقراء والمحتاجين، للحصول على الثواب.

كانت ملابس "سيف" في تلك الأكياس الكبيرة نظيفة، مكوية، تفوح منها روائح عطرية، الرائحة التي خدّرتني سرعان ما كدّرتني، وعادت بي إلى موقف بائس حين كنتُ واقفًا بالطابور عند أحد المخابز، وخلفي شابّ، لم أتبيّن وجهه، وبجانبه زميل له، وحين حاذياني قاطعَيْن الطابور، غطّى أحد الشّابّين أنفه بمحرمة ورقية، وهو ينظر إليّ، ويقول للآخر:

- أوووف .. ريحة خايسة!

غمرني حزن، ضاقت به أنفاسي، اشتريتُ الخبز، وجريتُ بأقصى سرعة، أبدّد غصّة الألم بدموعي؛ حلفتُ ألّا أشتري من ذلك المخبز مرّة أخرى.

غدا "سيف" يقاسمني أشياءه وأسراره، يقتني لي ما يقتنيه لنفسه من ألعاب وملابس، لم يكن يزوره أحد غيري، غدوتُ كظلّه، لا سيّما بعد سفر "دوللّي" إلى بلدها، لزيارة أهلها، ومغادرة "عبد الصمد" لقضاء عطلته

في بلده، وبعد انشغال "قاسم" مضطرًا مع أعمال أبيه الذي غدا مطوّع الناحية، واشتهر بعلاجه الروحاني، وتكاثر ازدحام السّيّارات الحديثة حول بيته، أناس يدخلون محمّلين بما أحضروه من هدايا قيّمة للمطوّع، شافي الناس، ويخرجون محمّلين بما قدّمه لهم المطوّع بنفحات أدعيته المقدّسة.

"سيف" ابن البلد تُدهشه حكاياتنا، وتوجعه كذلك، قلبه رهيف، عيناه تفيضان بالدمع وهو يقطع حكاياتنا بأسئلته البريئة: كيف الناس ينامون والقذايف تطيح عليهم؟ كيف تأكلون وتشربون؟ ليش يسوون فيكم جي؟ وين شيوخكم عنكم، ليش ما يحمونكم؟

"سيف" الذي كان يُخبّئ في باطنه حكاية ألمه، كان أكبر حكاية في حياتي بأسرها.

كانت أكبر أحلامي أن يكون لي أب، أب يعتني بي وبأمّي وبأختي، أب يراني أكبر، ويفاخر بي كلّما فعلتُ شيئًا لائقًا، أب ينتشلني حين أسقط، يكفيني أن يكون لي أب أناديه بابا مثل أصدقائي كلهم الذين أعرفهم، الذين لهم آباء. لم أعرف أبي يومًا، عرفتُه عن طريق الآخرين، عرفتُه عبر حزن أمّي وحسراتها المتواصلة، عن تركه يغادر إلى حيث يغادر معظم رجال بلدي، غادروا جميعًا، من أجل مزيد من الحياة، ولكن الحياة نفسها لفظتْهم، وشرّدتْنا نحن، نحن ذرّيّة أولئك الرجال الحالمين، الأنانيّينْ.

لذا خشيتُ من الأحلام، يا كارل؛ لم أكن أريد أن يكون لي أحلام، أمضي خلفها كمجنون، ثمّ تغدر بي، تأخذ روحي إلى تيهٍ أبديّ، حيث لا يوجد سوى الخراب.

الأحلام لم تكن لنا، لم تُخلَق لنا، كانت ترفًا لأمثالنا، نحن الجوعى، واقعنا يطالبنا أن نكون بكامل وعينا، كي لا نموت، كي نستعيد حيواتنا التي كانت تُسلَب منّا كل يوم، سلبها منّا كل حامل للسلاح، وكل مَنْ كان يبيعه، وكل مَنْ أجبرنا على حمله، كل مَنْ جعل الحرب غايته الأولى وهويّته في أرض خرابنا، حتّى صارت أحلامنا في ذلك الوقت هي ألا نموت. أن يتأخّر الموت عن أرواحنا، عن بيوتنا، عن أمّهاتنا وأخوتنا وأصدقائنا، لم نكن نريد أن نموت، فقد كنّا موتى حقًّا.

كنّا، يا كارل، نريد موتًا مختلفًا، كنّا نريد أن نموت من الشبع، من الضغط والسّكّريّ ونسبة الشحوم في الجسم، بداء الملوك، أن نموت في سيّارة مرفّهة، في منزل كالقصر، في شرفة تطلّ على جنّة خضراء، في طائرة تحلّق إلى متعتنا، في فندق ذي خمس نجوم، في بركة سباحة نظيفة، في غرفة شراشفها من حرير، أن نموت في سعادة، أن نموت ونحن نحتفل بالحياة، وتحتفي بنا ..

لقد تعبنا من الموت وسط القنابل والمراجم والدّبّابات والبنادق، تعبنا من الموت ونحن نعاني من نقص في الغذاء، الموت من المرض، الموت من الحسرات في القلوب، ومن قَهْر الليالي المرعبة، الموت الذي كنّا نبلعه كل لحظة، وأُتخمت أرواحنا المهشّمة منه بما يكفي ويفيض.

تدهورت حالة أمّي بشكل كبير، ولم تكن أختي "عائشة" معنا هذه المرّة، كي تتابع علاجها في المستشفى عن كثب، آخر ما نبّهها به الطبيب قبل زواجها المفاجئ هو ضرورة زراعة كلية لها. واقترح عليها أن تنشر إعلانًا في صحيفة مشهورة عن حاجة أمّي إلى زراعة كلية، لعلّ أحدهم يتبرع بكلية أو بمبلغ من المال، يعينها على شرائها.

نشرت أختي قبل زواجها الإعلان بمساعدة إحدى الجمعيات الخيرية، إذ تبرّعت بإرسال نصّ الإعلان والبيانات إلى إحدى الصحف، ولكنْ، لا أعرف ماذا جرى بعدها.

وبزواجها سُدَّت السُّبُل كلّها في وجهي، أمّي طريحة الفراش، الأوجاع الحادّة، وضعها الصّحّيّ حرج، وأنا عاجز أمامها، ويكاد عجزي يقتلني.

أختي "عائشة"كانت تحيطنا بعنايتها، وجودها بقربنا بحدّ ذاته كفيل لنعيش باطمئنان، كانت ستسعى بطاقتها كلها لتخفيف معاناة أمّي، لكنها ليست هنا، ولا أعرف كيف يمكن أن أجد مسكنها أو حتّى الطريق إليها .

لا يمكن أن أذهب إليها بعد أن سمعت الحوار الذي دار بين خالي "منغستو" وأمّي، فبعد زواج أختي "عائشة" وذهابها إلى بيت الرجل، لم نرها بعد ذلك قطّ، بل حين سألتْ أمّي عن أحوالها بعد غياب شهر كامل، ردّ عليها خالي "منغستو" بفظاظة:

- البنيّة جاء نصيبها، وتزوّجت، وستكون أمًّا لأطفال هذا البلد، مواطنين.ليس هذا فحسب، بل أطفال من أب ثري، وبعد أعوام، ستكون هي ابنة البلد، وسيكون لها راتبها من الدولة وحقوقها، فماذا تريدين أكثر من ذلك، يا أختي؟!

وحين تنهّدت أمّي، تابع:

- لا تنسي أن زوجها هو كفيلنا هنا، كفّي عن إزعاجهم، كي لا تكوني سببًا في خراب بيتنا جميعًا.

بعد مرور يومَين، طلب منّي خالي "منغستو" أن أرافقه إلى مشوار، لنناقش حالة أمّي المتردّية، حينها قال لي بصراحته المعهودة:

- اصغ جيّدًا يا "فارح" لما سأعرضه عليكَ .. لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نعرض حالة أمّكَ على المستشفى أو نخبر عن حالها أي جهة حكومية، هل تعرف لماذا؟ لأن هذا سوف يعرّضنا للخطر جميعًا، سيعرّضها هي للجانب الأعظم من الخطر، فهنا المستشفيات حين تواجه حالة مستعصية لأولئك الذين يعانون من أمراض قاتلة؛ لا تملك الدولة أمامهم سوى إبعادهم إلى بلادهم خوفًا على مواطنيها، وأنتَ تعلم أن أمّكَ أجنبية، بل يجب أن تكون خادمة في البيوت، ولولا زوج أختكَ "عائشة" الذي أوهم السلطات أنها تعمل في بيتهم، لما كانت موجودة حتّى اليوم هنا، هل تفهم ما أعنيه؟ وكما تعلم هي لا تعرف أثيوبيا، ولم يحدث أن زارتها قطّ، ولولا تدّخل هيئة الأمم المتّحدة، لأن أمّكَ أثيوبية لالتهمتكُم أسماك القرش، كما التهمت والدك وجيرانكم الصوماليّين، الذين فرّ المئات منهم على متن قوارب صغيرة، غرق أكثرها في وسط المحيط قبل أن تصل لخطّ النهاية.

في أثيوبيا، لم تبقوا سوى بضعة أيّام، رتّبتُ أنا أموركم، وجلبتُكم إلى هنا، والحال في الصومال، كما تعي، حروب ومجاعة، في الأحوال كلها ستهلك هناك، إن تمّ إبعادها.

خاطبتُه بتوسّل، وكاد صوتي يختنق وأنا أبكي:

- ما العمل، يا خالي؟ قل لي، أرجوكَ، هل وجدتَ وسيلة لإنقاذ أمّي؟ لم يبقَ لي أحد سواها هنا بعد رحيل أختي "عائشة"، أرجوكَ، أخبرني؟

قال لي بصوت متعاطف، لم أعتد عليه في نبرته:

- أنا هنا لأساعدكَما أنت وأختك ولأساعدَ أختي المسكينة، أعرف كم تتوجّع. أسمع نحيبها كل ليلة في غرفتي، وأعرف أن الجمعيات الخيرية التي قامت بنشر الإعلان لم تجد متبرّعًا واحدًا حتّى الآن، ولن تجد، صدِّقني، الوقت ليس في صالح والدتكَ .. فهل تريد حقًّا مساعدتها؟

قلتُ متلهّفًا وعاجزًا:

- طبعًا، يا خالي، فقط أخبرني كيف؟

قال لي بحذر واضح:

- الأمر يحتاج إلى شجاعة كافية، وإلى سِرّيّة وحذر كبيرَيْن، فهل أنتَ قادر على ذلك؟

دفع بسؤاله إليّ وعلت وجهه مودة حانية، وهي من المرات النادرة التي بدا فيها خالي ودودًا.

- سأفعل أي شيء وكل شيء من أجل أمّي، أريد أن أنقذها من أوجاعها بأسرع وقت.

أجبته بينما تدفعني حماس باهر لإنقاذ أمي السقيمة، فرّد خالي على الفور وابتسامة جذلة تمطت على وجهه المعروق:

- جيّد جدًّا، هذا ما أريده منكَ، أن تكون شجاعًا ومطيعًا، كي تنقذ والدتكَ، كنْ مستعدًا بعد غد لمشوار إلى مكان سرّيّ.

تركني خالي "منغستو" مع هواجسي وأمّي المنطرحة قبالتي، أحدّق بحزن إلى جسدها الواهن، الجسد الذي تقلّص كثيرًا في الشهور الأخيرة، حتّى صوتها خبَا.

تركتُ أمّي في فراشها بعد أن ناولتها حبّة منوّم، ظلّت طوال الليلة الماضية تتوجّع بصمت، وأنا أجرّ إرهاقي وتعبي إلى غرفة خالي "منغستو"، حيث كان ينتظرني هناك، لنتباحث في حلّ لعلاج أمّي، وطريقة لإيجاد كلية بديلة لها.

الساعة تجاوزت السادسة صباحًا حين اقتربتُ من باب غرفته، وطرقتُها، رحّب بي بأسلوب مبالغ، لم أكن أتوقّعه منه، ثمّ سحبني من يدي إلى داخل غرفته، وتفاجأتُ بوجود رجل أفريقي ضخم، سبق أن التقيتُه في بناية وكر العاهرات حين رفض إطلاق سراحي، لولا تدخّل خالي، لم يكن وحده، كان برفقته رجل نحيف وقصير القامة، وجهه أفريقي.

كان ثلاثتهم يتفرّسون في وجهي، نهض الرجل الضخم الذي كاد من طوله أن يلامس سقف الغرفة، دار حولي يتفحّصني، كما لو كنتُ قطعة أثرية، يريد أن يختبر جودتها، بقي يحدِّق بي، كانت نظراته تخيفني، وجعلتني أفكّر في افتراضات متوجّسة، وأكثر ما خشيتُه أن يطلبوه منّي أن أكون كـ "صدّيق" الطالب البنغالي المليح الذي له عينان واسعتان، لونهما أخضر، وشَعْره كثيف ومسترسل، كان يتفاخر بأنه محبوب من الرجال، وأن شبابًا كُثُرًا من أبناء البلد الأثرياء يميلون له، يمنحونه الهدايا القيّمة، ومبالغ مقابل أن يشاطرهم سهراتهم وحفلاتهم.

كان يحكي لشلّته في المدرسة بأن الذي قاده لطريق هؤلاء الأثرياء هو صاحب بقالة في الحيّ الذي يقطنه، كان يتردّد عليه يوميًا لشراء بعض الاحتياجات الضرورية لإخوته الصغار ولأمّه ووالده الذي كان يعمل فرّاشًا في إحدى الوزارات، أسرّ له عامل البقالة أنه لا يستحقّ هذه الحياة التعيسة التي يحياها، فهو يمتلك من المؤهّلات ما يتيح له أن يعيش حياة مرفّهة، ظلّ يردّد عليه في كل مرّة هذه العبارات، ما جعل "صدّيق" يتساءل عن الحياة التي يتحدّث عنها هذا العامل، وعن تلك الفرص المرهونة بموافقته؟ ولأنه يحبّ المال، كان مستعدًّا للقيام بأي شيء مقابل أن تتحسّن ظروف أسرته، ويلج إلى أرض الفرص والثراء.

تبدّلت أحواله المعيشية بعد عدّة شهور، حتّى إنه قدم مرّة إلى المدرسة بسيّارة حديثة، ليبصق في وجه المدير الذي فصله بعد أن تفشّت سيرته العاطلة في المدرسة كلها والمدارس المجاورة أيضًا. هل سيجعلون منّي كـ "صدّيق"؟ لكني لا أملك مؤهّلاته، لا الشكلية، ولا الجسدية .. هل سيجعلون منّي؟ ...

قطع صوت خالي "منغستو" دفق افتراضاتي وتكهّناتي:

- عزيزي، يا ابن أختي الغالية، أمامكَ من اليوم مهمّة صعبة، وأنتَ لها، لأنكَ المسؤول عنها بعد ذهاب أختكَ عائشة إلى بيت زوجها، عليكَ أنتَ وحدكَ أن تكون سندًا لها، وأن تُنقذها ..

ثمّ أشار إلى الرجلَيْن قبل أن يُكمل:

- بفضل هذَيْن الرجلَيْن، ستكون أُمّكَ بخير، وستنعم أنتَ في ظلّ سلامتها، لقد وافقا بعد إلحاحي على أن تكون ضمن فريقنا، هناك أعضاء آخرون، لا يمكن أن يظهروا للعيان، إنهم يخطّطون لعمليات، تحقّق لنا

العيش في ظلّ هذه الدول الثّريّة، هنا لديهم المال الذي يوجّهونه لقتلنا، ونحن بدورنا وجب علينا الانتقام، لنستردّ ما سُلب منّا، الشتات الذي نعاني منه هم السبب فيه، وأنتَ ستكون ضمن الأعضاء، هل تعلم أنكَ أوّل صبيّ صغير ينضمّ إلينا؟ مهمّتكَ ستكون يسيرة للغاية، كل ما هو مطلوب منكَ هو أن تنفّذ ما نقوله بدقّة، لا داعي للخوف، أنتَ ستقوم بمهمّتكَ الوطنية، ستكون صوماليًّا صالحًا كأبيكَ، وأثيوبيًّا صالحًا مثلي.

كان الرجلان الأفريقيان صامتَيْن، وحين انتهى خالي "منغستو" من إلقاء خطبته الطويلة التي لم أفهم منها سوى أن أمامي مهمّة لإنقاذ أمّي. وجّه الرجل الضخم بضع كلمات إلى خالي بصوت هامس، عبر حركات يَدَيْه وعينَيْه، فهمتُ أنها كانت تعنيني أنا ومهمّتي الجديدة. وقبل أن يغادرا، سألني خالي "منغستو" عن صديقي الجديد، الصديق الذي تبرّع لي ببعض من ملابسه وألعابه؟ وأين تقع فيلّته الفارهة؟ ومَنْ معه في البيت؟

كان خالي "منغستو" يصنع قواعده في الحياة وفق المكان الذي يكون فيه، كالقنفذ ينقلب شوكًا حين يستشعر بالخطر. كان يؤمن أن مَنْ يعيش في كنف أسرة في تلك البلاد، فهذا يعني أنه مأمون الجانب، هذا ما قاله له كفيله أبو راشد، صاحب العقارات كما يعرفه الناس، وصاحب أعمال أخرى في الخفاء، كما كنتُ أعرفه أنا! اعتاد خالي أن يدلق كل ما في جوفه حين يثمل، يغيب في غياهب روحه، كما لو أنه في طقس تطهير: **حين يعيش الرجل الأجنبي بصفته عازبًا وحده، يتخوّف منه الناس ويعتقدون أنه منحرف سيهجم على أي امرأة يراها في الشارع، أو يهتك عرض أي طفل يقابله في الزقاق، لكنْ، حين يعيش ضمن أسرة، وإن كان غير متزوّج، فهذا يعني أنه كائن مستقيم وغير مُؤذٍ.**

أخبرني مرّة قبل أن يكلّفني بالمهمّات: **اسمعْ، يا "فارح"، لأهل هذه البلاد قواعد غريبة في تصنيف الغرباء، يشمل ذلك كثير من الأمور المتعلّقة بنا، بدءًا بالاسم الكافر، فهو يعني أنكَ شخص خطير وقذر، وجب تطهيركَ مبدئيًّا، بتغيير اسمكَ، لتحمل اسمًا، يلائم ألسنتهم وبيئتهم المحافظة، ثمّ سرعان ما يخضع بقيّتكَ للتبديل، كالديانة والمظهر والكلام، عليكَ أن تدين بدين مَنْ تعمل لديهم حتّى تصل لمرحلة الرضا التّامّ من طويل العمر، وإن بدا ذلك ظاهريًّا. يتمّ تدجينكَ وفق شروطهم، وتغدو كائنًا معجونًا بطريقة، لم تألفها من قبل، حتّى بالكاد تتعرّف فيها على نفسكَ،**

ويحدث أن تنسى اسمكَ الذي يطلقونه عليكَ لأسابيع، لكنْ، مع مرور الشهور، يغدو اسمك الحقيقي غريبًا عنكَ، ثمّ يصبح نَسيًا مَنسيًا، يختفي عن سيرتكَ حتّى رفاقكَ من بلدكَ بالكاد يذكرونه، تسيح تمامًا في عالمكَ الجديد، كائنًا مدجّنًا، تقدّم تضحياتكَ في سبيل حفنة من المال، لا تكاد تفي بمتطلّباتكَ في بلاد، كل شيء فيها قابل للمضاعفة سوى مدخولكَ الشهري. بمجرّد أن تطأ أرضًا غير بلادكَ، تتبدّل كلّيًا، شئتَ أم أبيتَ فهذا قدرك، قَدَر كل متشرّد في بلاد ثريّة.

وحين كان يدخل في غيبوبة الثمالة، يا كارل، كان يسرد حكاية الأسماء والشخصيات التي تخفّى وراءها، ففي كل بلاد ارتحل إليها، كان له فيها اسم وهوّية مغايرة، تخضع لظروف تلك البلاد، وتصبّ في مصلحته في المقام الأوّل، بعض ممّا أذكره الآن بعد تلك السنوات كلها، أنه في السعودية أوّل أرض عربية، ارتحل إليها سمّى نفسه "حسن": **كنتُ "هاسن". أوّل اسم لقّفوه لي أولئك الذين تلقّفوني من عرض البحر بعد انجراف القارب الذي هرّبني من شواطئ "بوصاصو" إلى حدود السعودية، كانت الخطّة تقتضي وقوفنا على شواطئ اليمن، ومنها أبحث عمّنْ يطبع صورتي على هويّة رجل مفقود أو مقتول، وما أكثر المفقودين والقتلى.**

لكن القَدَر قطع الطريق عليّ، وقصّره في آن؛ لقد صرتُ "هاسن" بين يوم وليلة، "هاسن" الذي وجد عملاً في أطهر مكان على الأرض وأقدسها كما يُعرَف عنه؛ في مكّة، مكان الفرص وأرض لتحقيق الأحلام للمسلمين، يحصل فيه الجميع على عمل، ويستحيل فيها إلى تركيبة بشرية متوحّدة، فالسُّبُل كلها متاحة فيها للطّيّبين والأشرار، للمحترمين واللصوص والسارقين والقتلى، للمستبدّين والعادلين، للأغنياء والفقراء، للكبار والصغار، الرجال والنساء، للبيض والسود.

هذا المكان المقدّس يبسط شروطه الصارمة غير أنه سرعان ما يرتخي، يكفي أن يكون للمرء وجه كَثّ الشَّعْر، كي تزيد فرص تثبيته في هذه الأرض، وجدتُني صبيًّا منقادًا على مشارف السادسة عشرة إلى طريق الله، كما قيل لي، فقد صرتُ مسلمًا بمجرّد حملي لاسم مسلم، متطوّعًا لخدمة بيت الله بلحية كَثّة، مكان وُجد لجميع خلق الله سواي، لذا بعد شهر، حلقتُ غابة وجهي، وسرقتُ هوّية رجل بطريقة عشوائية، ليكون بوّابة عبوري إلى مكان، أجمع فيه أكبر قَدْر من الأموال.

حين خرج من الأرض التي وجد فيها المتناقضات كلها؛ قيل له إنه سيرتحل إلى البلاد التي جلبنا إليها بعد سنوات أنا وأمّي وأختي "عائشة". حكى له أصحاب الخبرة أن يتخلص من جميع هوياته المنتحلة، وعليه أن يُبرز هويّته الحقيقية، فهذه البلاد رقابتها صارمة، لا يمكن عبور حدودها بهويّة مزوّرة، استعاد هويّته الحقيقية، وثيقة رسمية يُبرزها في كل خطوة، لكنها في الوقت نفسه تخضع لأمزجة مَنْ كان يكفَله، وربّما لهذا حقد على تلك البلاد؛ لقد سمعتُ مرّة حديثًا مع رفاق له في غرفته،حين بدا أنه يتعارك مع أحدهم: **أنا مجرّد حشرة، مجرّد كائن بشري يُزحزَح وفق متطلّبات شخص يدعونه كفيلاً، رغم الهوّيات كلها ظلّوا ينادونني "يالسوداني" رغم أني لستُ سودانيًّا. تتعلّق هويتنا بجلودنا، كلعنة، لم يغفر لنا التاريخ صبغة لوننا الأسود، الهوّيات كلها تسقط أمام لوننا، مهما انتحلنا هويات أخرى، مهما اخترعنا أسماء ليست لنا؛ أسماء نتعلّق بها في طريق ورطاتنا، في احتيالنا، في مصائبنا، في جرائمنا، في موتنا، في كل شيء، يظلّ اللون الأسود لصيق بنا كدمامل وجه لا يمكن إخفاؤها! نحن الأفارقة نغدو سودًا، ونظل سودًا بالنظر إلى لون جلودنا، دون أن يميّزوا حقيقة اختلاف كل أفريقي عن الآخر.**

في أرض الفرص والأحلام المحقّقة والأبراج العالية يجب أن أكون فيها بوثائق غير مزوّرة، أن أمضي في طريقي لا ككائن يلفت النظر باختلافه، بل ككائن طيّع تمامًا، يمضي وفق قوانين البلد، أن أُثبت وجودي كفرد صالح، يستحقّ مكانه في هذه الأرض التي سرعان ما تلاقت مصالحي فيها ومصالح كفيلي.

كان يجب أن أخترع لنفسي أسرة، أسرة تماثلني، كان يجب أن أجلب أسرة من بلاد الجوع والقحط، كي أحيط نفسي بوضع آمن، أنا الوحيد، الغريب. طالما كنتُ وحيدًا، طالما كنتُ مكتفيًا بنفسي، ووجدتُني في حاجة إلى أسرتي، لترميم تاريخي المشّوه بالتّشرّد. أختي الوحيدة "ليلما" كانت في الصومال، هناك مع طفلَيْها كما عرفتُ عبر صديق وسيط، كانت الفرصة متاحة وفق شروطي حين أخبرني الصديق أن أختي في أزمة هروب من الصومال مع صغارها، وستقع فريسة قوارب القراصنة المخادعين، إن لم أجلبْهم أنا بوسائلي، ثمّ حدث ما لم يكن في الحسبان، حين تدخّلت أمريكا، وسحبتْهم على متن طائراتها إلى مهبطها في أثيوبيا، هناك حيث موطن والدَيّ وأجدادي، هناك حيث لا تعرف أختي أحدًا، كان لا بدّ أن أتدخّل، لأنتشلها من المطار عبر كفيلي، جلبَها بتأشيرة زيارة مع ولدَيْها، ثمّ استخرجت لها إقامة، بصفتها خادمة على كفالته، وقد وقع في غرام ابنة أختي "عائشة"، معظم الغريبات في هذه البلاد جمالهنّ هو تأشيرة دخولهنّ إلى عوالم الثراء والرفاهية والفرص النادرة، حيث يجود الرجال في لحظة الخدر.

كانت خطّة خالي "منغستو" تقتضي عمل أمّي خادمة في البيوت، واستخدام أختي "عائشة" لجلب الأثرياء، لكنها أبت. وفي يوم ثمل حتّى غطست يقظته، وصار يعترف لي: **كانت خطّتي، يا ابن أختي، أن أجعلكَ**

ظلّي، كنتُ أعرف أنكَ تتلصّص عليّ، كنتَ تتبعني في كل خطوة، ذاك الفضول النزق أحبّه في الأطفال، بهذا الفضول نصنع نحن الكبار منه المعجزات، وهذا ما فعلتُه.

جعلتُكَ تتبعني، حرَّضتُ غريزة الفضول لديكَ، في كل مرّة كنتُ أُضيّق المسافات بيننا، وحين جعلتُ أحدهم يُمسككَ متلبّسًا، ويرميكَ في تلك الغرفة القذرة، كنتُ أعرف أنكَ ستتفاجأ بي، وحتّى الصفعة كانت مقصودة تمامًا، لقد وقعتَ في قبضتي، وصرتَ تدعمني بسذاجتكَ. مرض أختي كان الوسيلة الأنجع لتمضي مشاريعي كما أشتهي تمامًا.

لكنكَ، أيّها الفأر الصغير، طفقتَ تكبر وتعي ما يجري من حولكَ، كنتُ أرى عنادكَ يكبر معكَ، وكم كان يعجبني ذلك!

التركيبة العنيدة كانت هي مصدر قوّتي، كان يجب أن أحرمكَ من طفولتكَ، كما حُرمتُ أنا من طفولتي، كان عليّ أن أُنهي هذه المرحلة التي يكون فيها المرء في أقصى حالات وهنه، حيث البراءة والنقاء والسذاجة، التركيبة التي يجب تدميرها، لتصنع القالب الذي يستوعبه هذا الزمن الوحشي، كان يجب أن أستفزّ تلك المضخّة في قلبك الرهيف؛ كان يجب أن أُطوّقكَ برعايتي، كي تكون أداتي لمشاريع أهمّ في قادم الأيّام، كان يجب أن أُقيّدكَ، ستكون طريقنا إلى الثراء والمال والحياة الباذخة.

جريتُ وجريتُ وجريتُ، كأنّ قَدَمَيّ مربوطتان على عجلة، وكان خوفي يسابقني. قلبي يرتجف، يداي ترتعشان، حلقي جافّ، شفتاي متيبّستان، والعَرَق ينزّ من جسدي كحشود من النمل، لا للرجوع، لا للتراجع، لا، سوى للاندفاع إلى الأمام. في أثناء قطعي تلك المسافات الشاسعة، أدركتُ أن الركض هو خياري الوحيد، لقد قلّبتُ الأمر في عقلي، فكّرتُ كثيراً، فكّرتُ مرارًا، فكّرتُ بخوف، لكنْ، أيضًا فكّرتُ في الاعتراف، فكّرتُ أنني سأكون ابنًا بارًّا لأمّي، لقد نهشت الحياة ما يكفي منها، أحيانًا علينا أن نمنح الحياة بسلب حياةٍ أخرى، الحياة أخذ وعطاء، ربّما يُولَد كائن، ويموت آخر، إننا نتأرجح في ميزان الحياة والموت، لقد قبلنا بهذه القسمة من الحياة، قبلناها في غيرنا، قبلناها حين لم تكن تعنينا، كنّا نتفرّج عليها وهي تسحق الآخرين، لكنْ، حين يتّصل الأمر نفسه بنا، نظلّ مبهوتين، ونتساءل عن جدوى الحياة وعدميّتها، عن وجودنا، وعن وجود الآخرين، بمَنْ يجب أن نضحّي، وعلى مَنْ يجب أن نُبقي، لكن الخيار الذي أمامي كان مختلفًا عن ما اعتادت الحياة، إنني في هذه المرّة سأكون المنقذ، لروحها.

حين هدأت أنفاسي المتصاعدة بعد تيه في أفكار ضبابيّة، ظلّت تشدّ عقلي. تلفّتُّ حولي، لقد قادتني قَدَمَاي إلى المكان الذي سأُنهي فيه مهمّتي، سأُنهيها هذه المرّة بنفسي، وبطريقتي أيضًا، سأعترف له.

سأفضح كل شيء، لم أعد أحتاجهم، لم أعد أنتمي إليهم، لقد ركضتُ عنهم بعيدًا، إنني لا أنتمي منذ الآن سوى لنفسي،أسرارهم قد افتُضحت، وصرتُ أعرف أنني كنتُ مجرّد طُعْم حقير لمهمّاتهم السّرّيّة.

بدا الحيّ متعطّشًا للماء، النباتات في الحدائق المنزلية متيّبسة، ضربت شمس الظهيرة أطرافها بقسوة، ولا أثر لآدميّ، مَنْ هو المجنون الذي يخرج في مثل هذا الوقت من منزله؟ كنتُ أعرف أنه لا وجود لأحد، الكلّ في عمله، وحدهنّ الخادمات في المطابخ المكيّفة يعددنَ وجبة الغداء والسّمّاعات على آذانهنّ في ثرثرة تغطّي على ما دونها من أصوات، والفرصة الآن متاحة أمامي للخلاص.

مشيتُ إلى حيث اعتدتُ طوال الشهور الماضية، هذه المرّة أعرف وجهتي بدقّة، المكان الذي أُنهي فيه بؤسي، مكان أُحيط بكل شبر منه؛ مداخله ومخارجه، فيلا كبيرة مؤثّثة بفخامة، لن يكون فيه أحد سوانا، حان موعد قدومه من المدرسة، سيترك حقيبته بجانب الباب، حيث تأتي الخادمة، وتحملها، لتضعها في الأعلى، لكنْ، منذ أسابيع والحقيبة تبقى في محلّها، لا يزحزحها سوى يد الأمّ حين تعود من عملها في حدود الخامسة مساء، بعد أن سافرت الخادمة لشهرَيْن إلى بلدها. صار يطلب وجباته من المطعم القريب، وكان الرّقْم مسجّلًا في قائمة جهات الاتّصال في هاتفه الجوّال الحديث الذي قدّمته له أمّه هدية في عيد ميلاده منذ أسبوعَيْن، لم أقابل والدته قطّ، لا أعرف سنّها ولا شكلها، كل ما أعرفه عنها أنها تخرج من البيت في السابعة، وتعود إليه في الخامسة، كان عليه أن يبقى ثلاث ساعات وحيدًا أمام التلفاز، يلتهم شرائح البيتزا مع الكوكاكولا التي يعشقها.

بمشاعر مضطربة، وجدتُني في واجهة الباب الخارجي العريض، خطر

ببالي اليوم الذي وقفتُ أمامه حائرًا لأوّل مرّة، اليوم الذي كبستُ فيه على الجرس، مأخوذًا بالرفاهية الطاغية في حيّ شاهق الفخامة، بهندسة معمارية فارهة، تمتدّ على طوله من الجانبَيْن، كأنها مدينة الأحلام في كتاب أسطوري. كم هي الحياة كريمة معهم!

هكذا ظللتُ أردّد طوال خطواتي في الطريق المعبّدة، المزروعة بأشجار وارفة، وورود فاتنة، مَنْ يصدّق أنها تُولَد هنا في هذا الجوّ البركاني؟! لكنها الثروة هي التي تصنع المستحيل، بقيتْ خطوة واحدة تفصلني عن غايتي، نصف خطوة، قَدَمي تندفع إلى البوّابة الخارجية المشرعة لدخول السّيّارات، البوّابة التي يحرسها أسدان، أسدان لم يعودا مخيفين: "أنا الملك اليوم، أنا وحدي" كان لساني يلهج، أعضائي متحالفة معي، لساني، قلبي، عقلي، يداي، قَدَماي ... أعضائي كلها تدعمني.

يدي تدخل في جيب بنطالي، لتُخرج المفتاح، اليد نفسها تدفع المفتاح إلى فمّ الباب الداخلي للفيلا، مفتاح لم أسرقه، ولم أحاول ذلك، لقد وثق بي حين تكرّرت زياراتي الوديّة، اعتاد على وجودي، عدَّني فردًا من العائلة، كنتُ مؤنسه الوحيد خلال تلك الأيّام، أدلف وقت ما أشاء، وأغادر وقت ما تستدعيه انشغالاتي، حتّى إني تجرّأتُ ودون أن يعلم أصحاب البيت على دخوله حين كان الجميع منصرفين إلى أماكن تستدعيهم، أردتُ أن أتجوّل في الفيلا الكبيرة، وكأنني في بيتي، أن أجوب في أرجائها مستدعيًا خيالات تخصّني، أن أتخيّل نفسي في كل زاوية، كل غرفة، كل باب ونافذة، أردتُ أن أجرّب الجلوس على أثاثهم الفخم، أردتُ أن أنام على السرير الوثير، وأتقلّب على جنباتها، لعلّ أحلامي تصطبغ بغير لون السواد والبؤس، أردتُ أن أسترخي أمام التلفاز، أتفرّج على أفلام الكرتون التي لا أعرف أسماءها كأترابي بعد أن أكون قد حملتُ معي ألذّ

الأطعمة من ثلاجة المطبخ التي تكفي لقبيلة، لا لفردَيْن في العائلة، أردتُ أن أكسر غرضًا من مئات الأغراض الثمينة التي لن يشعر أحد بشظاياها المحطّمة أو حتّى باختفائها، وهو أمر لم أجرؤ عليه يومًا؛ فلم تكن في حياتي أغراض فائضة عن الحاجة، أغراض مَنسيّة، بل كان كل غرض له أهمّيّته، قيمته وعمله، لم يكن ثمّة ما هو فائض، بل كنّا دائمًا بحاجة لأغراض أساسية، لا يمكن للمرء العيش دونها بمفهوم العالم المتحضّر، لكننا اعتدنا على الحياة من دونها، لقد استغنينا عنها بمرارة، لأنها لم تكن لنا، لم تُصنع لأمثالنا، لا نستحقّها، لأننا لم نكن نملك حقّها، لقد خُلقنا في هذا العالم مفلسين، لا نملك شيئًا، ولا يمكننا امتلاك شيء، في مقابل الذين يملكون كل شيء، حتّى إنهم يحقّ لهم أن يملكونا كعبيد.

لكن قناعاتي كلها سقطت حين قابلتُه، وكم تملكني العار على الجشع الذي وجدتُ نفسي مدفوعا إليه، وعلى مَنْ نحت في نفسي تلك المآرب.

لكن باب الفيلا الداخلي وجدتُه مفتوحًا في وضعية مواربة، هل نسيه مفتوحًا، يا ترى؟

حين دخلتُ توقّعتُ أن أجده مستلقيًا أمام التلفاز، كما اعتدتُ أن أراه في غالب الأوقات، لكنه لم يكن هناك. كدتُ أن أتسلّق الدَّرَج الحلزوني الذي طالما ارتقيتُه راكضًا، وكأنني من أهل البيت، حتّى سمعتُ من خلفي، بالقرب من باب المطبخ جلبةً، صوتًا يستنجد "فاااااااا" ...

وقبل أن أضغط على زر جهاز الإنذار، سقط الصوت ...



في سنِّ الثالثة والأربعين يفردُ (فارهو) دفاتره السوداء في السجن، أمامَ صحفي أمريكي يرغب في تحويل حياته الغريبة إلى فيلم وثائقي. غريبة؟ نعم فالصبي الصومالي الذي فرَّ مع أمّه وأخته من اضطرابات الحرب الأهلية وأزمة المجاعات في وطنه بوصاصو، بمساعدة خالهم الأثيوبي المقيم في إحدى دول الخليج؛ هو نفسه الصبي الذي يقع ضحية عصابة إفريقية تتاجر بالأعضاء البشرية بزعامة خاله. (فارح) هو ما أصبح عليه الصبي الذي سيعيشُ حياة اللجوء في بلدٍ غير بلده، يربطه مصيرٌ مشترك مع الكثير من الوافدين العرب وغير العرب في دول الخليج، حيثُ أسئلة الاندماج ومصاعب العمل وتحصيل قوت العيش، في ظلِّ غلائه، وبوسائل غير مشروعة غالباً.

روايةٌ هي الأولى للكاتبة ليلى عبدالله، لكنَّها تكشف عن مهاراتٍ سردية تتجاوز عتبة البدايات بالمضي في سبر أسرار النفس البشرية، وتتبّعِ مصائر الهاربين من الحرب الأهلية والمجاعة، والمطاردين من جحيمِ الرَّصاص والقتل العشوائي، إلى جحيمٍ من نوع آخر يكون فيه الإنسان متَّهماً وضحية في آن.

نحن هنا أمام روايةٍ جريئة عن أطفال الحروب والمنافي، عن تشرُّدهم في أوطان غريبة وعن غربتهم في أوطانهم، تستعرضها الكاتبة من خلال حياة فارهو البطل المرتقب لفيلم وثائقي.


ISBN 978-88-85771-81-9
المتوسط